

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
République Algérienne Démocratique et Populaire
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
Ministère de l'enseignement supérieur et de la recherche scientifique

UNIVERSITE 08 MAI 1945-GUELMA

faculté : des lettres et des langues

Département de langue et littérature Arabe

N° :



جامعة 8 ماي 1945 قالمة

الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

الرقم:

مذكرة مقدمة لنيل درجة

الماجستير

(تخصّص: علوم اللّسان العربي)

ملاح التفكير اللساني التداولي في التراث العربي

كتاب الروض المريع في صناعة البديع لابن البناء المراكشي "أنموذجاً"

- مقارنة وصفية تداولية -

إشراف:

تاريخ المناقشة: 2015/12/07

إعداد الطالبة:

أ. د رشيد شعلال

نوال بوخلال

لجنة المناقشة:

رئيسا

جامعة باجي مختار عنابة

أ. د. بشير إبرير

مشرفا

جامعة 08 ماي 1945 قالمة

أ. د. رشيد شعلال

مناقشا

جامعة 08 ماي 1945 قالمة

د. فريدة زرقين

السنة: 2015/2014

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إلى

والدِّيِّ الكريمين محبةً وتبجيلًا،

الَّذِينَ كَانَا خَيْرَ سَنَدٍ لِي فِي هَذَا الدَّرَجَةِ

إلى كلِّ محبِّ للغة القرآن الكريم

أهدي هذا البحث

تَشْكُرُ رَأْسًا

كُنَ عَالِمًا، فَإِن لَمْ تَسْتَطِعْ فَكُنْ مُتَعَلِّمًا.

فَإِن لَمْ تَسْتَطِعْ فَأَحْبِبِ الْعُلَمَاءَ، فَإِن لَمْ تَسْتَطِعْ فَلَا تَبْغِضَهُمْ"

نقدًا و أسماء الشكر والامتنان والتقدير والمحبة إلى الذين حلوا

أقدس رسالة في الحياة..

إلى الذين مهدوا لنا طريق العلم والمعرفة إلى جميع أساتذتنا الأفاضل: الأستاذ جودي

عبد الوحمان، الأستاذة فريدة زرقين الأستاذة حدّة روابحية

الأستاذة هادفة بوزيد،.....إلخ.

ونخص بالشكر والتقدير الأستاذ الدكتور: رشيد هلال

الذي نقول له شراك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«بُنِ الْحَوْثُ فِي الْبَحْرِ، وَالطَّيْرُ فِي السَّمَاءِ لِيَطْلُونَ عَلَى مَعْلَمِ النَّاسِ الْخَيْرِ»

نشكر كل من زرعوا التفؤول في دربنا وقد موالنا يد المساعدة

والتسميلات والأفكار والمعلومات.

الكلمات المفتاحية:

التداولية - rhetorique-eloquence البلاغة - pragmatique-pragmatics
المعنى - discours-talk-epilogue الخطاب - sen-meaning ابن البناء ibn
الأسلوب - al_banaa - act-activer فعل - علم الدلالة - semantique_semantics
الأسلوب - style - system - intontion_vouloir dire القصد - كلام
language - speech

مقدمة

مقدّمـة:

لقد أتى التطور في البحث اللغوي وتنامي المفاهيم اللسانية إلى تغوّر تلك المعتقدات السائدة عن البنية اللغوية، والتي قيّدت لحقب عدّة حركيتها، واحتجزتها في نطاق معزول عن موطن نشأتها وعن مستخدميها، فقد كان ينظر للغة على أنّها مجرد مخزون ذهني (بنية مجردة) أو وسيلة تعبيرية تمثيلية لما هو موجود في الواقع، تجسّد علاقات حتمية بين الظواهر والأشياء، الأمر الذي أتى إلى طمس هويتها وخصوصيتها بوصفها بنية خلاقة قادرة على توليد عدد لانهائي من المفاهيم والعلاقات الدلالية التي لا تكتفي فقط بما ثبت في المعجم بل تتجاوزها إلى خلق دلالات ثانوية تعود إلى طبيعة مستعملها ومتلقّيها. مع ذلك التطور أدرك المهتمون بدراسة اللغة أنّ اهتمامهم يجب أن يتجاوز تلك النظرة المجحفة في حقّ اللغة، وأن يتجاوز التركيب والدلالة إلى ربط البنية اللغوية بسياقات استخدامها لتحقيق مقاصد معينة، فكان من نتائج ذلك التغيّر المفاهيمي ولادة منهج جديد يبحث اللغة في إطار مخالف هو المنهج التداولي، الذي سعى إلى بحث البنية اللغوية بوصفها عنصرا تفاعليا تواصليا يظهر من خلال قرين له هو الكلام الذي لم يعد بدوره مجرد نتيجة حتمية لمادّة لغوية على نحو سلبي، بل هو عمل إيجابي يأخذ طابع فعل الكلام أو الاستعمال، الأمر الذي سمح بتحريك طاقات اللغة الكامنة، حيث أصبحت عنصرا فاعلا يقيم علاقات بين المتكلّمين من جهة وبينهم وبين الأقوال التي ينتجونها من جهة ثانية، ومن ثمّ لم يعد القول مجرد حامل للخبر بل وسيلة ندخل بواسطتها ضمن نسق اللغة لننجز أفعالا ونؤي معاني ووظائف مختلفة تتباين بتباين المواقف التي نستخدم فيها لغتنا.

وتأسيسا على ما سبق يمكن القول أنّ البحث التداولي يجسّد الصّورة الاستعمالية للغة في علاقاتها المختلفة؛ في علاقتها بالمتكلّم الذي يستخدمها، والمستمع الذي يتلقّاها، والمقام الذي يحيط بها ويحوي مقاصدها، وفي علاقاتها الداخلية، وكذا مختلف التفاعلات القائمة بين كلّ تلك العناصر، ولعلّ ذلك ما يعكس أهميّة هذا المنهج الذي سمح بتحريك كل تلك العناصر التي عانت من الجمود والتحرّج في النظريات السابقة، وفتح المجال لدخول عناصر وجزئيات أخرى كفيلة بخلق توازن تخاطبي، فأصبحت المحادثة موضوعا يحلّل على أساس النّص لا الجملة"، و"على أساس القصد لا المعنى" بالمفهوم الضيق له.

ونشير إلى أن حديثنا عن التّقصير في حق اللّغة يشمل فقط الدّراسات الغربيّة، ونستثني من ذلك الدّراسات العربيّة ولاسيّما الدّراسة البلاغيّة، ذلك أنّها لطالما حافظت على مكانة اللّغة وعلى دورها العملي، ولعلّ ما يؤكّد ذلك هو تأسّسها على إجرائيّة اللّغة منذ نشأتها، كما أنّه وعلى الرّغم من تلك المظاهر السّلبية الّتي شابّت البلاغة العربيّة في فترات معلومة والّتي يرجعها البعض إلى المحيط الثّقافي والعقائدي الّذي نشأت فيه، نقول على الرّغم من ذلك تتناول البلاغيّون والّقاد العرب العديد من المسائل اللّغويّة الّتي لا تزال الدّراسات اللّسانية تطرحها اليوم، ومن ذلك الدّراسة التّداوليّة. وإذا كانت الدّراسة التّداوليّة تسعى إلى بناء مؤسّسة لغويّة تخاطبيّة فإنّ البلاغة العربيّة عرفت ومنذ نشأتها بإجرائياتها اللّغويّة. ثمّ إنّ تلك العناصر من متكلّم وسامع وزمان ومكان ومقاصد وأثر الفعل الكلامي في السّلمعين، والّتي تبني عليها الدّاوليّة مباحثها نجد لها حضورا مكثّفا في البلاغة العربيّة ممّا يؤكّد إلى حدّ ما تلك الرّؤى القائلة بالتّداخل المعرفي والمبثّي بين البلاغة العربيّة والتّداوليّة الغربيّة، وبوجود ملامح تداوليّة في التّراث البلاغيّ العربيّ.

كما أنّ جملة من الأسئلة الّتي طرحتها اللّسانيّات التّداوليّة والّتي أرهقت فكر الباحثين فيها، تلك الأسئلة نجد لها إجابات وارهافات مطوّبة في ثنايا الكتب البلاغيّة العربيّة، والّتي انتظرت طويلا من يطالع صفحاتها ويبحث في أبعادها المعرفيّة فيكيّفها مع كلّ المستجدّات، ويهيئ لها مكانتها وسط حلقات الدّرس اللّسانيّ المعاصر. ولعلّ وجود مثل هذه المعارف في تراثنا كان واحدا من الأسباب الّتي دفعتنا للعودة إليه، ذلك أنّ <<الماضي نصّ مفتوح للقراءة على الدّوام...>> ونروم من وراء هذه العودة إلى البحث عن التّجديّات التّداوليّة في المدوّنة البلاغيّة العربيّة، ولنسبر في الآن ذاته أغوار عدد من الإشكاليّات المطروحة:

- هل فعلا التّداوليّة هي إعادة صياغة للبلاغة العربيّة؟ وإذا كان ذلك صحيحا فالإي مدى تستجيب البلاغة العربيّة للطّروحات التّداوليّة؟

هذه الإشكاليّة وغيرها من التّساؤلات سنحاول مقارنتها من خلال العودة إلى واحد من مصّفات البلاغة العربيّة ليكون دليلنا إلى تحقيق غاياتنا البحثيّة، هو مؤلّف الرّوض المريع

في صناعة البديع للناقد والبلاغي المغربي ابن البناء المراكشي، الذي سنتّخذُه حيزًا تطبيقياً علّنا نكشف من خلاله بعضاً من جوانب الامتداد المعرفي للفكر البلاغي العربي.

وتجب الإشارة إلى أنّ بحثنا لملاح التفكير التداولي في البلاغة العربية لا يعني بحال من الأحوال الإقرار بأن البلاغة العربية كانت ذات توجه تداولي مؤسس، بل نسعى إلى تبيان الامتداد المعرفي للفكر البلاغي العربي ونظراته الاستشراافية، والطمّوح يكون إلى رسم حركية فكرية عربية، نحاول أن نقمّ فيها جانباً من الأفكار الرائدة التي عرضها علماء العربية قديماً والتي لم تلق في فترات عدّة ولدى بعض الدارسين العناية الكافية. وبالتّالي فقد كان هذا التّقصير والتّقليل من أهمّية التّراث أحد التّوابع التي بعثت في ذاتنا حافزاً للبحث والإسهام و لو بقدر ضئيل في بعث جانب من جوانب التّراث العربي. وإضافة إلى ما سبق ذكره فإنّه قد أغرانا بالبحث في هذا المجال ما لاحظناه من نظرات نافذة في مؤلّف الروض المريع، وما تتسم به هذه النظرات من بعد فكري لا شك أنّه سيجد لنفسه مكانة في الدرس اللساني التداولي الحديث والمعاصر.

ولعلّ هذه الرّاسة تكتسب أهمّيتها لأنّها ستتناول التّأثير والامتداد المعرفي للمدونة البلاغية العربية في المستويات اللسانية المعاصرة، كما أنّ مثل هذه الرّاسات سيكون حلقة وصل بين القديم والجديد، ومن ثمّ ستكون حاجزاً يمنع كل ما قد يؤدي إلى الانقطاع الفكري أو الانفصال الحضاري بين واقعنا وتراثنا.

ونشير إلى أنّ عملنا هذا ما هو إلّا مواصلة لعمل كان قد اضطلع بإنجازه العديد من الدارسين، الذين قّموا كمّ معرفياً ذا قيمة في هذا المجال، وقد تبلور الاهتمام العربي بمثل هذه البحوث مع كتابات أحمد المتوكّل الذي بحث جملة من القضايا اللغوية في إطار تداولي، وكتابات "طه عبد الرّحمان" الذي أولى عناية خاصّة بهذا الدرس في قراءة التّراث العربي، وكان ذلك في سلسلة من المؤلّفات منها "اللسان والميزان"، "تجديد المنهج في تقويم التّراث"، "في أصول الحوار وتجديد علم الكلام"، و تلاهم في ذلك خليفة بوجادي في كتابه "نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية"، وجميل عبد المجيد في مؤلّفه "البلاغة والاتّصال" وعبد المنعم الخفّاجي في مؤلّفه "نحو بلاغة جديدة". غير أنّ ما نلاحظه على تلك الرّاسات أنّ جلّها تركّز - خاصّة في علم البلاغة - على

مبثني علم البيان وعلم المعاني، دون أن يولوا علم البديع ما يستحقّه من أهميّة، حيث ركّزوا على وظيفته الجمالية وأهمّلوا ما لها من أبعاد إبلاغية وتداولية، ولذلك سنحاول في هذه الدراسة إلى جانب ما سبق ذكره أن نبيّن وظيفة هذا الفن القولي بما ينطوي عليه من أساليب إبداعية ذات أثر فعّال في تحقيق الإبلاغ والتّواصل، ومن ثمّ إبراز وظيفته التّداولية.

وفي سبيل تحقيق هذا العمل لن يكون لنا بدّ من الرّجوع إلى ضروب مختلفة من المصادر والمراجع في البلاغة والأدب واللّسانيات والتّداولية، والتي ستكون معنا لنا في هذا المسار تتصّرها المدوّنة المنتخبة للدراسة، وهي كتاب الرّوض المريع في صناعة البديع لمؤلّفه لابن البناء المراكشي، إلى جانب جملة من المصادر الأخرى نذكر منها؛ البيان والتّبيين للجاحظ، والصّناعتين للعسكري.

أمّا المراجع العربية فنذكر منها؛ نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية لخليفة بوجادي، ومقّمة في علمي الدّلالة والتّخاطب لمحمّد محمّد علي يونس، التّلقي والتّأويل لمحمّد مفتاح، وتاريخ الأدب العربي لشوقي ضيف.

وسيكون اعتمادنا أيضا على بعض المراجع المترجمة نذكر منها؛ القاموس الموسوعي للتّداولية لأن ريبول Anne reboul التّأويل بين السّيميائيات والتّفكيكية لأمبرتو إيكو Umberto eco المقاربة التّداولية لفرانسواز أرمنيغو.

ولقد اقتضت طبيعة البحث عن ملاح التّفكير التّداولي في البلاغة العربية أن نقارب هذه الدراسة مقارنة وصفية تداولية، وأن يكون البحث في فصلين يسبقهما مدخل ومقّمة، ويتلوها خاتمة ستكون عبارة عن ملخّص لما ورد في هذه الدراسة وذكر لأهمّ نتائجها.

وسننصّر في المدخل للاتّصال اللّساني بين البلاغة العربية والتّداولية الغربية، لنبيّن من خلاله التّقارب المعرفي بين العلمين، ويتألّف من أربعة عناوين وهي: البعد الوظيفي للبلاغة العربية، وأشكال الاهتمام بالمتكلم في البلاغة العربية، وأشكال الاهتمام بالمستمع، وآخر هذه العناوين فسناحاول أن نوضّح فيه أهمّية المقام في البلاغة العربية ودوره في توضيح المفاهيم التّخاطبية.

سيكون المدخل قاعدة نرتكز عليها لمعالجة مباحث الفصل الأول وهو بعنوان "علاقات التفاعل بين البلاغة العربية والتداولية"، ويتضمن هذا الفصل ثلاثة مباحث وهي بالترتيب؛ الرؤية التداولية والمفاهيم البلاغية عند المراكشي، وسنحاول أن نكشف فيه عن الأبعاد التداولية لجملة من المفاهيم البلاغية الواردة في المدونة، ويتعلق المبحث الثاني بإبراز المنحى التداولي ووظائفه في صناعة البديع، ويتلو هذا المبحث مبحث ثالث سنعرِّج فيه على أهم المقومات لبلاغية المحققة للفعل التداولي، أي مجموعة الّظم الّتي تؤوي النور الأساس في صناعة الخطاب.

وسنلج بعد هذا الفصل فصلا ثانيا بعنوان "الأساليب القولية بي الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية" وسنحاول أن نعالج فيه انتقال المقاصد والأساليب التخاطبية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية، وبضمّ هذا الفصل ثلاثة مباحث، سنحاول أن نتعرّض في الأول منها إلى أقسام الدلالة عند المراكشي لنبيّن مختلف العلاقات الدلالية الّتي يمكن أن تنشأ عن الارتباط بين اللفظ والمعنى. أمّا المبحث الثاني فسنحاول أن نرصد فيه ما ورد عند ابن البناء من أحاديث عن الخطاب ووجوهه وقوانينه، وهي مجملّة في مطلبين كالآتي: أقسام الكلام، وأسباب غموض الكلام وعنوان المبحث المبادئ التخاطبية التداولية والأساليب البلاغية المحققة لذلك. وآخر هذه المباحث وهو بعنوان "أساليب التحوّل والانتقال ومواجهة المعنى نحو الغرض المقصود" فسنحاول أن نتعرّض فيه لجملة من الأساليب الواردة في المدونة، وبحث ما تؤيّه هذه الأساليب من دلالات تخاطبية ومن وظائف تواصلية باعتبارها سبلا لصناعة الكلام البين المفيد.

ويعقب هذا الفصل خاتمة، ثم عرض لقائمة المصادر والمراجع.

وككلّ عمل فإنّه لم يخل بحثنا من بعض الصّعوبات الّتي اعترضت سبيلنا، خاصّة بالنسبة للمراجع الّتي تتناول مؤلّفات ابن البناء بالدراسة، وأيضا صعوبة الطّريق الّذي نسلكه لأوّل مرّة. ولكن بفضل الله وبفضل أستاذي المشرف تمكّنا من إنجاز هذا البحث.

وختاما نتوجّه بالشّكر إلى الأستاذ الكّكتور "رشيد شعلال" على كل ما بذله من جهد في سبيل مساندتنا، وعلى كلّ ما قمّمه لنا من نصائح علمية قيّمة، فله منّي خالص الشّكر ومن الله جزيل الثّواب.

كما أتوجّه بالشّكر إلى الأستاذة الفاضلة فريدة زرقين على كل ما قنّمته لنا من معارف، وعلى منحنا وقتها في سبيل توجيهنا الوجهة السّديدة.

ونتوجّه أيضا بالشّكر للجنة الفاحصة التي منحتنا وقتها الثّمين في سبيل الظّر فيما قنّماه، ونعد بأننا سنتبع كلّ ن صيحة توجّه إلينا لنسير على التّرب العلميّ السّليم والسّديد.

كما أتوجّه بالشّكر إلى كلىة الآداب واللّغات بجامعة 8 ماي 1945 ممثّلة بأساتذتها الأفاضل، وعميدها الموقّر عبد العزيز بومهرة، فجزى الله الجميع عني ما صنعوا خير جزاء.

مدخل

الاتصال اللساني بين البلاغة العربية والتداولية

من أهم ما نتج عن التطور الواعي في المفاهيم الفكرية، العلاقات النقدية واللسانية، وجود إشكاليات ومقتضيات جديدة تتطلب البحث، ضرورة التفسير لآليات تشكلها ونظم سيرورتها، ونقصد بذلك **القضية التداولية*** ، ذلك أن الدراسات السابقة من مثل الأسلوبية والشكلية (الشكلانيون)، والبنوية على الرغم من محاولتها المتواصلة للولوج إلى عمق النص الأدبي وتفسير علاقاته وفحوائده، إلا أنها ظلت بعيدة عن الجوهر والصورة الفعلية للنص في إطاره الحركي التفاعلي؛ ذلك أنها ركزت على مستوياته الشكلية (المستوى الصوتي، المستوى التركيبي، المستوى الدلالي) وانشغلت بعناصر وإشكاليات غير نصية، لم تكن كفيلة بتفسير تلك الشبكة العلائقية المعقدة، من مثل: السيرة الذاتية، والدراسات النفسية، والدراسات الاجتماعية... الخ.

و لعل من أهم المآخذ التي أخذت على المناهج السابقة أنها لم تستطع تجاوز مشكلة الحديث عن " علاقة الدلالة بالسياق"، و ظلت تدرس المعنى مجرداً و بعيداً عن إطاره السياقي التداولي. ومن هنا جاءت التداولية كاتجاه لساني نقدي جديد يهدف لحل الإشكالية اللسانية المطروحة >> هل بإمكانني أن أقول ما طرأ فإتي سأخرج في نزهة؟<<⁽¹⁾ وهي إشكالية طرحها العالم الرياضي واللساني الشهير **لودفيغ فتنغشتاين**** (1889-1951) I.wittgenstein

* وليس تاريخ التداولية بمعنوم، ولكنه غير ممتد في الزمان إلا قليلاً (ثلاثون عاماً مضت)، ومن المفارقة أن التداولية ليست صناعة ولدت من برنامج بحث صيغ صياغة مجردة كما هو حال العلامة مثلاً التي أتت على الأقل في تقاليد القارة الأوروبية، البرنامج الذي أطلقه سوسير... ويمكن أن نجد منطلق التداولية في أعمال فلاسفة اللغة، وبالخصوص في سلسلتي محاضرات قمت بجامعة هارفارد (محاضرات وليام جيمس william james) ألقاها سنة 1955م جون أوستن j.austin . وألقاها سنة 1967م بول غرايس p.grice . وقد أدخل أوستن في محاضراته مفهوماً محورياً للتداولية، وهو مفهوم الفعل اللغوي" ميباً بذلك أن اللغة ليس لها وظيفة وصفية، بل وظيفة عملية، فكان وجود ظواهر لغوية خاصة بالدلالة على العمل اللغوي أحد برامج البحث الأولى التي اعتمدها اللسانيون لتأسيس التداولية. ينظر: أن ريبول، **القاموس الموسوعي للتداولية**، تر: عزالدين المجذوب و آخرون، دار سيناترا، تونس، دط، 2010م، ج1، ص 21_22.

(1) أمبرتو إيكو، **التأويل بين السيميائيات و التفكيكية**، تر: سعيد بن كراد، المركز الثقافي العربي، دط، 2000م، ص 187. **منطقي نمساوي، وهو أستاذ الفلسفة في جامعة كامبردج، بحث في أسس الرياضيات، وبداية سنة 1930 اتجه الى دراسة اللغات الطبيعية، وضع نظرية ألعاب أو لعبة اللغة . من مصفاته philosophical investigation سنة 1953.

وأجاب عنها قائلاً: >> داخل اللّغة وحدها نستطيع التعبير عن شيء من خلال شيء آخر. <<(1)

فقبل اندلاع الحرب العالمية الثانية، حاولت التجريبية المنطقية **logique empirisme** القريبة من نادي فينا **cercle de vinne** تغيير الوجهة الفلسفية التقليدية موضوعاً لممارسة، وهو تغيير مثله الاتجاه التحليلي وهو الاتجاه الرئيس في فلسفة اللّغة المعاصرة ، وقد جتهد هذا التيار الذي يمثله أساساً كل من **فريج freg**، و **كارناب carnap**، و **فتنغشتاين wittgenstein**، في إعادة بناء لغة صورية تكون بمثابة أداة ضرورية لوصف العالم وتأويله؛ إذ تجمع هؤلاء الفلاسفة مسلّمة عامّة مفادها >> أن فهم الإنسان وعالمه يرتكز في المقام الأول على اللّغة فهي التي تعو له عن هذا الفهم <<(2).

فالتداولية تتجاوز الإطار الدلالي الضيق لتتركب المحصور في الدلالة اللسانية، إلى الكشف عن مقاصد المتكلم من خلال العودة بالنص إلى السياق التداولي الذي نشأ فيه، لمعرفة مدى التطابق أو اللا تطابق بين دلالة النص لسانيا وظروف السياق(3)، فاللّغة وفق المنظور التداولي هي بالدرجة الأولى استعمال لا تمثيل للواقع أو تعبير عن النفس أو الفكر بالمفهوم الضيق للغة، وهي بذلك >>تجاوز البعد التصوري المفهومي والتّمثيلي الذي اهتمت به المناهج القديمة والتي ظلت تعتبر اللّغة تمثيلاً وتصويراً للواقع الخارجي أو دواخل النفس البشرية<<(4). فالمناهج القديمة السابقة درست اللّغة في إطارها النفسي ولم تدرسها كاستعمال لغوي،

(1) أمبرتو إيكو، التّأويل بين السّميات و التّفكيكية، ص 187.

(2) نادبة رمضان النّجار، الاتّجاه التداولي و الوظيفي في النّرس اللّغوي ، مؤسّسة حورس النّولية، الاسكندرية، ط1، 1434هـ/2013، ص .

(3) عماد عبد يحيى الحياي و أشواق محمد اسماعيل النّجار، >لاقتضاء التداولي و أبعاده الخطابية في تراكيب القرآن الكريم<<، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مج15، العدد الأول، كانون الثّاني 2008م، ص63-64.

(4) أودينة سليم، فلسفة التّداوليات الصّورية وأخلاقيات النّقاش عند بورغن هابرماس)، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1439هـ/2008-2009م، ص 17 .

وفي هذا السياق تؤكد فرانسواز أرمنيكو f.arminico مفهوم التداولية* ووظيفتها قائلة: >> إنها - تعني التداولية دراسة استعمال اللغة في الخطاب شاهدةً في ذلك على مقدرتها الخطابية <<(1).

وليتمكن هذا الاتجاه الجديد من تحقيق أغراضه حاول العديد من العلماء أمثال: جريس grice، و أوستن Austin، و سورل Searle، و ليتش G.leech وضع قواعد للتأدب والمحاورة والمخاطبة مستمدة من السياق الاجتماعي والثقافي لتجسد لسانيا من خلال المنطوق. ونشير إلى أن التداولية بتركيزها على الجانب الاستعمالي للغة لا تهمل الدلالة الشكلية للمنطوق "مظهره الفيزيائي" و المتجسدة من خلال اللغة، بل تتخذ منه

*ونشير في هذا السياق إلى ضرورة التمييز بين مصطلحي التداولية pragmatique/pragmatics و البراجماتية pragmatism أو الذرائعية، كونها ترجمة لمصطلح أصلي واحد وهو pragmatique أو، أو pragmatics، أو pragmatisme، أو pragmatism. ويوضح لنا ذلك >> إذا ما وقفنا على الدلالة المعجمية للمصدر الأجنبي، و الذي يعود إلى الكلمة الأجنبية pragmaticus التي يؤرخ لاستعمالها بالقرن الخامس عشر ميلادي (1440م)، والتي تبنى على الجذر pragma ومعناه الفعل (action)، ثم صارت اللفظة بفعل اللائحة تطلق على كل ماله نسبة إلى الفعل أو التحقق العملي. << ينظر نواري سعود أبو زيد، في تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ و الإجراء)، ط1، بيت الحكمة، الجزائر، 2005م، ص18.

وهناك فرق شاسع بين دلالة المصطلحين؛ إذ يختص الأول .نعني التداولية . بدراسة اللغة في الاستعمال و بحث العلاقة اللغوية بين المتكلمين ودوافعهم النفسية، و كذا ردود أفعال المتلقين، و كذا شروط إنتاج الخطاب و نماذجه الاجتماعية و موضوعه، في حين نجد أن الذرائعية هي مذهب فلسفي يحدّد التركيز على كل ما له أهمية عملية للبشر و يتجذب البحث في القضايا المطلقة أو المجردة. وإذا ماتعمقنا تاريخيا، نجد أن مصطلح البراغماتية فلسفيا أقدم نسبيا من مصطلح التداولية، ذلك أن البراغماتية فلسفيا اسم جديد لطريقة قديمة في التفكير بدأت على يد سقراط، ثم أرسطو و الرواقيون بعد ذلك . وأول من استعمل مصطلح البراجماتية هو تشارلز ساندرس بيرس charles sandars peirs (1839-1914)، وذلك في مقال نشره في يناير 1878م ومعناه عملي أو صالح لغرض معين. وتبعه وليام جيمس william james في محاضراته التصورات العقلية و النتائج العملية " سنة 1898م. أما الاستعمال الحديث لمصطلح التداولية pragmatique فقد اعتمد على تأثير المذهب الفلسفي الأمريكي البراجماتية pragmatism <<. ينظر: عيد بلبع، <<التداولية من أوستن إلى غوفمان>>، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ع 66، ربيع 2005م، ص38 و ما يليها.

(1) فرانسواز أرمنيغو، <<لمقاربة التداولية>>، تر: سعيد علوش، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء

قاعدة للتحرّك في اتجاه أعمق للكشف عن مقاصد المتكلم، و بحث الأنساق الثّقافية و الفكرية المشكّلة لسياق النصّ >التداولية تجعل من البنية اللّغوية أرضية صلبة لنظرتها للوجود وللإنسان باعتباره ظاهرة لغوية تفعل في الخارج. فمن مجهوداتها أنّها فتحت المجال إلى ما يعرف بالمرخج الألسني كحاضنة جديدة بدراسة أوجه العلاقة بين المتكلم و اللّغة.⁽¹⁾

ومن مساعي التداولية كما دعى إلى ذلك هابرماس بلوغ عقلنة جديدة يدعوها العقلنة التّواصلية Rationalité communicationnelle في مقابل العقلنة الأداةية Rationalité Instrumentale، >والتي يرفضها للأسباب التّالية(تشاؤم، اغتراب، أداتية، علموية). وأولى أوليات هذه العقلنة التّواصلية إعادة ربط صلة الفرد بالشريك الآخر دون ضغوط أو إكراه بغية تشكيل لحمة النّسيج الاجتماعي وفق أنموذج أخلاقيات المناقشة...⁽²⁾، إضافة إلى دراسة العلاقات اللّغوية بين مستعملها، وبحث طرق التّكلم وإنتاج الخطاب، إذ تسعى التّداولية إلى >تفنيد مزاعم شكّك العصر من التّفكيكين أمثال ليوتار، ودريدا، و بودريار، وميشال دو سارتو الذين يزعمون بأنّ اللّغة هي ميدان للغموض و الضبابية و بالتّالي لسوء الفهم و التّنازع، ومن هذا المنطلق كان هدف هابرماس وغيره من اللّسانيين التّداوليين هو بحث كيفية إنشاء حوار حقيقي وائتلاف تواصلية بين الأفراد في ظلّ التّواعات المحتدمة بفعل الخلفيات الإثنية والدينية والاقتصادية والسياسية⁽³⁾.

وتأسيساً على ما سبق نجد أنّ مفهوم التّداولية ووظيفتها يتلخّصان في >دراسة اللّغة في الاستعمال أو في التّواصل؛ ذلك أنّ صناعة المعنى تتمثّل في تداول اللّغة بين المتكلم والسّامع في سياق محدّد(مائي، واجتماعي، ولغوي) وصولاً إلى

(1) سليم أودينة ، فلسفة التّداوليات الصّورية و أخلاقيات النّقاش عند يورغن هابرماس)، ص08.

(2) المرجع نفسه، ص09.

(3) المرجع نفسه، ص12.

المعنى الكامن في كلام ما^{<<(4)} وعليه تهدف التداولية إلى تفسير العمليات التفاعلية بين المتواصلين، وما تتطلبه هذه العمليات من شروط وقوانين لتحقيق عملية تواصلية ناجحة، وكذا الوسائل التي تنفذ بها اللغة في مختلف المقامات الحوارية، فالتداولية تحاول أن تخرج البنية اللغوية من نطاقها الشكلي المحض الذي قد يفقدها خصائصها الجوهرية، ولا سيما الخاصية التواصلية إلى وسطها التفاعلي بوصفها عنصرا حيويا كفيلا بتحقيق خطاب تواصلية ناجح.

وفي مقابل التداولية نجد أن البلاغة تمثل في وقتنا الراهن الذّاكرة الحيّة للتّراث العربي القديم، كما أنّها تمثّل حلقة وصلٍ بين إسهامات القدماء وإنتاجات اللسانيين المحدثين، وهذا ما يجعلها جسراً للتواصل الفكري والحضاري بين واقعنا وتراثنا. ولعلّ أهم ما يميّز البحث اللساني المعاصر هو ذلك التضارب في الرؤى حول ما قدّمته البلاغة العربية القديمة، و ما جاء به المحدثون كنظريات معاصرة، بين مؤيدٍ لانطواء البلاغة العربية على مفاهيم وأبعاد لغوية استشرافية، وبين مفسدٍ لذلك. لذا نشير بداية إلى أنّ البلاغة العربية ليست بحاجة إلى من يحملها ما لم تقله أو من يضيف لها، فهي بما تناولته وأسهمت به في مجال التّراث الفكري المعرفي الإنساني تقمّ مبرراتها وأدلتها على أنّها علم شبه مكتمل، يستحقّ الوقوف عند أبوابه، التي لا شك أنّها لم تتغلق على حقبة زمنية معيّنة، بل هي أبواب مفتوحة على الفكر المعاصر، وهي بذلك تمتاز بامتدادها المعرفي من حيث العمق والشمول في العديد من المجالات. وربما كان هذا الاتّساع المعرفي هو ما جعلها تتعرّض بشكلٍ واسعٍ للعديد من المفاهيم والإشكاليات اللسانية الحديثة والمعاصرة، ومن أبرز تلك القضايا **القضية التداولية**.

فإذا كانت التداولية قد جاءت لتعيد للمنطوق ديناميته وفاعليته، فإنّ هذا المنطوق (والمكتوب) طالما كان كذلك في اللّوس البلاغيّ العربيّ؛ الذي تميز بتأسسه على إجرائية اللغة، واهتمامه بكلّ ما له علاقة بالعملية الإبلاغية من متكلّمٍ و مستمعٍ، ورسالة، ومقام، ومقاصد، وشروط لصناعة الكلام البليغ، ويذهب أحد الباحثين إلى تأكيد ذلك قائلاً: > إنّ النّحاة والفلاسفة المسلمين والبلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي

(4) هاجر مدقن، <التّحليل التداولي> للأفق النظري و الإجراءات التّطبيقي في الجهود التّعريفية العربية، مجلة

الأثر، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، الجزائر، العدد السابع، ماي، 2008م، ص 167.

قبل أن يذيع صيته بصفته فلسفة وعلمًا، ورؤيةً واتجاهًا أمريكيًا وأوروبيًا، فقد وظّف المنهج التداولي بوعيٍ في تحليل الظواهر والعلاقات المتنوّعة^{<<(1)>>}. وفي هذا السياق أيضًا يؤكّد خليفة أبو جادي أنّ البلاغة العربية تناولت كل ما يرتبط باستعمال اللّغة وممارستها، ويوضّح ذلك قائلاً: >>إذا كانت التداولية في أوجز تعريفاتها هي دراسة مناحي الكلام، أو دراسة اللّغة حين الاستعمال، فإنّ البلاغة هي المعرفة باللّغة أثناء استعمالها، وبكلمة هي فنّ القول <<(1)>>.

وبالتّالي فإنّ الحديث عن الاتّصال اللّساني (الربط المائي) بين البلاغة العربية والتداولية الغربية، ومن ذلك الحديث عن تجلّيات الملمح التداولي في الفكر البلاغيّ العربيّ القديم، لا يتمّ إلاّ إذا ربطنا بدايات هذا المنهج المعاصر بالبلاغة العربية من حيث كون الدرس البلاغيّ مؤسسًا على إجرائية اللّغة ممّا يجعله واصلًا بالتداولية، فإذا كانت التداولية قد اهتمت بدراسة اللّغة بوصفها عنصرًا تفاعليًا قائمًا على مقومات محدّدة، نجد أنّ البلاغة العربية قد ارتكزت قبل كلّ شيء على ممارسة اللّغة. و من ثمّ نجد أنّ التداولية والبلاغة العربية تشتركان في النظر إلى اللّغة على أنّها عنصر فعّال لتأدية التّواصل اللّغوي.

فالمنتبّع للشأن البلاغيّ العربيّ القديم يجد أنّ معظم عناصر المقاربة التداولية حاضرة بكثافة في الخطابات البلاغية العربية، بل إنّ هذه العناصر كانت من أهمّ سمات البلاغة القديمة، ومن تلك الظواهر نجد: المقام، المتكلّم، المستمع، المقاصد، مقتضى الحال، التّأثير، الإقناع، الحجة،.... إلى غير ذلك من العناصر البلاغية التي تسهم في تحقيق المعنى التداولي.

1/ البعد الوظيفي التداولي للبلاغة العربية:

(1) أحمد سويرتي، <<اللّغة و دلالتها>> (تقريب تداولي للمصطلح البلاغي)، مجلة عالم الفكر، مجلد 28، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ع3، 2000م، ص08.

(1) خليفة أبو جادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية (شروع لربط البلاغة بالاتّصال)، ندوة الدراسات البلاغية، الواقع و المأمول، جامعة سطيف، الجزائر، 1433هـ، ص713.

من أهم الموضوعات التي تعالجها البلاغة العربية عملية الإبلاغ وكيفية تحققها، وكذا الاهتمام بكل ما تخلفه هذه العملية من نواتج عملية وسلوكية، فمن أهداف البلاغة العربية إحداث التأثير والتغيير في نوات المتكلمين والوصول بهم إلى أعلى درجاتها وهي درجة الإقناع، وهو ما يمكن أن نتبينه من خلال مفهوم البلاغة .

أ- الوظيفة الإبلاغية (تواصلية):

إنّ المتنبّع للدلالة اللغوية والمعجمية لمصطلح البلاغة يجد أنّها توحى بمعنى مشترك يفيد "الإبلاغ والإيصال"، حيث يذهب ابن فارس (ت 395هـ): >> أن الباء واللام والغين أصل واحد صحيح وهو الوصول إلى الشيء، تقول بلغت المكان إذا وصلت إليه<<⁽¹⁾. وفي الصحاح: >> بلغت المكان بلوغاً وصلت إليه<<⁽²⁾. وتدلّ مادة (ب ل غ) في اللسان كذلك على البلوغ و الانتهاء: >> بلغ الشيء بلوغاً و بلاغاً وصل وانتهى<<⁽³⁾.

ولا تختلف الدلالة اللغوية لمصطلح "بلاغة" عن دلالاته المعجمية إذ يعرفها أبو هلال العسكري (ت 395هـ) بقوله: >> البلاغة من قولهم بلغت الغاية إذا انتهيت إليها، وبلغتها غيري، ومبلغ الشيء منتهاه، والمبالغة في الشيء الانتهاء إلى غايته، فسميت البلاغة بلاغة لأنها تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه<<⁽⁴⁾.

(1) أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تح: عبد السلام محمد هارون، ج1، دار الفكر، دط، 1399هـ/1979م، ص301.

(2) الجوهري، أبو نصر اسماعيل بن حماد، الصحاح، تح: أحمد عبد الغفور عطار، ج4، دار الملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1407هـ/1987م، ص1316.

(3) ابن منظور، لسان العرب، ج8، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ، ص419.

(4) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الصناعتين، تح: مفيد قمحة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط2، 1989م، ص15.

وهذا التعريف الذي قّمه العسكري لمصطلح البلاغة هو تعريف يجمع بين وظيفة البلاغة وهي الإبلاغ والإيصال، وأقطاب العملية الإبلاغية من متكلّم ومستمع ورسالة، فالبلاغة لن تحقّق وظيفتها الإبلاغية ما لم يملك المتكلّم كفاءة لغوية وكفاءة تواصلية

تمكّنه من إنشاء الكلام البليغ والتعبير عن مقاصده وإيصالها إلى المستمع فيفهمها، إذ >> يكفي من حظّ البلاغة ألاّ يؤتّى السّامع من سوء فهم النّاطق، ولا النّاطق من سوء فهم السّامع <<(1).

ومفهوم لبلاغيين العرب للتّواصل يتّفق ومفهوم اللّسانيين الغربيين له، وهو ما نجده في تعريف يسبرسن للّغة، إذ >> تكمن روح اللّغة في نوع من الشّاط الإنساني، نشاط من جانب فرد يحدّد في إفهام نفسه لشخص آخر، ونشاط من جانب هذا الشخص الآخر بغرض فهم ما كان يجري في ذهن الشخص الأوّل <<(2).

ومما يؤكّد أيضاً اهتمام البلاغيين العرب بالوظيفة التّواصلية للّغة، تركيزهم على الوظيفة الإفهامية للبلاغة باعتبارها شرطاً أساسياً لتحقيق إيلاّغ ناجح؛ إذ تعتمد على وضوح المعنى وقوّته، وذلك ليتمكّن المتكلّم من تبليغ مقاصده إلى غيره، وهذا الاهتمام يمكن أن نلحظه في قول ابن سنان الخفّاجي: >> ومن شروط الفصاحة والبلاغة أن يكون معنى الكلام ظاهراً جلياً لا يحتاج إلى فكرٍ في استخراجه، وتأمّل لفهمه...واللّليل على صحّة ما ذهبنا إليه (...). أن الكلام غير مقصودٍ في نفسه، وأنما احتيج ليعرّ الناس عن أغراضهم و يفهموا المعاني الّتي في نفوسهم <<(3).

فالتّواصل أو الإبلاغ - بالنّسبة للبلاغة والتّداولية - هو نتاج جهد مشترك بين المتكلّم والمستمع، حيث يسعى الطرف الأوّل إلى إثبات ذاته من خلال التّعبير عن

(1) المصدر السّابق، ص16.

(2) شرف عبد العزيز، علم الإعلام اللّغوي، الشركة المصرية العالمية للنّشر (لوجمان)، مصر، ط1، 2006م، ص7.

(3) الخفّاجي، ابن سنان، سر الفصاحة، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 1982، ص220-221.

مقاصده، وفي مقابل ذلك يحاول الشريك الآخر تحليل ما وجه له من إرسال لفهم ذات مرسله واستيعاب فحوى رسالته .

ب . الوظيفة الإقناعية (لتأثيرية) للبلاغة العربية:

لم تقف البلاغة العربية عند حدود الوظيفة التعليمية، بل امتد عملها لتحقيق وظائف أخرى، منها الوظيفة الإقناعية، حيث اتّسمت البلاغة العربية بكونها نشاطا إجرائيا قائما على ممارسة اللّغة في وسطها الحي؛ أي الوسط الاجتماعي الذي نشأت فيه، وقائما على تنشيط الملكة التّواصلية لدى المتحادثين، وما يؤكّد ذلك هما عنصران التّأثير والإقناع اللذان طالما حرصت البلاغة على توفّرهما في العمليّة الإبلاغية، ولذا فإنّ الحديث عن الاتّصال اللّساني بين البلاغة العربية و التّداولية يبرره >> أن البلاغة العربية تعالج قوّة التّأثير في الآخر وكيفية إقناعه، وبيان كل المقاصد التي يهدف الباحث إلى تحقيقها، وهذه النّقطة تعدّ من أهمّ مباحث التّداولية التي تدرس التّفاعل الاتّصالي بين المخاطب والمخاطب، وما يحدثه الفعل الكلامي من تأثير <<(1).

وهذان العنصران هما نشاطان حيويان قائمان على مبدأي التّحول والتّغور؛ فالإقناع بوصفه نتاج عملية تفاعلية بين طرفين أو بين عدد من الأشخاص يهدف دائما إلى التّأثير في ذات المستمع، والتّالي إحداث تغيير في الموقف العام له ، أي إحداث تغيير في سلوكه، وهو تمثيل لأسمى الغايات التّداولية.

ولقد اهتمّ الجاحظ (ت255هـ) بدوره بهذه الوظيفة التّداولية - نقصد الوظيفة الإقناعية والوظيفة الإفهامية - في سياق حديثه عن الخطابة - والتي تحثّ عنها كمرادف للبلاغة - فيقول: >> ومدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل و السّلمع إنّما هي الفهم

(1) سامية بن يامنة، <<الاتّصال اللّساني بين البلاغة و التّداولية>>، مجلّة دراسات أدبية، مركز البصيرة للبحوث و الاستشارات للخدمات التّعلّمية، الجزائر، ع1، جمادى الأولى 1429هـ/ماي 2008م، ص53.

والإفهام، فبأي شيء بلغت الأفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضوع»⁽²⁾.

وقد قسم الجاحظ في كتابه "البيان ولتبيين" البيان إلى ثلاثة وظائف وهي:

- الوظيفة الإخبارية المعرفية التعليمية (حالة حياد)؛ إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام.
- الوظيفة التأثيرية (حالة الاختلاف)؛ تقديم الأمر على وجه الاستمالة وجلب القلوب.
- الوظيفة الحجاجية (حالة خصام) إظهار الأمر على وجه الاحتجاج والاضطرار»⁽¹⁾.

وكلّ هذه الوظائف >>تشكّل جوهر النظرية التداولية في الدراسات المعاصرة باعتبارها مقارنة تهتمّ بالتواصل بالدرجة الأولى، والإقناع والتأثير، وإيصال المعنى، وتقديم الفائدة، ومنه فإنّ غايتها منفعية بحتة»⁽²⁾.

2/ أشكال الاهتمام بالمتكلم و مقاصده في البلاغة العربية:

لقد كان البلاغيون العرب على وعي بدور المتكلم الأساس في إنشاء الخطاب و في تحقيق عملية إبلاغ ناجعة، لذلك وضعوا شروطاً و مواصفات خاصة به كي يضمن نجاح اتّصاله مع الطرف الآخر، ذلك أنّ المتكلم يشكّل >>طرفاً أساسياً في عملية الكلام ، وعنصراً فعّالاً في تحديد خصائص النصّ، إذ يقع على عاتقه كلفة إخراجها على سمّ يستجيب لمقتضيات الوظيفة و الإبانة و الوضوح»⁽³⁾.

(2) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر؛ ج1، البيان والتبيين، دار مكتبة الهلال، بيروت، لبنان، دط، 1423هـ، ص82.

(1) محمّد العمري، البلاغة العربية (أصولها و امتداداتها)، أفريقيا الشرق، المغرب، دط، 1999، ص212-213
(2) راضية خفيف بوبكري، <التداولية و تحليل الخطاب الأدبي>> (مقاربة نظرية)، مجلة الموقف الأدبي، ع399، تموز 2004م، ص03.

(3) أم الخير سلفاوي، (البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للساكي)، مذكرة ماجستير، جامعة قاصدي مرباح ورقلة، الجزائر، 2009، ص40.

ومن أهم الشروط التي حرص البلاغيون على توفرها في المتكلم شرط "الفصاحة والبلاغة" والتي يمكن مقابقتها بالكفاءة الإنتاجية والكفاءة التواصلية*.

وهذا الشرط يوضحه قول القزويني (ت793هـ) في كتابه الإيضاح: >>البلاغة والفصاحة تقع صفة لمعنيين؛ أحدهما في الكلام، ولثاني المتكلم، كما في (قولنا شاعر فصيح، أو بليغ) أو (كاتب فصيح أو بليغ)<<(1).

فالمتكلم في البلاغة العربية ينبغي أن يمتلك المؤهلات اللغوية والأسلوبية التي تمكنه من التعبير عن مقصده وإيصالها إلى مستمعه >>ملكة يقتدر بها على التعبير عن المقصود بلفظ فصيح <<(2). وشرط الوضوح في التعبير لهتلاك المهارة اللغوية التعبيرية يتفق مع ما >>اقترحه غرايس Grice من شروط للخطاب <<(3).

ولم يغفل الجاحظ بدوره أهمية المتكلم في إنشاء الخطاب، فهو ينهض عنده بوظيفة "بيانية" و "تبيينية" بطريق كشف قناع المعنى وتوضيحه للسامع(4).

ومن أحسن ما يرتبط بالمتكلم في البلاغة العربية من قيم تداولية، أنهم >>مؤوا بينه وبين الكلمات، و عرفوا المتكلم بأنه هو فاعل الكلام <<(5). وهو تعريف تداولي مرتبط بإنجازه الفعل الكلامي حقيقة في الواقع، ولا يعد متكلماً إلا بذلك.

✓ مقاصد المتكلم:

ومن مواطن الاهتمام بالمتكلم، والتي تبرز بدورها الاتصال اللساني بين البلاغة العربية ولتداولية، حديث البلاغيين العرب عن موضوع القصد في الكلام والإبلاغ >> وربما جعلوا

*أي الاستخدام المناسب للتعبير المناسب في الموقف المناسب. ينظر:نادية رمضان النجار،الاتجاه التداولي والوظيفي في الدرس اللغوي، ص13.

(1) القزويني، جلال الدين، الإيضاح في علوم البلاغة، تح: محمد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط5، 1980م، ص72.

(2) المصدر نفسه، ص79.

(3) خليفة أبو جادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية(مشروع لربط البلاغة بالاتصال)، ص722.

(4) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان والتبيين، ص.

(5) المصدر نفسه، ص720.

المعنى جميعاً في القصد... فالقصد أساس عملية التّواصل و الإبلاغ، و به وحده يمكن عدّ المتكلم متكلماً^{<<(6)}، لأنّ مدار وظيفية الخطاب الغايات و المقاصد التي يرسمها المتكلم لخطابه.

و اهتمام البلاغيين العرب بهذا النوع من المباحث أتى بهم إلى تحديد مفهوم متقدّم للقول؛ أي تحديدهم له على أنه فعل وليس مجرد وسيلة تعبيرية أو مخزون ذهني، ومن ذلك عدّ الخفاجي الكلام فعلاً لا يختلف عن الضوب، و التّحريك في وصف ما هو عليه في الواقع، و يوضّح ما ذهب إليه قائلاً: >> إنّ المتكلم لغيره إنّما يحصل متكلماً له بأن يقصده بالكلام دون غيره، و يكون أمراً له متى قصده بالكلام و أراد المأمور به <<(1). فالمتكلم لا يعدّ متكلماً ما لم يكن له قصد، و الكلام لا يحقق وجوده ما لم ينجز فعلاً، >> وهكذا يصبح القصد قانوناً داخلياً في صلب المواضعة يحدّد نوعية أجناس الخطاب من خبر أو أمر أو استخبار فيتحوّل بالصياغة اللسانية من الوظيفة البلاغية إلى الوظيفة الاقتضائية كما في الأمر و النهي و الطّلب <<(2).

✓ حسن النّظم:

إضافة إلى ما سبق من شروط اشترط البلاغيون العرب في المتكلم "القدرة على حسن النّظم أو التّركيب"؛ ذلك أنّ حسن سبك المتكلم لألفاظه و انسجام معانيه يكون بمثابة أساس متين لمشروعه التّواصلية، كما ينبىء أيضاً عن حسن فهم و المام بموضوع الخطاب، فالبلاغة عند السكاكي (ت626هـ) >> هي بلوغ المتكلم في تأدية المعاني حنا

(6) خليفة أبو جادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية (مشروع لربط البلاغة بالاتصال)، ص720.

(1) عبد السلام المستي، التّفكير اللّساني في الحضارة العربية، الدار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1981م/ط2،

1986م، ص146.

(2) المرجع نفسه، ص146.

له اختصاص بتوفيه خواصّ التراكيب حقّها. <<(3) فحسن الإفهام من حسن الفهم. وحسن النظم لا يتمّ إلا إذا أحسن المتكلم الموازنة بين ألفاظه ومعانيه، ولا يتأتّى أيضاً إلا إذا أحسن المتحدّث الموازنة بين دلالة اللفظ ومقام الحديث، وأتقن سبكها باختيار المكان المناسب لكلّ لفظة؛ ومن ثمّ فإنّ حسن نظم الكلام يسهّل عليه عملية تبليغ مقاصده إلى الطرف الآخر، وبالتالي تحقيق غاياته الإفهامية والتأثيرية والإقناعية. وفي مقابل ذلك فإنّ عدم انسجام الألفاظ والمعاني وعدم مناسبتها لسياق الحديث يحدث خلافاً في التركيب ممّا يؤدّي إلى التشويش على المستمع، وبالتالي تعطلّ عملية فهمه لمضمون الرسالة الموجهة إليه، وهذا ينبىء عن وعي البلاغيين وإدراكهم للنور الذي يؤدّيه المتكلم في الخطاب، ونتيجة لكلّ ذلك كان من اهتمامات البلاغة العربية العناية >> بدراسة المعنى من حيث الإنتاج والانسجام التّمكين، وقد بحثت في عناصر المعنى هذه بحثاً مترابطاً، فعملت على توجيه الإنتاج توجيهها يضمن انسجام الخطاب، أو حصول التّمكين والاستجابة >>(1).

أي توصيل المعنى إلى ذات السّامع وتمكينه فيها.

3/ أشكال الاهتمام بالمستمع (المخاطب) في البلاغة العربية:

يحظى المستمع بوصفه المنتج الثّاني للخطاب . بأهمية لا تقلّ عن تلك التي يحظى بها المتكلم في البلاغة العربية، فإذا كان الخطاب يحمل الخصائص التّمييزية للمتكلم، من أسلوب بنائي ولغوي، فإنّه أيضاً لا يمكن أن يحقق فاعليته ما لم يراع فيه منشئه ظروف المستمع وأحواله، وقدراته المعرفية والعقلية ومكانته الاجتماعية، فالخطاب بوصفه بنية تفاعلية يقوم على مدى احترام المتكلم لحدود العلاقة بينه وبين المستمع، على المستوى العقلي، والاجتماعي، والإيديولوجي.

(3) السكاكي، أبو يعقوب، مفتاح العلوم، تح: نعيم زرزور، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ-

1983م/ط2، 1407هـ-1987م، ص415.

(1) ناعم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التلقّي، دار الشروق، عمان، الأردن، ط1، 1997م، ص65.

واهتمام البلاغة العربية بالمستمع باعتباره عنصراً فاعلاً في العملية الإبلابية أو التواصلية، يجعلها تتقاطع مع اللسانيات التداولية الحديثة، التي جاءت بدورها لتفسير وبحث تلك العلاقات المعقدة بين أقطاب العملية التواصلية، علاقة المخاطب بالمخاطب، وعلاقة الأول بالخطاب، ثم علاقة الخطاب بالثاني أي بمتلقيه، >وتلك هي سمة اللسانيات التداولية الحديثة التي تتقاطع فيها مع البلاغة العربية، حيث إن من أهم مجالاتها الاهتمام بالسامع واعتبار المخاطب، والاعتداد بكل العناصر الفاعلة في الإبلاب><(1).

من أهم مظاهر العناية بالسامع في البلاغة العربية أيضاً ما نجده في كتاب "البيان والتبيين"؛ فمن أجل أن يتحقق البيان "الفهم" الذي يؤتي إلى الإفهام، ينيط الجاحظ بالسامع وظيفة التبيين التي تقتضيه التأمل في المعنى من أجل تفهّمه.

وتعدّ ضرب الخبر شكلاً آخر من أشكال الاهتمام بالمستمع والذي يظهر في حديث المبرد إلى المتفلسف الكندي، الذي رأى أن في كلام العرب حشواً، ذلك لأنهم يقولون "عبد الله قائم"، و"إن عبد الله قائم"، و"إن عبد الله لقائم". وقد بين له المبرد أن ذلك لا يعدّ حشواً، وإنما لكل تركيب دلالة خاصة به تختلف بحسب اختلاف الألفظ، وبحسب نوع المستمع أو حالته الشعورية. ولذلك أجابه قائلاً: >بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ؛ فقولهم عبد الله قائم إخبار عن قيامه، وقولهم إن عبد الله لقائم جواب عند سؤال سائل، وقولهم إن عبد الله لقائم جواب عند إنكار منكر لقيامه<<(2). وهذا القول يوضح أن البلاغين العرب كانوا على وعيٍ بكل ما يحدث داخل العملية التواصلية وبأقطابها، ومن

(1) خليفة أبو جادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية (مشروع لربط البلاغة بالاتصال)، ص 726.

(2) المرجع نفسه، ص 727، نقلاً عن: الرازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تع: نصر الله حاجي، دار

صادر، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص 222.

ذلك المستمع، فقد مَّزوا بين ثلاثة أنواع من المخاطبين؛ المخاطب خالي الذهن، وهو نوع يتطلب أن يصاغ الخطاب الموجه له بصيغة الإفادة أي إفادة المستمع بمعرفة معينة.

ومخاطب شاك متردد في قبول الخبر يتطلب تركيباً تأكيدياً لتقبل ما يلقي إليه من خبر أو معرفة. وأخيراً مَّزوا المخاطب المنكر الجاحد، وفي هذه الحالة يلجأ المتكلم إلى رفع الطاقة الحجاجية لكلامه بتزويده بالمزيد من الوسائل التأكيدية، لإجبار المستمع على الرضوخ والاقتراع بما يبلاغه له.

ومن مظاهر الاهتمام بالسامع أيضاً "التأب في الكلام واعتبار السامع"، وهو مبدأ يقابل المبادئ التخاطبية في اللسانيات الحديثة، مبدأ التأب الأقصى ومبدأ التأب واجه*؛ فأحياناً يلجأ المتكلم إلى العدول عن دلالة إلى دلالة أخرى تأبياً مع

* مبدأ التأب الأقصى: وهو المبدأ الذي عدّه جورج ليتش G.leech في كتابه "مبادئ التداوليات" مكملًا ومتمماً لمبدأ التعاون، و يورده في صورتين إحداهما سلبية و الأخرى إيجابية: .قلّ من الكلام غير المهذب . أكثر من الكلام المهذب . ينظر: العياشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، منشورات الاختلاف، دار آمان، الرباط، المغرب، ط1، 1432هـ/2011م، ص121.

* مبدأ التواجه: المبدأ الثالث الذي ينضبط به الحوار، وهو مبدأ تداولي ورد عند كل من براون P.brown و ليفنسن S.levenson، في عملهما المشترك "الكليات في الاستدلال اللغوي: ظاهرة التأب"، ويصاغ على النحو الآتي: "لتصن وجه غيرك"، ويقوم على مفهومين: مفهوم الوجه الذي هو ذات الشخص التي تتحدّ بها قيمته الاجتماعية، والثاني يتمثّل في جلب اعتراف الغير. ينظر المرجع نفسه، ص120. ويراجع: طه عبد الرحمن،

المخاطب و احتراماً لذاته، وذلك لتحقيق مبدأ الانسجام بين ذاته ذات متلقيه، وهذا الأسلوب التهديبي في الكلام يستدرج المستمع و يجلب انتباهه و يؤثر فيه، فهو أسلوب ترغيبي. وهذا الاهتمام يمكن أن نلحظه عند كل من الجاحظ وأبي هلال العسكري، حيث يدعو كل منهما إلى ضرورة اتباع المتكلم لقانون التأب مع المستمع، وأن يراعي أنواع المستمعين وحالاتهم الاجتماعية، والشعورية، فلكل نوع خطاب يناسبه، وأسلوب يفهم به، >> فلا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة، ولا الملوك بكلام السوقة، لأن ذلك جهل بالمقامات وما يصلح في كل واحد منها من الكلام<<(1). فلكل طبقة من الناس طبقة من الكلام تناسبها، والخطب بين الطبقات وعدم احترام فواصلها يؤدي إلى تعطيل فائدة الكلام وانعدام منفعة الخطاب، ف >>إذا كان موضوع الكلام على الإفهام، فالواجب أن تقسم طبقات الكلام على طبقات الناس، فيخاطب السوقي بكلام السوقة، والبدوي بكلام البدو، ولا يتجاوز به عما يعرفه إلى ما لا يعرفه، فتذهب فائدة الكلام وتعدم منفعة الخطاب<<(1).

4/ المقام و مطابقة الكلام لمقتضى الحال:

إلى جانب المتكلم و المستمع يشغل المقام حيزاً مهماً في الدائرة البلاغية العربية، باعتباره أحد المحددات الرئيسة للدلالة التخاطبية، وهذا ما يجعله يشكل شرطاً أساسياً لنجاعة الخطاب؛ ذلك أن بلاغة الكلام ترتكز في جانب من جوانبها على مدى مطابقة الكلام

> مفهوم التخاطب بين مقتضى التبليغ و مقتضى التهذيب<< مجلة كلية الآداب، بني ملال، ع1، 1994م، ص49.

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان و التبيين، ص135.

(1) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الصناعتين، ص39.

لمقتضى الحال، >> وأما بلاغة الكلام فهي مطابقتها لمقتضى الحال مع فصاحته <<(2) أي لجميع ما يقتضيه الحال على قدر الطاقة.

والحال هو الداعي للمتكلم إلى إيراد الكلام على وجه مخصوص، فمثلاً إنكار المخاطب للحكم حال يقتضي تأكيده، والتأكيد مقتضى الحال، ومعنى مطابقتها له أن الحال إن اقتضى التأكيد كان الكلام مؤكداً، وإن اقتضى الإطلاق كان الكلام خالياً من التأكيد <<(3).

ومقتضى الحال أو المقام هو ما يسميه المحدثون بـ"سياق الحال" أو "سياق المقام" ومن أوضح تعريفاته أنه >> كل ما يحيط باللفظ من ظروف تتصل بالمكان أو المخاطب في أثناء النطق، فتعطي اللفظ دلالاته وتوجهه باتجاه معين؛ فهو إذن مجموعة العوامل والعناصر المحيطة بالنص من خارجه التي تعين على فهمه وتفسيره <<(4).

وانطلاقاً من القول السابق، نجد أن المقام يشمل الظروف الزمانية والمكانية والعوامل والعناصر غير النصية المحيطة بالنص، والتي تؤدي دوراً مهماً في تفسيره وفهمه، وهذا ما يجعلها تشكل جزءاً مهماً من الدلالة الكلية أو المقصود العام للنص.

وقد حدد السكاكي المقامات بقوله: >> لا يخفى عليك أن المقامات متفاوتة، فمقام الشكر يباين مقام الشكاية، ومقام التهنئة يباين مقام التعزية، ومقام المدح يباين

(2) القزويني، جلال الدين، الإيضاح في علوم البلاغة، ص41.

(3) المصدر نفسه، ص42.

(4) حسن حامد صالح، التأويل اللغوي في القرآن الكريم، دار ابن حزم، لبنان، ط1، 2005م، ص128.

مقام النّم، ومقام التّرعيب يباين مقام التّرهيب، ومقام الجدّ في جميع ذلك يباين مقام الهزل»⁽¹⁾.

وإذا كانت الغاية من كلّ خطاب هي تحقيق الفهم و الإفهام ومن ثمّ الإقناع، فإنّ نعدامها ينتج عنه انعدام التّواصل، لذا يتعنى على المتكلّم أن يحاول التّقرّب من أحوال مخاطبيه ومخاطبتهم على قدر مقاماتهم من أجل تحقيق غاياته الإبلاغيّة، وهو ما يدعو إليه ابن وهب قائلاً: >> «أما مجالس السّوقة فليس يخلو من عاش بينهم من حضورها، ولا بدّ للإنسان من ملابستهم فيها، فحقّ العاقل ألاّ يلقاهم بكلّ رأيه وبجميع عقله فيها، وأنّ يستعمل في مخاطبتهم و معاملتهم بعض المقاربة لأحوالهم، فإنّ ذلك أولى بسياستهم»⁽²⁾ فالمتحدّث الجيّد هو من يعايش ظروف مخاطبيه، فيتواضع لتواضع شؤونهم، ويعلوّ بإرساله لعلوّ مقاماتهم.

ومفهوم البلاغيين للمقام يتوافق مع ما ذهب إليه المحدثون في تعريفهم له، إذ يقول ديكرود >> «إتّا نسمي مقام الخطاب مجموع الظّروف الّتي نشأ الخطاب في وسطها (...)، ويجب أن نفهم من هذا المحيط المائيّ والاجتماعي الّذي يأخذ الظّرف في مكانه، والصّورة الّتي تكون للمتخاطبين عنه، وهويّة هؤلاء (...)،

وانّنا لنعرّف التّداولية . غالباً . بوصفها دراسة لهيمنة المقام على معنى العبارة»⁽¹⁾. فديكرود هذا المفهوم يجعل مدار التّداولية يقوم على مراعاة المخاطب للمقام الّذي قيلت فيه العبارة، لأنّ هذا الأخير يفرض سلطته على معناها، كما أنّه يؤدّي دوراً رئيساً

(1) السّكاكي، أبو يعقوب، مفتاح العلوم، ص 168.

(2) الكاتب، ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح: محمّد شرف، مطبعة الرّسالة، ط 1، ص 215.

(1) أوزوالد ديكرود، <<مقام الخطاب>> (مقال ضمن القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللّسان)، تر: منذر عياشي، المركز الثّقافي العربي، المغرب، ط 2، 2007م، ص 677.

في تحديد الغرض المقصود من الخطاب، ذلك أن الأغراض والمقاصد تتباين وفقا لمحدثين؛ يتمثل الأول في الحالة المزاجية للمتكلم، ويكون الثاني تبعاً لموقف المقال بما يشمله من ظروف المخاطب وطبقته والمكان والزمان. ومن المؤكد أن تركيب الكلام وهيئته يختلفان ويتنوعان بتنوع المقامات التي يلقي فيها الكلام، والأغراض والمقاصد التي يؤسس عليها والغايات التي يصنع لأجلها.

الفصل الأول

علاقات التفاعل بين البلاغة العربية والتداولية

تمهيد:

لقد نشأت البلاغة العربية ووجدت بوجود لذهن العربي، إذ إنها تجذرت وتأسلت في الفكر العربي فارتقت إلى مراتب البحث الأكاديمي، ومما لا شك فيه أن وصول البلاغة العربية إلى المراتب العليا من الخطابات لم يكن عبثاً أو نتيجة لأهواء وآراء عفوية وعابرة، بل إن ذلك الضجج المعرفي وذلك العمق والشمول كانا نتاجاً لجهود لا يستهان بها في المجال المعرفي عامة و العلمي خاصة، كما أن استواء البلاغة العربية على مظهر ذي قيمة وشكل منهجي لم يكن مجرد نقل أو تأثر بحت بالمعارف المترجمة كما يظن العديد من الدارسين، بل إن هذا الزاد المعرفي البلاغي والقدي هو خلاصة لجهود فكرية عربية خالصة - نستنتج من ذلك بعض المؤثرات للفلسفات والعلوم الغربية- عرفت تطوراً على مستوى المنهج والوسيلة فكانت تلك الرؤى أرضية صلبة قامت عليها الحركات العلمية الحديثة الممتدة من عصر النهضة إلى يومنا هذا.

ومما لا شك فيه أيضاً أن كل موروث إنساني بكل ما يشمله من مفاهيم ومقومات لا بد له أن يكون حاملاً لسيمات ومظاهر المكان والزمان اللذين عايشهما، بكل ما تشمله تلك البيئة أو الحقة من مؤثرات سياسية وعقائدية وثقافية وعلمية.

وعلى هذا النحو بُنيت البلاغة العربية ونضجت واكتملت، ف المتأمل لهذه البلاغة يجد أن كل جزء فيها حامل للخصوصية العربية ولاسيما الخصوصية الدينية مما يجعلها أكثر ارتباطاً بالهوية العرقية والدينية العربية.

كما أن ارتباط البلاغة العربية بالذات الإنسانية يمنحها أفضلية التطور والتنوع المفاهيمي، فقد نشأت بنشوء الإنسان العربي وتطورت بتطور وتقدم ممارساته اللغوية، فارتقت من كونها مجرد ملاحظات نوقية إلى نمط جديد تمثله حركة علمية مؤسّسة على قواعد ومقومات منهجية وعلمية؛ إذ كانت في سيرورتها التقييمية تلك تكتسب من كل حقة مفاهيم

جديدة بما تضيفه عليها من مؤثرات داخلية وخارجية - تمثلت في الانفتاح العربي على غيره من الثقافات - تجدد بها معارفها وتكون بها قواعدا لتكون أكثر مسايرة للفكر الإنساني، ولتكمل عناصر نموها وتقدمها.

وباتساع الفكر العربي وانفتحه اتسعت مساحة العقل البلاغي والقدي، ولقد كان ذلك مع بداية المؤثرات اليونانية والأرسطية خاصة، إذ صارت الفلسفة مكوناً آخر من المكونات القدية والبلاغية تؤدي دوراً محورياً في صياغة المقاييس القدية، وفي تحديد المصطلحات والنماذج، حيث أثمرت في هذه البيئة الفلسفية مؤلفات كثيرة منها: كتاب العمدة في محاسن الشعر ونقده لابن رشيق، وكتاب سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي، وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجاني، والمثل السائر لابن الأثير، والمنزع البديع في تجنيس أساليب البديع للسجلماسي، والروض المريع في صناعة البديع لابن البناء المراكشي⁽¹⁾. وبذلك انفتح مفهوم النقد والبلاغة على الاحتمالات الموزعة في مساحات بين الأدب والفلسفة والفن ولاسيما في المغرب العربي.

لقد أفضت سيرورة الثقافة العربية الإسلامية في القرنين السابع والثامن الهجريين - نتيجة لما شهده المغرب العربي في الفترة الممتدة بين القرنين السادس والتاسع الهجريين من نبوغ معرفي ونقدي تمز بطابع تنظيري قائم على التّنظيرات البلاغية والفلسفية - إلى اكتمال تكوين اتجاه فلسفي بلاغي في بلاد المغرب، اتّجاه تجمعه الخلفية الفلسفية المنطقية، وتميّزه القدرة على التّوظيف الخصب للنظريات الأرسطية في رحاب التّرس القدي والبلاغي،⁽²⁾ فكان لهذه المدرسة الفلسفية البلاغية تأثيراً كبيراً على البلاغة العربية، وذلك بإثرائها بمفاهيم ومصطلحات جديدة إلى الحدّ الذي دفع بأمجد الطرابلسي للإقرار >> بوجود مدرسة بلاغية عربية في المغرب العربي كان أصحابها أعمق فهما لمضمون كتابي أرسطو

(1) جميل حمداوي، >>المدرسة المغربية في النقد العربي القديم<<، مجلة حوليات التراث، جامعة مستغانم، الجزائر، ع12،

2012م، ص97.

(2) المرجع نفسه، ص97.

الشعر والخطابة»⁽¹⁾، وقد مثل هذه المدرسة مجموعة من البلاغيين الذين تمزوا بعمق الثقافة العربية والانفتاح على الثقافات والآراء الغربية، حيث >استطاعوا بفضل ثقافتهم العربية وللمتفتحة على التفكير الأرسطي أن يفيدوا درس البلاغي العربي بتلقيحه ببعض الأفكار الهيلينية تلقيحاً يُم في الغالب عن فهم وعي جديرين بالتقدير.<⁽²⁾

فضلا عن التنوع الثقافي والفكري الذي اشتهر به رواد هذه المدرسة، فقد تمزت أيضا بحسن المزج بين النقد والبلاغة بطريقة ذكية وفنية، طريقة سادها عمق الرؤية وشمولية المنهج، وقد تأتت ذلك من تود علمائها بالمنهج التحليلي والمقدرة على التعامل مع مكتسبات المنطق والتراث الفلسفي اليوناني، حيث جمعوا بين المآثر البلاغي العربي والتراث اليوناني الأرسطي.

فكان لأعلام هذه المدرسة طابعهم الخصوصي في تناول البلاغة العربية نظريا وتطبيقيا وتبويبا، وهو طابع تفرّدوا به عن اللقاد المشاركة - على الرغم من أخذهم للعديد من الأسس عنهم - إذ >أتجه مذهب أهل المغرب في أكثر أمرهم مذهب المشاركة... ولكن علماء مع ذلك لم يأخذوا بأراء المشاركة... فحسب دون مناقشة أو تعديل، بل أخذوها وعالجوها، فظهرت فيها شخصيتهم وطابعهم الخاص الذي اتسم به تفكيرهم وأدبهم عامة فكان لهم كونهم في الفلسفة والفقه واللغة والأدب شعره ونظمه والنقد.<⁽³⁾

ومن أعلام هذه المدرسة البلاغية النقدية الفلسفية نذكر: ابن البناء المراكشي في كتابه الروض المريع، وابن خلدون في مقمته لكتاب العبر، و أبو محمد القاسم السجلماسي في مؤلفه المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، وابن عصفور الاشبيلي صاحب كتاب ضرائر الشعر⁽⁴⁾. وفي تنويه بتميز هذه المدرسة وأصحابها، وفضلهم على البلاغة العربية يقول:

(1) حسين أحمد حسين، >التراث النقدي والبلاغي في ضوء مناهج التحليل<<، مجلة جامعة، خيضر، بسكرة، جوان 2011م، ص 117.

(2) المرجع نفسه، ص 117.

(3) سلامة جمعة العجالين، (اتجاهات البلاغة في القرنين السّلدس والسّلبع الهجريين)، رسالة دوكتوراه، جامعة مؤتة، الأردن، 2008م، ص 102.

(4) جميل حمداوي، >المدرسة المغربية في النقد العربي القديم<<، ص 97.

محمد بن شريفة: >> فابن عميرة والقرطاجني والسجلماسي وابن البناء يمثلون اتجاهًا جديدًا في التأليف البلاغي، ويقدمون اجتهادًا خاصًا في التناول، وهم يجمعون بين المأثور البلاغي العربي والتراث اليوناني الأرسطي، وذلك بواسطة الفارابي وابن سينا وابن رشد على وجه الخصوص.<<(1)

وإذا كان العديد من النقاد والدارسين يرون أن المدرسة المغربية >> هي مدرسة متميزة بطابعها النظيري والتأسيسي لشعرية نقدية وبلاغية ذات طابع كوني <<(2) فإن هناك من يذهب مذهبًا مخالفًا في ذلك، حيث يرى ابن خلدون مثلًا أن هذه المدرسة هي مدرسة بديعية لا تهتم سوى بأدوات فن البديع تفرعًا وتقسيمًا ولحصاءً وتبويبًا، في حين يرجع صفة البيان إلى المشاركة الذين هم بحسب رأيه أكثر اقتدارًا عليه من المغاربة، وهذا الرأي يمكن أن نتبينه من خلال قوله: >> وبالجملة فالمشاركة على هذا الفن أقوم من المغاربة، وسببه والله أعلم أنه كمالي في العلوم اللسانية والصنائع الكمالية توجد في العمران والمشرق أوفر عمرانًا من المغرب... وإنما اختص بأهل المغرب من أصنافه علم البديع خاصة وجعلوه من جملة علوم الأدب الشعرية وفرعوا له ألقابًا وعددوا أبوابًا ونوعوا أنواعًا... وإنما حملهم على ذلك الولوع بتزيين الألفاظ، وأن البديع سهل المأخذ وصعبت عليهم مأخذ البلاغة والبيان لدقة أنظارتها وغموض معانيها فتجافوا عنها.<<(3)

فابن خلدون من خلال قوله هذا يرجع اختصاص أهل المغرب بالبديع والمشاركة بالبيان إلى تأثير الطابع العمراني في المجال الفكري، ويرى أن علم البيان هو علم صعب المأخذ والمدرسة على خلاف البديع، لذلك لجأ المغاربة إلى البديع لسهولة وسهولته ولولعهم بالزخرف اللفظي، فاخذوا به ولم ينعوا بالبيان لصعوبته ولعمق مباحثه بوعده معانيه وغموضها.

(1) سعاد فريح صالح الثقفي، (المصطلح النقدي و البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1423هـ، ص20.

(2) جميل حمداوي، >>المدرسة المغربية في النقد العربي القديم<<، ص97.

(3) محمد مفتاح التلقني و التاويل (مقاربة نسقية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994م، ص98.

وقد يكون رأي ابن خلدون هذا صحيحاً في بعض جوانبه، لأنّ هناك من المغاربة من اعتنى بالبديع وتوغّل فيه، إلا أنّ المطلّع بدقّة على المؤلّفات المغربية في المجال النّقدي والبلاغي يفاجأ ببعد نظر وذكاء بلاغيّ ونقديّ فاق في أحيان كثيرة مقدرة المشاركة، وربما قد يكون ابن خلدون قد نظر إلى الموضوع من خارجه وأخذ عليهم تسمياتهم لمؤلّفاتهم " الرّوض المريع"، " المنزح البديع" التي اتّسمت بالزّخرف اللّفظي، لكنّ المحتوى يمتاز بدقّة المصطلح النّقدي والإيجاز اللّفظي والعمق الدّلالي، بل إنّ لهؤلاء الأعلام الفضل في إخراج البلاغة العربية من نمطيّتها وتفرّعاتها المتعبة للقارئ، وذلك بإجمال أقسام البلاغة ووضع كليات تساعد القارئ على تتبّع كلّ ما تناولته البلاغة بالسّير على قواعد محدّدة، وليس بتتبع تفرّعات مضلّلة على نحو ما نجده في العديد من المؤلّفات المشرقيّة.

ونشير هنا أنّنا لسنا بصدد إظهار الفروقات بين المشاركة والمغاربة على نحو سلبيّ، ولكن منطلقنا علميّ بحث يسعى إلى إنصاف النّقاد و البلاغيين المغاربة، لأنّهم قدّموا كما معرفياً بلاغيّاً، ونقدياً وفلسفياً رياضياً تجاوز الأقطار العربيّة إلى الأقطار الغربيّة، ومن ذلك المفاهيم التي قدّمها في مجال الفلسفة، وما قدّمه من آراء وتحليلات دقيقة فاقت التحليل الفلسفي الغربيّ، ولعلّ من أهمّها نظريّته عن وظيفة العقل ووظيفة النّفس فقد >>مهّد ابن البناء المراكشي ... السّبيل بنظريّاته هذه في المنهج وتطبيقاته العمليّة في مجال المعرفة لما بسطه فيما بعد الفيلسوف الفرنسي رونييه Rene descartes، وهو من أهل القرن الحادي عشر الهجري (17م)، ثمّ لما تبناه بعد ذلك في القرن الثّامن عشر إيمانويل كانط Emmanuel Kant، "التأمّلات Les mediations، ونقد العقل المحض Critique de la raison" <<(1)

(1) رضوان بنشقرون، >> البحث المصطلحي عند ابن البناء المراكشي << مجلة دعوة الحق، ع342، أبريل 1999م، ص03.

ومما يؤكد أيضا تضلّع المغاربة في المجال النقدي والبلاغي هو ما انتهى إليه الباحثون الذين بحثوا في المناهج النقدية والبلاغية المغربية، حيث أقرّوا بوجود >>شرح بعض القصائد الذائعة الصيت ... كشروح القصائد الطوال التي شاعت مثل لامية العرب، ولامية العجم، وشرح ديوان المتنبي. وإلى جانب الشروح الأدبية التي تناولت الشعر، هناك شروح بعض الأحاديث النبوية وكتب التفسير... ذلك أن الحديث عن إعجاز القرآن الكريم أو عن البلاغة النبوية كثيرا ما كان مدعاة إلى التطرق إلى القضايا البلاغية والنقدية.<<(1)

وكلّ ما قّم من معارف نقدية وفلسفية وبلاغية ساهم في تشكيل نمط بلاغي جديد نيت فيه البلاغة على فكر رياضي وفلسفي أدبي، وهذا التنوع الفكري يثني عن عمق فهم ودُعد نظرٍ وحنكة نقدية بلاغية، وثراء ثقافي لا يمتاز به إلا القلة من العلماء. ثم إن كيفية توظيف تلك المفاهيم العلمية البحتة وخاصة علم الرياضيات في تحليل المفاهيم البلاغية هو عمل شاق أيضا لم نلحظه عند المشاركة، ولعلّ ما يبرر لنا هذا التوجّه هو ما أورده **محمد مفتاح** في كتابه **التلقي والتأويل** في تعليقه على كلام **ابن خلدون**، إذ يرى >> أن قول ابن خلدون صحيح في مجمله لا في تفاصيله، فمن حيث الإجمال إن الكتب المؤلفة في فنّ البيان قبل ابن خلدون وأثناء حياته يحتلّ فيها اسم البديع وألقابه وأبوابه وأنواعه مكانة مرموقة؛ أما من حيث التفصيل فإنّ النماذج التي سنحلّلها تثبت أن البيانين المغاربة لهم باع طويل في فنّ البيان وقوامة عليه.<<(2)

ونشير إلى أن الحديث عن الخصوصية المغربية لا يعني بأيّ وجه من الوجوه المحاولة لقطع الصلة بين المغرب والمشرق، لأنّ هناك حاجزا منيعا يقف دوما في وجه من يسعى إلى ذلك الانفصال، ونقصد بذلك الانتماء القومي العربي، ذلك أن كلا القطبين ينصهران

(1) عبد السلام شقور، >>أوليات النقد المغربي<< ندوة حول جوانب من الأدب في المغرب الأقصى، جامعة مهد

الأول، وجدة، أيّام 11-12-13 - أبريل 1984م، ص26.

(2) محمد مفتاح التلقي والتأويل، ص16.

في هويّة واحدة هي الهوية العربيّة، بكلّ ما تتضمّنه من طبائع بيئية وعقلية وحضارية وعلمية.

وإذا كانت البلاغة العربية قد عانت كثيرا وفي فترات محدّدة من الجمود والّمْطية اللّان وقعت فيهما بسبب التّفريعات والتّقسيمات ولتّ لخيصات، فإنّه ومع مجيء ذلّة من القاد والبلاغيين سجّلت البلاغة العربيّة تغوّ ملحوظا خاصّة على مستوى المنهج، وذلك بالخروج عن >> التّصوّر الذي سنّه السّكاكي والكتب التي توالّت بعده، والتي كانت تقسم البلاغة إلى علوم ثلاث وهي: البيان والمعاني والبديع.<<⁽¹⁾ حيث رأى بعض علماء البلاغة >> أن يعودوا إلى التّعبير بكلمة البديع عن كلّ هذه العلوم، على نحو ما يلاحظ عند ابن أبي الاصبع المصري (ت645هـ/1257م) في كتابه بديع القرآن، فكلمة البديع عنده - كما عند ابن البناء والسّجلماسي - تعني علوم البلاغة من بيان ومعاني وبيديع.<<⁽²⁾

وعليه فالبلّاغيون أمثال ابن أبي الأصبع وابن البنّاء والسّجلماسي، حاولوا الرّجوع بالبديع إلى دلّالته الأولى عند العرب، حيث البديع هو البلاغة عموما، والتّالي فالبديع مثله مثل البلاغة >> صناعة ترجع إلى صناعة القول ودلّالته على المعنى المقصود، ولذا ارتبطت بالمقاصد وأساليب الخطاب، واهتفت بإعطاء القوانين الكلّية التي تتضبط بها الجزئيات المندرجة تحتها<<⁽³⁾

ومن ثمّ فإنّ الفضل الأكبر يعود للبلّاغيين والقاد المغاربة في الخروج بالبلاغة العربية من شرك الاختصارات والشّروحات التي سنّها القزويني وأرسى دعائمها، والتّقسيمات التي وضعها السّكاكي وتبعه في ذلك المتأخّرون بعده. فقد ظلّ المغاربة في بداية تكوينهم القدي يتدارسون ما أنتجه المشاركة من علوم بلاغية ونقدية عند أمثال ابن المعتزّ وقدامة، وابن

(1) شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي ج2، عصر النّول والإمارات(الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السّودان)، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1119م، ص350.

(2) المرجع نفسه، ص350.

(3) عمر أوكان، مقمّة في البلاغة العربية، <http://www.ta5atub.com>

وهب، وابن سنان الخفاجي، وعبد القاهر الجرجاني،...مضيفين إلى ذلك مدارس بعض أعمال المغاربة وخاصة كتاب العمدة لابن رشيق، وقد يتناولون أعمالاً سابقة بالشرح على نحو ما صنع ابن رشد بشرحه لكتاب في التّجنيس أو الجناس،⁽¹⁾ غير أنّ هذا الأمر لم يدم طويلاً فالمغاربة ومع بزوغ فجر القرن السّابع للهجرة شهدوا نهضة فكرية في مختلف المجالات - ولاسيما في العصر المريني* - استطاعوا من خلالها أن يؤسسوا لأنفسهم قاعدة تنموية معرفية نافست أعمال المشاركة، إذ لم يلبث المغرب الأقصى >> أن أهدى إلى علوم البلاغة والبديع عالمين فذّين هما: ابن البناء أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي المراكشي الذي عاش في العصر المريني، وأبو محمد القاسم بن محمد الأنصاري السّجلماسي <<⁽²⁾، وقد بلغ >> ابن البناء الغاية في مختلف العلوم الدّينية واللّغوية والبلاغية، وفي العلوم الفلسفية ولاسيما في الرياضيات والفلك <<⁽³⁾.

ومثلما ضبط ابن البناء القوانين الرياضية ضبط أيضاً قواعد البلاغة في مؤلّفه الرّوض المريع في صناعة البديع في شكل كليات تتدرج تحتها جزئيات تنضبط بها.

(1) شوقي ضيف، عصر النّول والإمارات، ص350.

* المرينيون، بنو مرين أو بنو عبد الحق وهي سلالة حكمت بلاد المغرب الأقصى، وتوسّعت حدود دولتهم خارج نطاق المغرب في عهد السلطان أبي سعيد الأوّل. تموّت دولة المرينيين عن بقية النّول الّتي سبقتها في حكم المغرب كونها لم تصل إلى الحكم تحت شعار فكرة دينية كما فعل المرابطون و الموحدون، بل اعتمدوا على قوتهم العددية وتنظيماتهم القبليّة المكوّنة من قبائل زناتة الّذين شكّلوا جهاز مخزنها لاحقاً مع قبائل الخط. وقد أطلق بنو مرين للنّس حريّة الاعتقاد و التّمدّ، وقد أعطت تلك الحريّة هامشاً كبيراً للإبداع، والتّطوّر الفكري العربي و الدّ ضاري، حيث عرفت دولة بنو مرين تطوّراً عمرانياً و ثقافياً، فقد بنوا مدناً جديدة كفاس الجديدة، كما اهتموا ببناء المدارس و المارستانات و المساجد و الأربطة، وبرز في عصرهم كبار الرّحالة امثال ابن بطّوطة، وابن رشد السّبتي، واحتضنت مدينتهم كبار المؤرّخين و العلماء و الأدباء أمثال: لسان اللّين الخطيب، ابن خلدون، وابن البزّاء المراكشي. ينظر: موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

(2) شوقي ضيف، عصر النّول و الإمارات، ص349.

(3) المرجع نفسه، ص350.

ويمثّل ابن البناء إلى جانب عددٍ من العلماء أمثال ابن عميرة، والقرطاجني، والسجلماستيّ جاهاً جديداً في التّأليف البلاغي، حيث اتّسمت >مؤلّفاتهم بتداخل عدّة أنساق

معرفية أساسية في موضوع كتبهم البلاغية أو في آرائهم، فهناك المنطق الصّوري، وهناك الأصول، وهناك النّحو، وهناك القّد الشعري. <<(1)

ومن بين أولئك العلماء برز الاتّجاه القدي والبلاغيّ عند ابن البناء كعلامة فارقة لدى النّاقذ ذاته ولدى الاتّجاه البلاغيّ عموماً، بتوظيفه الآليات المنطقية والمبادئ الرياضية في تحليلاته، وفي تقريب أصول الصّناعة البديعية. ولقد أتى مؤلّفه الرّوض المريع >وظيفة إيديولوجية في السّياق التّاريخي تمثّلت في صياغة قوانين تأويلية تعصم من الخطأ في كتاب الله وسننّسوله - صلى الله عليه وسلّم - بغير علمٍ وتجنّب الأمة معرّة الفرقة والتّشردم... <<(2). وما ساعد ابن البناء على ذلك انتحاه لمسلك خاصّ في التّأليف يرجع إلى طبيعة تكوينه الرّياضي والمنطقي وإلى سعته المعرفية، حاول من خلاله مقارنة البلاغة العربية من وجهة فلسفية قائمة على السّبر والتّقسيم والتّجريد والتّقعيد، وكانت غايته من كلّ ذلك وضع مؤلّف شامل لقواعد أو لمجموعة كليات بلاغية قصد التّيسير على القارئ وتجنّيبه الالتباس والملل وذلك بتوحيد الثلاثية البلاغية البيان والمعاني والبديع وإدراجها تحت مفهوم كليّ هو صناعة البديع التي تأخذ عنده البعد الوظيفي الخاصّ بأساليب إنتاج القول، وفهم كتاب الله وسنّة نبيه والمخاطبات بجميع أنواعها.

ومن هنا نجد أنّ ابن البناء قصد في تأليفه اليُسْر والبساطة غير المبتذلة، والدقّة والإيجاز في التّعبير والتحليل فقد >> اختصّ ابن البناء لمؤلّقاته طابعاً خاصاً وأسلوباً متقدّراً، فهو يكتب بأسلوب يجمع بين سهولة اللفظ وقوّة التّركيب ورونق التّعبير، والتّركيز على المعنى الذي يهدف إلى تبليغه حتّى تبرز الفكرة واضحة جليّة من غير اضطراب أو حشو أو تكرار أو تكلف <<(3).

(1) سعاد فريح صالح الثّقفي، (المصطلح القدي و البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص 20.

(2) محمّد مفتاح التّلقّي و التّأويل، ص 43.

(3) سعاد فريح صالح الثّقفي، (المصطلح القدي و البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص 15.

وربما يرجع إيجازه ودقته إلى ذهنيته العلمية التي تقصد دوماً التّحديد والدّقة والإيجاز في طرح الموضوعات، ثمّ إنّ ابن البناء كان يفترض أنّ كلامه موجه إلى طبقة تشاركه الخلفية المعرفية الخاصّة بالموضوع المطروح⁽¹⁾ - نقداً وبلاغة - وقد أبان عن منهجه في مؤلّفاته قائلاً:

قَصْتُ إِلَى الْوَجَاةِ فِي كَلَامِي لِعِلْمِي بِالصَّوَابِ فِي الْأَخْتِصَارِ
وَلَمْ أَحْقِرْ فِيهِ وَمَا نُونُ فِيهِ مِي وَلَا كَفِّقْتُ إِزْرَاءَ الْكِبَارِ
فَشَأْنُ فُؤُولَةِ الْعُمَاءِ شَأْنِي وَشَأْنُ الْبَطِّ تَعْلِيمِ الصِّغَارِ⁽²⁾

إضافة إلى الدّقة والإيجاز اتّسم منهجه أيضاً ببروز التّوعية الدّينية فيه؛ إذ كان هدفه - وهو هدف يتشارك فيه مع بقية علماء البلاغة - هو تبيان الطّريقة المثلى لفهم الكلام الإلهي، إذ يقول: >> فلا بدّ من معرفة اللّسان العربي في فهم القرآن العربي؛ فيعرف الطّالب الكلمة، وشرح لغتها وإعرابها ثمّ ينتقل إلى معرفة المعاني ظاهراً وباطناً، فيوفّي لكلّ منها حقه ولا يخلّ بشيء من ذلك وإلاّ كان مخطئاً أو مقصّواً.<<⁽³⁾

ويمكن القول بأنّ كتاب **الروض المريع** هو صياغة نظرية منطقية لأصول الصّناعة البلاغية، مؤسس لأهداف دينية علمية فنية، إذ يظهر مؤلّفه هذا ملماً بأصول البديع ولبناته الأولى⁽⁴⁾، إضافة إلى ذلك يعدّ مؤلّفه دليلاً واضحاً >> على نضج ابن البناء العلمي في المجال القدي البلاغي، إذ لم يكن أول مؤلّف نقدي وبلاغي له بل سبقته تجارب عدّة،<<⁽⁵⁾ ونستدلّ على ذلك من خلال قوله: >> وقد وضعنا قبل هذا مقالة في الكشف عن حقيقة التّظم والتّشر،

(1) المرجع السابق، ص 15.

(2) المرجع نفسه، ص 15.

(3) محمّد عز الدين المعيار الإدريسي، >نظرات في تفسير ابن البناء المراكشي للقرآن وتعليل رسم المصحف<<، مجلة دعوة الحق، ع 338، أكتوبر، 1998م، ص 1.

(4) سعاد فريخ صالح لدّققي، (المصطلح القدي للبلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص 15.

(5) رضوان بن شقرون، البحث المصطلحي عند ابن البناء، ص 03.

والتّمييز بين الحكمة والشّعْر وبيان ما يتعلّق بهما.⁽¹⁾ ويؤكّد رضوان بنشقرون اصطلاح ابن البناء وتبحّره في الجانب البلاغيّ والقديّ قائلاً: >> إن أثره في البلاغة والبيان والبديع، وكذا آراءه القدية المتضمّنة في رسائله البلاغية كلّ ذلك يشهد بعمله المتمكّن بها، ومعرفته بدقائقها، ويتجلّى هذا الأثر في ثنايا الكتب والمؤلّفات ذات الموضوعات المتّصلة بالعلوم الشرعية؛ كالتفسير، والقراءات، ... وفي طليعتها كتابه القيم الرّوض المريع في صناعة البديع.⁽²⁾

فكتاب الرّوض المريع هو كلفة شاملة للقوانين والأسس والمفاهيم البلاغية، اتّجه فيه مؤلّفه >> أوجها متميزة بإدراجه صور البديع الجزئية وألقابه تحت كليات عامّة، وبالتّالي فإنّه لم يتقيد في اصطلاحاته بالمدلولات الجارية عند البلاغيين المتقّمين بل جعلها مندمجة في أصول ذات خصائص أسلوبية مشتركة ومقاصد متقاربة، وقيد بعضها باستعمالاتها المتداولة، وخلق على بعضها الآخر مدلولات جديدة.⁽³⁾

ويتّبع منهج ابن البناء تبرز لنا خصوصية المصطلح القديّ والبلاغيّ في مؤلّفه، إذ يمثّل المصطلح البلاغيّ عنده حقلاً تتفاعل فيه مختلف المعارف الدّينية والفلسفية، والرياضية، والقديّة والبلاغية، فنجدّه يقم الآليات المنطقية والرياضية في وضع المصطلح البلاغيّ، ف>> أهم مصطلح مكوّن لجوهر كتاب ابن البناء هو النسبة أو الفاسبة أو التّناسب، فقد بنى على هذا المصطلح الرياضي المنطقي عدّة قضايا، وقسمه عدّة أقسام ورتّب عليه عدّة نتائج.⁽⁴⁾

إضافة إلى المؤثرات الرياضية والمنطقية يشغل العامل الدّيني حيزاً مهمّاً في الجانب

(1) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، تح رضوان بن شقرون، دط، 1985م، ص174.

(2) رضوان بن شقرون، البحث المصطلحي عند ابن البناء، ص02.

(3) عبد الوهّاب الأزدي، البحث البلاغي بالمغرب، المطبعة و الوراقة الوطنية، مراكش، 2008م، ص86.

(4) محمّد مفتاح التلقّي و التّأويل، ص41.

الفكري لبن البناء، فقد اعتمد في وضع مصطلحاته على القرآن الكريم واعتبره المصدر الأساس لتوجهاته البلاغية، وأبان عن ذلك أثناء وقوفه على مصطلح التوضيح الذي جعله قسماً من التفصيل إضافة إلى التشكيك والتجاهل والاتساع، ويبرر سبب إدراجه تحت قسم التفصيل قائلاً: >> وإنما جعلت في التفصيل - يقصد التوضيح - لأن الله سبحانه وتعالى وصف كتابه بأنه تبيان للناس، وبأنه تبيان لكل شيء وتفصيل كل شيء.<<(1)

والغرض الأساس لابن البناء من تأليف كتاب الروض المريع هو تقريب أصول صناعة البديع، بتجاوز ذلك الاضطراب والاختلال والتفرع الممل لفنون البلاغة؛ للوقوف على الفهم الصحيح لكتاب الله وسنة نبيه - صلى الله عليه وسلم - وقد أبان عن أغراضه قائلاً: >> فغرضي أن أقرب في هذا الكتاب من أصول صناعة البديع ومن أساليبه البلاغية ووجوه التفرع تقريبا غير مخل وتأليفا غير ممل، يصغر جرمه ويكثر علمه، وسميته بالروض المريع في صناعة البديع.<<(2)

ويواصل ابن البناء حديثه عن أغراضه من وضع الكتاب محمداً في الآن ذاته فائدته قائلاً: >> ومنفعته في زيادة المنة، وفهم الكتاب والسنة، فليجعله الأريب من أربه، والله تعالى المسؤول أن ينفع به، إنه منعم كريم.<<(3)

وليتمكن ابن البناء من تحقيق أغراضه البلاغية والدينية، اعتمد طريقتي الاستقراء والاستنتاج؛ وتمثلت طريقة الاستنتاج في وضع استنتاجين كبيرين يتفرع كل منهما إلى عدة فروع:

- الاستنتاج الأول: أقسام اللفظ من جهة مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود ومنه؛ الخروج من شيء إلى شيء، تشبيه شيء بشيء، تبديل شيء بشيء، تفصيل شيء بشيء.

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص 134.

(2) المصدر نفسه، ص 68-69.

(3) المصدر نفسه، ص 69.

– الاستنتاج الثاني: أقسام اللفظ من دلالاته على المعنى المقصود ومنه؛ الإيجاز، والاختصار، والإكثار والتكثير. (1)

وهذان الاستنتاجان ما هما إلا قاعدتين كليتين تتدرج تحتها مجموعة من الجزئيات التي قد يقع الاختلاف عليها كصور جزئية، إلا أن ذلك لن يخل بها بإدراجها تحت أي كلي كان، لأن الغاية الأولى لهذه الأجناس بحسب ابن البناء هي المخاطبة، وذلك يتضح من خلال قوله: >> وليس ذلك مخلًا بالصناعة، فإن وقع الاتفاق على الصور الجزئية الشخصية التي فيها، فلا يضر الاختلاف في إدراجها تحت أي كلي كان، ولا تسميتها بأي اسم كان، لأننا لو قدرنا أنها لا اسم لها ولا تتدرج تحت كلي لم تبطل حقيقتها، وإنما يحتاج إلى الأسماء والأجناس لأجل المخاطبة فيها وضبطها، ولذلك كانت الأقسام الكلية التي فيها توضع بحسب ما يراه كل واحد منهم... <<(2)

ومن خلال ما سبق نصل إلى أن كتاب الرّوض المريع كان ضابطاً منهجياً ولسانياً، من حيث صياغة الأقوال وتأويل الخطابات، وفي مقمّتها الخطاب الإلهي الذي لا يحتمل أي تأويل خاطئ أو تأويل عاطفي ذاتي، فظهرت في المؤلف خصوصية الإبداع والتأويل وطبيعة التّواصل الجمالي التي لها جملة من الممّهّات والخصائص المتمثّلة في الإثارة والاستفزاز والتأثير والفهم والتواصل والامتناع. فكان ابن البناء بكلّ ما أسهم به من معارف بلاغية ونقدية واحداً من الأعلام الذين أضفوا حيوية على البلاغة العربية، ويكفي أنه أدرك حقيقة هذا العلم العربي، وما يمكن أن يؤديه من وظائف فعلية وانفعالية تتراوح بين التّواصل والتعبير والفنية، فقد أدرك ابن البناء أن الأجناس البلاغية بإمكانها تأدية وظائف حيوية لا تقف عند حدود الوظيفتين التّعليمية والزخرفية، بل إن تلك الأجناس وجدت لتحقيق وظائف تواصلية وتأثيرية وامتاعية كما ينبئ عن ذلك في مؤلفه >> إنما يحتاج إلى الأسماء والأجناس لأجل المخاطبة فيها. <<(3) ومن ثم تكون هذه الأجناس أساساً يعتمد عليه المتحاورون في تخاطبهم، من خلال تمتين روابط التواصل بين المتكلّم والسّامع والمحيط.

(1) محمّد مفتاح، التّلقّي و التّأويل، ص 42.

(2) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 173.

(3) المصدر نفسه، ص 173.

ونشير إلى أن ابن البناء فيما تناوله من أصول بلاغية، ومن خلال دراسته للخطابات المتنوعة من قرآن وشعر ونثر >أهتّم بتقديم توصيف لعناصر العملية التّواصلية من متكلم ومستمع ورسالة ومقام، وفي إطار هذا التّوصيف عُي بمقاصد الخطاب وأحوال المتلقّين له، وشروط الخطاب النّاجع الذي يحقّق فائدة لدى المتلقّي، والمؤشّرات اللّغوية وغير اللّغوية المتحكّمة في ذلك.<<(1) وكلّ ذلك يَمّ عن بعد نظر ورؤية لغوية معاصرة تتطوي على أبعاد لسانية وتداولية مهمّة، ضمنّت له التّواصل المعرفي مع معطيات الدّرس اللّساني الحديث والمعاصر، وهذا ما يزيد إصرارنا على أن >في التّفكير البلاغي الكثير من الجوانب الطّريفة، التي نعتقد أنّها لم تفقد نجاعتها في مواجهة التّحليل الأدبي، كما أن فيه من مظاهر المعاصرة الشّيء الكثير لكن علينا أن نكتشف السّبيل إلى تلك المظاهر، وأن نعرف كيف نقرأ التّراث البلاغي قراءة لا تقتصر على استخراج وجوه البديع وأنواع المجازات و اجتنائها من إطارها الفكري اجتنائاً يجعلها وسائل عميقة لا تولّد في أذهان المستعملين أو المتلقّين إلا الملل والكلال.<<(2)

وسنحاول فيما يأتي أن نعيد قراءة مشروع ابن البناء البلاغي لنكشف عن الخيط النّازم لأفكاره والتّصوّر الكامن وراء جزئياته، ولأسيما التّصوّر اللّساني التّداولي الذي ينكشف في اهتمامات ابن البناء بأطراف التّداول من متكلم ومستمع وسياق، ومفاهيم بلاغية متعدّدة كمفهوم صناعة البديع، والبلاغة والفصاحة وعلم البيان، وكذا اهتمامه بأساليب صناعة الخطاب البديع، وهي جملة من المفاهيم تتحدّد من خلالها الرّؤية التّداولية لابن البناء لما سنجدّه فيها من ثراء معرفي ولساني تداولي، وأبعاد وظيفية مختلفة، ذلك أن ابن البناء يؤسّ فكره على مبدأ مهمّ وهو أن >النّص هو نظرية وإنجاز في الوقت نفسه، وأنّه بالتّالي قادر على توليد نمط من الصّور لا يشبه بالضرورة الأنماط الموجودة في غيره من النّصوص.<<(3)

(1) باديس لهويل، التداولية والبلاغة العربية، مجلّة المخبر، ع7، جامعة محمّد خيضر، بسكرة، 2011م، ص172.

(2) حمادي صوّد، التّفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوّره إلى القرن السّادس، ج2، منشورات كليّة الآداب منوبة، تونس، 1991م، ص620.

(3) المرجع نفسه، ص620.

المبحث الأول: الرؤية التداولية والمفاهيم البلاغية عند المراكشي

1/ صناعة البديع:

وهو مفهوم مركب من مفهومين أساسيين يدعم كل منهما الآخر لتكوين مفهوم بلاغي تداولي:

أ- مفهوم الصناعة:

يأتي مفهوم الصناعة أو الصناعة في اللغة مقابلاً لمفهوم آخر وهو مفهوم الطبع - والطبع لغة؛ يقصد به السجية التي جبل الإنسان عليها.

أما معناه الاصطلاحي فإنه يلتقي مع المعنى اللغوي، فيكون نقيض التكلف والتصنع. والشعر المطبوع عند نقاد العرب هو ما أتى عن الشاعر عفواً، دون تكلف أو تصنع.⁽¹⁾

أما مصطلح الصناعة: فهو يصور لنا معنى الإجابة والمهارة في اللغة. ويقصد به في الاصطلاح توخي الأدوات والفنون التي تكفل للكلام التفوق والنجاح. والصناعة تعتمد على التآني في نسج الكلام وترفض الاندفاع الذاتي.⁽²⁾

فالصناعة إذن لا تعني قهر الكلام واغتصاب الألفاظ، والإتيان بالمعاني المتكلفة التي قد تذهب فائدة الكلام، وهي تتنافى أيضاً مع الطبع والسجية التي تحكمها العاطفة فيأتي الكلام اندفاعياً غير مراقب، مما قد يتسبب في خلله. يقول ابن الأثير (ت 637هـ) متحذراً عن الصناعة وحلمه على التكلف: >> ولقد رأيت جماعة من متخلفي هذه الصناعة يجعلون همهم مقصوراً على الألفاظ التي لا حاصل وراءها، ولا كبير معنى تحتها، وإذا أتى أحدهم بلفظ مسجوع على أي من الغثائفة والبرد يعتقد أنه أتى بأمر عظيم<<⁽³⁾.

(1) محمّد عزّام، المصطلح النقدي في التراث الأدبي العربي، دار الشروق العربي، بيروت، لبنان، دط، 2010م، ص224.

(2) المرجع نفسه، ص224.

(3) المرجع نفسه، ص224.

فابن الأثير من خلال قوله هذا لا يعرض الصناعة الجيدة التي تتوازن فيها رقّة اللفظ مع جودة المعنى، لكنّه يرفض أن تبلغ هذه الصناعة حدّ التكلّف الممقوت فتكون الألفاظ هدفاً وبتناسى المبدع أهمية المعنى هل هو شريف أم وضيع، قريب أم بعيد، وبالتالي يكون هدفه

مقصوراً على الاتيان بالمعنى البعيد والغريب وغايته في ذلك الغموض والإعجاز والتّباهي اللّغوي على المستمع، وهذا ما دعت كل من البلاغة العربية و التداولية إلى تجنّبه، فقد شدّدت البلاغة العربيّة على الوضوح في الكلام الذي يوازي >> مبدأ الطّريقة أحد المبادئ الكلامية التي وضعها جرايس في نظريته التداولية، حيث يدعو هذا المبدأ إلى الاحتراز من الخفاء في التّعبير، وكذا الاحتراز من الاشتباه في اللفظ.<<(1)

ومصطلح الصناعة من المصطلحات القديّة التي شاعت على ألسنة القاد قديماً وحديثاً، فقد حدّدها الجرجاني بقوله: >> وهي العلم المتعلّق بكيفية العمل<<(2).

وإذا كان هذا المصطلح مقترناً عند الجرجاني بطريقة العمل، فإنّه يأخذ عند ابن البناء منحى أشمل من ذلك - وإن قارب في جانب منه المفهوم الذي وضعه الجرجاني - حيث يأخذ هذا المصطلح أبعاد أخرى ومفهوماً أعمق دلالياً من ذلك الذي أخذه عند غيره من القاد؛ فالصناعة عند المراكشي هي قانون كليّ يندرج تحت قانون أشمل منه وهو العلم، وتحت الصناعة تندرج جزئيات أخرى تتضمّن أساليب إنتاج القول البليغ، ويمكن أن نتبّن ذلك أثناء حديثه عن الفروق بين علم البديع وصناعته، وهو ما يعكسه قوله: >> والصناعة من حيث هي صناعة إنّما تعطي القوانين الكليّة التي تتضبط بها الجزئيات المندرجة تحتها<<(3).

ويأتي مصطلح الصناعة عند ابن البناء في اتّساع دلاليّ متميّز ليدلّ على المهارة الفنيّة

(1) طه عبد الرّحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الرباط، المغرب، ط2،

2000م، ص103 - 104.

(2) سعاد فريح صالح الثّقفي، (المصطلح القدي والبلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص61.

(3) ابن البناء المراكشي، الرّوض المربع في صناعة البديع، ص29.

(4) المصدر نفسه، ص30.

بكل ما تشمله من قدرات إبداعية وأساليب كلامية يعتمد عليها المتكلم في صياغة خطابه، فـ >> الصنّاعة عند ابن البناء ترجع إلى كيفية العبارة واختلاف طرقها في البيان والإيضاح <<(4). ولعلّ مفهومه هذا يتّفق في نقطة من نقاطه مع ما تعارف عليه النقاد والبلاغيون؛ فالصنّاعة عندهم تعني >> خبرة الشّاعر وحذقه ومهارته التي تعينه على إجادة فنّه <<(1)، فالأديب لا بدّ أن يمتلك المعرفة اللّغوية العميقة التي تمكّنه من التّعامل والاستعمال التّخاطبي وإخراج كلامه مخرجا صحيحا، والحرص على حسن المعاملة الخطابية هو ما جعل قدامة ينصّ على أن للشّاعر صنّاعة وأن >> الغرض في كلّ صنّاعة إجراء ما يصنع ويعمل بها على غاية التّجويد والكمال <<(2).

و يتجلّى لنا مفهوم ابن البناء السّابق أثناء تعليقه على قول الشّاعر:

فَأَمَّطَرْتُ مِنْ نَجِسٍ وَسَقَتَ وَرَدًا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُغَابِ بِالْوَدِّ

– يقول: >> الصّواب، لو قيل:

فَأَمَّطَرْتُ وَدًا مِنْ نَجِسٍ وَسَقَتَ وَرَدًا وَعَضَّتْ عَلَى الْعُغَابِ بِالذُّرِّ (3)

وزهد إلى أن البيت الأوّل أنسب لصنّاعة الشّعر لأنّ هناك من يجيز الكذب والغلو في الشّعر، والصنّاعة تبيح للشّاعر العدول القاعدي، أمّا الثّاني فأنسب للمعنى لأنّه أقلّ تكلفا ومتماشيا مع العرف اللّغوي وأكثر انسجاما من حيث الدّلالات >> من حيث إن إمطار اللؤلؤ غير مشاهد ولا معروف، فتحاكي اللمع في انسكابه على خدّها شيء غير موجود ولا معلوم

(1) سعاد فريح صالح الثّقفي، (المصطلح القدي و البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص58.

(2) المرجع نفسه، ص58.

(3) ابن البناء المراكشي، الرّوض المربع في صنّاعة البديع، ص104.

(4) المصدر نفسه، ص104.

إلا من عنده اخترعه من نفسه»⁽⁴⁾ ، ومعنى اخترعه من نفسه؛ تصنعه وهنا يكون الشاعر قد تجاوز هود الصناعة التي تعني الإجابة إلى التصنع الذي يعني التكلف والتوعر، وهذا قد يقبل عند فئة من الناس وقد يستنكر من أخرى فهناك >> من الناس من يرى أن الشعر موضع

الكذب والإيغال في المحال فيجوز ذلك فيه ويجعله من الترشيح، والقول الأول أنسب لصناعة الشعر، والثاني أنسب لمعناه»⁽¹⁾. وقد جعل ابن البناء القول الأول مندرجا ضمن صناعة الشعر؛ لأن الشعر بحسب ابن البناء هو المخاطبة بأقوال كاذبة ومن ثم فهو داخل في باب الجهل، وهذا الاتصاف ينطبق على البيت الأول الذي هو خطاب كاذب موغل في المحال.

وعليه فالصناعة الجيدة عند ابن البناء تتطلب امتلاك الوسائل الضرورية من الناحية المعرفية والناحية الأدائية، فيحسن المتكلم سبك ألفاظه ويعمل على انسجام معانيه لتكون أكثر إيفاء بشروط الخطاب من سبك وانسجام وصدق، فتوظيف التكرار مثلا يحتاج إلى خبرة معرفية وتبصر أسلوبية واستعمالي يمكن المتكلم من تحديد المواطن التي يستحسن فيها والمواطن التي يقبح فيها من جهة الشكل والدلالة، حيث يرى ابن البناء >> أن تكرار اللفظ مع اختلاف المعنى في القوافي يدل على قوة الصناعة»⁽²⁾، وحديث ابن البناء في مجمله يتفق مع المبدأ الأسلوبية التداولية الذي يستدعي ترتيب الكلام، ومبدأ الأياقة في الحديث.⁽³⁾

من خلال ما سبق نجد أن مصطلح الصناعة عند ابن البناء يأخذ بعدا كليا وعمقا دلاليا، حيث تتطلب الكفاءة الإنتاجية والتأويلية من طرف المتكلم والمستمع، فتكون بالنسبة للمتكلم مجالا لتفجير طاقاته الإبداعية لإنتاج خطاب متكامل أو كما يسميه ابن البناء صناعة قول بديع، وبالنسبة للمتلقى بمثابة اختبار أو كاشف يكشف عن مدى عمق إحساسه وقدرته على

(1) المصدر السابق، ص 104.

(2) المصدر نفسه، ص 163.

(3) عيد بلبع، >التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس<، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب،

مصر، ع 66، ربيع 2005م، ص 330.

التأويل، ولذلك[>] فالصّناعة تتطلّب نوعاً من الثقافة والمهارة، وهذه تستدعي نوعاً من الخصوصية سواء من الشاعر أو المتلقّي؛ لأنّ هذه الخصوصية عند الشاعر هي

مجال إبداعه وعند المتلقّي سبب في عمق إحساسه وعمق وقوفه على القيم الجمالية^{<(1)}.

وبذلك يكون مصطلح الصّناعة كفاءة كدّية وشاملة لعدد من الكفاءات المندرجة تحتها كفاءة الإنتاج وكفاءة التأويل، وبالإجمال يمكن اعتبارها مرادفاً لكفاءة التّداول التي بدورها هي مصطلح عام يضمّ العناصر السابقة، ممّا يجعل الصّناعة تتحرّك على نطاقين تداوليين هما؛ نطاق الكفاءة والإنجاز.

والتّداوليّة ضمن التقليد الذي وضع أسسه بينفنيست Benveiste وواصله ديكرودucro ذهب إلى أنّ التّداولية مشفّرة في اللسان، وفي اللسان نفسه تعليمات تحدّد استعمالاته الممكنة، وهذه هي نظرية التّداولية المدمجة⁽²⁾، وهذه الرّؤية التّداولية المعاصرة توافق إلى حدّ كبير رؤية ابن البناء البلاغية؛ حيث إنّ الصّناعة عند المراكشي تحثّ دوماً على استغلال الطّاقات اللّغوية المتوافرة في اللّغة الجماعية لصناعة الكلام، وذلك يتطلّب معرفة آليات تحرك اللّغة و تشكّلها.

أمّا الإنجاز فهو مصطلح نشأ ضمن التقليد الذي دشّنه جرایس، ويشكّل إلى جانب الكفاءة ثنائية تداولية تقابل الثنائية (لسانيات/ تداولية)، وفي هذا السياق يذهب جرایس إلى أنّ التّداولية لا تعنى بالكفاءة اللّسانية أي معرفة المتكلّم بآليات اشتغال لغته، بل تعنى بنظرية الإنجاز؛ أي بمجموعة من المعارف والقدرات على استعمال اللّغة في مقامها⁽³⁾.

(1) سعاد فريخ صالح الثّقفي، (المصطلح النّقدي و البلاغي عند ابن البناء)، ص 58.

(2) آن ريبول، القاموس الموسوعي للتّداولية ج1، ص 34.

(3) المرجع نفسه، ص 34.

وإذا كان الباحثون الغربيون يختلفون في تحديد مهام التداولية، فالبلاغة العربية _ ومن ذلك البلاغة عند المراكشي _ كانت على وعيٍ بضرورة وجود تكامل بينهما؛ أي بين المعرفة والإنجاز فإن لم يكن المتكلم عارفاً بآليات اشتغال لغته على المستويين الدلالي و الشكلي فإنه

لن يتمكن من الإنجاز أو من تطبيق مفاهيمه المجردة وتداولها مع غيره، فهذه الآليات الثابتة في اللغة هي التي تحقق الوحدة اللغوية بين المتحاورين وتكون بمثابة قاعدة يستندون إليها في تشكيلاتهم اللغوية، وإلا كان لكل متكلم على مستوى الجماعة الواحدة لغة وقانون خاص به؛ فالمتكلم دائماً مرتبط بطرف ثانٍ وهو المستمع ولكي يتم تواصلهما لأبد من وجود معرفة مشتركة بينهما، ومن ذلك معرفة أساليب صياغة تراكيب الكلام وهذا ما يؤكد ابن البناء بقوله: >> ولهذا وجب تقديم معرفة مفردات اللغة وصناعة اشتقاق ألفاظها وتصريفها، ومعرفة تركيب أجزاء القول منها وقوانين إعرابها ونحو اشتقاقها، فإن ذلك هو المتقدم والمبتدأ لهذه الصناعة البلاغية.<<(1)

وإن كان مفهوم الصناعة في مؤلف الروض المريع يعني بالوسائل اللازمة التي تكفل للمتكلم صناعة قول بليغ قادر على توصيل مقاصده من خلاله، فإن هذا كان واحداً من مهام التداولية >> التي تبحث في الشروط اللازمة لضمان نجاعة الخطاب و ملاءمته للموقف التواصلي الذي يوجد فيه المتلفظ بالخطاب و السامع له.<<(2)

ب - البديع:

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص75.

(2) هاديس لهويل، التداولية والبلاغة العربية، ص159.

(3) سورة البقرة، الآية117.

يطلق البديع في اللغة على إيجاد الشيء واختراعه على غير مثال. قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾⁽³⁾. تدل كلمة البديع هنا على معنى التّفرد والخلق والإيجاد على غير مثال سابق⁽⁴⁾.

– ويطلق لفظ البديع أيضاً على الجديد المحدث، وعلى الشيء العجيب الغريب.

– ويقال: شيء بديع أي؛ عجيب مُحَدَّث، وركى بديع أي؛ جديدة حديثة الحفر.⁽¹⁾

أما من الناحية الاصطلاحية فإن لفظ البديع في استعماله الاصطلاحية الأولى عند البلاغيين كان يطلق على فنون البلاغة ومسائلها، حيث يأتي مرادفاً لكلمات البلاغة والفصاحة والبيان والبراعة. وظلّ المصطلح متداولاً بذلك المفهوم ومرادفاً لتلك المعاني التي يراد بها مسائل البلاغة وفنونها حتى مجيء السّكاكي (ت 626هـ) فقسم البلاغة إلى علمي المعاني والبيان⁽²⁾، وذهب إلى أن هناك ضرباً أخرى غير الضربين الأولين ترد لأجل تحسين الكلام وزخرفته >> فهناك وجوه أخرى غير مسائل هذين العلمين يُسار إليها لقصد تحسين الكلام وتزيينه، وهي ما أطلق عليه فيما بعد علم البديع.⁽³⁾

وإذا كان لفظ البديع عند السّكاكي يقتصر في دلالاته ووظيفته على التّزيين اللفظي، وهو الأمر ذاته الذي شاع عند الكثير من النّقاد والبلاغيين في القرون السابقة للقرنين السّابع و الثّامن للهجرة، وحتّى عند بعض معاصري هذين القرنين، فإنّ هذا المصطلح قد استرجع دلالاته الأصلية مع عدد من النّقاد والبلاغيين أمثال السّجلماسي وابن البناء في المغرب

(4) بسيوني عبد الفتّاح، علم البديع دراسة تاريخية و فديّة لأصول البلاغة ومسائل البديع، مؤسّسة المختار، القاهرة، مصر، طر، 1418هـ/1998م، ص8.

(1) المرجع السّابق، ص8.

(2) المرجع نفسه، ص8.

(3) المرجع نفسه، ص8.

(4) المرجع نفسه، ص11.

العربي، فقد أدرك هؤلاء حقيقة لسانية مهمة وهي أنّ >> البديع ليس ترفاً في الأسلوب الأدبي، أو حلية تكون بمثابة الفضول التي يستغنى عنها حتى يكون مكانه في المؤخرة من عناصر العمل الفني، ولا هو يأتي بعد استيفاء البلاغة لعلمي المعاني والبيان، بل منزلته لا تقل شأنًا عنهما. <<(4) وهو المفهوم ذاته الذي قام عليه مصطلح البديع في مؤلف ابن البناء، حيث يأتي البديع شاملاً لجميع فنون البلاغة دالاً على الجدة أو المتناهي في الحسن، فحسن الكلام وسموه راجع إلى اتصافه بصفات البديع، وهو ما وضحه ابن البناء من خلال

قوله: >>...المحمود في جميع أساليب البلاغة إنما هو ما لا يظهر فيه التكلف ولا يكون مطلوباً بالتعسف، وعليه رونق الفصاحة وطلاوة البديع، وما كان من الكلام مضرّس الألفاظ مجمع الأجزاء غير مسجوع مختتم الأواخر بحروف متباينة، فهو خارج عن البديع ولاحق بكلام العوام.<<(1) وحديث ابن البناء هذا يكشف لنا عن جانب مهم من جوانب البديع، جانب يكون فيه البديع خاصية تعبيرية فنية تحقق وظائف مختلفة تتباين بتباين المقامات التي ترد فيها؛ فيكون جمالياً فنياً وتعبيرياً تواصلياً وكل ذلك يجعل منه صناعة للقول، فهو أسلوب شامل يسهم إسهاماً فعالاً في إنتاج القول وإنجازه من خلال دلالاته على المعنى المقصود، ومتى كان القول دالاً على معناه كان ذلك من أنجع الطرق لتحقيق التواصل.

وإذا ما تتبعنا هذا المصطلح في حركيته العملية في مؤلف الروض المريع وجدناه يأخذ بعين؛ بُعد يكون فيه البديع معادلاً لمفهوم الأسلوب البلاغي، وفيه يكون البديع فناً قولياً مساوياً لعلمي المعاني والبيان، أما البعد الثاني فهو الذي أراد به ابن البناء مفهوم صناعة القول البني الواضح أو الكلام البديع والذي عو عنه بمصطلح صناعة البديع، وبدل على ذلك قوله: >> فهو الخارج عن البديع ولاحق بكلام العوام<<(2) خارج عن كونه كلاماً شريفاً ذا تأثير خاص إلى كلام عامي عادي.

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص174.

(2) المصدر نفسه، ص174.

(3) سعاد فريح صالح التقي، (لمصطلح القدي لبلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص34.

وبالعودة إلى المفهوم الأول للبديع عند ابن البناء نجد أنه يتفق في جانب منه مع المفهوم السائد لدى البلاغيين القدماء قبل السكاكي حيث دلّ عندهم على >> الجدة والطرافة في خواص التعبير الفني، وكلّ ما يكون محلّ استطراف من الظواهر البلاغية.<<⁽³⁾ وهو ما نلاحظه عند الجاحظ الذي أكد أهمية البديع باعتباره سمة تمييزية أثناء تعليقه على بيت الأشهب بن رميلة:

هُم سَاعِدُ النَّهْرِ الَّذِي يَتَّقَى بِهِ وَلَا خَيْرَ كَفٍّ لَا تَنْزُوءُ بِسَاعِدِهِ. (1)

وقد علّق الجاحظ على هذا البيت قائلاً: >> ساعد النهر إما هو مثل، وهو الذي تسميه الرواة البديع، والبديع مقصور على العرب، ومن أجله فاقت لغتهم كلّ لغة، وأريت على كلّ لسان،...<<⁽²⁾

يذهب ابن البناء إلى أنّ الكلام إذا جاء متكّفاً غير مسجوع، فكان مجرد رصف للكلمات وتجميع لها من غير انسجام بين أجزائها، كان كلاماً مبتذلاً أو عادياً لا يرقى إلى مراتب الكلام البديع؛ فهو لم يردّ بالبديع - كما لم يردّ البلاغيون القدماء أمثال الجاحظ - ذلك الأسلوب التعسفي المتكلف الذي يجني على فنّ القول فيستغلّق بسببه المعنى، وتضيع فيه البهجة واللذة، فيتيه المتكلم وسط زخارفه وتضيع فائدة الكلام وراء غموضه وتعسفه؛ لأنّ هذا النوع من الكلام كما يقول العسكري: >> إذا سلم من التكلّف وبرىء من العيوب كان غاية في الحسن، ونهاية في الجودة.<<⁽³⁾

فالبديع بهذا المنظور ليس مكّلاً زخرفياً للكلام بل هو أساس متين يبني عليه الخطاب، لأنّ تلك النظرة الزخرفية والتي حصرت الصّور البلاغية - البديعية خاصة - في مجال التزيين أورث البديع - والبلاغة أيضاً - سمعة سيئة، إذ يذهب إيكو إلى أنّ هذا الاستخدام للصّور البلاغية لغاية التّحسين والتّزيين جعل من البلاغة مستودعاً للأمتلّة الجاهزة،

(1) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، البيان و التبيين، ج2، ص56.

(2) المصدر نفسه، ص56.

(3) محمّد العمري، البلاغة العربية أصولها و امتداداتها، ص264.

(4) عيد بليغ، التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص297.

التي لا تؤتي وظيفة غير التلاعب باللغة، >> وتأسيسا على ذلك فإن البلاغة كانت تعني - باستمرار- أنها ذخيرة من الجمل الجاهزة تقدم بوصفها نماذج للكتابة الجيدة، أو الحديث الجيد، وتشتمل هذه الذخيرة على أدوات أسلوبية مجربة من قبل مع مفهوم مكثف بوصفه شفرة فنية.<<(4)

ويصحح إيكو تلك النظرة الخاطئة عن الصور البديعية ويقوم مسارها السلبي قائلا: >> وهذا نوع من إنتاج العلامة وفق رؤية المرسل التي تجذب الجمهور باستخدام صيغ جربت من قبل واكتسبت مكانة موثوق بها.<<(1) ومن ثم فالصور البلاغية - كما يشير إلى ذلك إيكو - ليست دائما مقتصرة على الغاية التحسينية، فهي تستعمل أيضا في الإبداع الأصيل، وعندئذ يكون لها إسهام في إنتاج الدلالة، ومن ثم التأثير في فهم المتلقي لمضمون الخطاب.

وقول إيكو هذا يتوافق مع ما ذهب إليه ابن البناء فيما يخص الصورة البديعية، فقد شدد ابن البناء على ضرورة التوافق بين الصورة والمعنى الذي تؤتيه، وكذا وجوب اختيار المكان المناسب لوضعها وذلك مراعاة لحال المستمع، >> لأن الألفاظ غير مقصودة لذاتها، وإنما هي لإيصال المعاني إلى النفس.<<(2) ويمكن أن نلاحظ ذلك أثناء حديثه عن فضل الطباق والمشاركة وأثرهما على الكلام؛ فالطباق لا يؤتى به لمجرد التزيين بل إن لهذه الصورة تأثير في الدلالة بتوضيحها، وفي نفس المستمع بخلق اللذة الشعورية من خلال الجمع بين الضدين، ذلك أن >> موضع اللذة موضع النقاء من الضدين، فتتمثل النفس ذلك في القول، والاعتدال في جمعهما فتستطيعه.<<(3)

وكما أشرنا فإن ابن البناء كان حريصا على وجوب اختيار المتكلم للمواضع الحسنة لإيراد الصورة البديعية، ومن ذلك حديثه عن قسم المشاركة وتبيان المواطن التي تحسن فيها

(1) المرجع السابق، ص 297.

(2) ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص 83.

(3) المصدر نفسه، ص 111.

(4) المصدر نفسه، ص 163.

طلباً للتّمييز وتجنّباً للقبّح والنّم، فيوضّح ذلك قائلاً: >> وهذا القسم لأجل اختلاف معناه يحسن في القوافي ويدلّ على قوّة الصّناعة، وأمّا في الحشو فقد يتقلّ لتكرير اللفظ ويرجع ذلك إلى كثرته أو قلّته، وقربه أو بعده، فيحمد ويذمّ بحسب ذلك والمحمود هو من أقسام البلاغة.<<(4)

فقد عرف ابن البناء >> البديع الذي يأتي موضعه ليقوم بدوره في أداء المعنى، فيقف جنباً إلى جنب مع الصّور البيانية وتركيب مواضع الكلمات.<<(1) وحبّته في ذلك دينيّة؛ فالقرآن الكريم يحتوي على الكثير من الأصناف البديعية كالجناس والطّباق، والمقابلة، اللف، والشّر، إلّا أنّ هذه الأنواع لم توظّف في القرآن عبثاً أو لمجرّد التزيين، ومن ثمّ >> لم تكن فضولاً في القول، ولم تأتي لمجرّد الزينة، وأمّا دعاها المعنى دعاها دون غيرها من الألفاظ، فإذا استقرت في موضعها كان المعنى جلاءً وبيانا، وللکلام فضلاً وتأثيراً.<<(2)

وعليه فالبديع يختصّ بالتراكيب لا بالمفردات منفردة، لأنّه متى كان هناك تلازم وارتباط بين المعنى والصّورة البديعية بحيث لا تفرض الصّورة على الدلالة ولا الدلالة على الصّورة، بل يكون بينهما توافق وانسجام كان للكلام بعداً تأثيرياً على المستوى الفكري والوجداني؛ فكراً بالإقناع ووجدانياً بالإمتاع >> فما أفعّل بالفس أملك للقلب.<<(3)

وبناء على ما سبق نلاحظ أنّ ابن البناء >> أعطى لهذا المصطلح صفة الشمولية التي لا تتفق مع قسمة السّكاكي، فاستخدم البديع بمفهومه الواسع الذي يضمّ في ثناياه الظواهر البلاغية بمختلف أقسامها، فمضمون كتابه هو البلاغة لا البديع<<(4)، فقد ينهياً للقارئ من خلال مطالعة عنوان الكتاب المسجوع "الروض المريع في صناعة البديع" أنّ الكتاب يضمّ الفنون البديعية التي شاعت بكثرة عند المتأخرين، ذلك أنّ >> ظاهرة العصر في التّأليف

(1) عبد القادر حسين، فنّ البديع، دار الشّروق، بيروت، لبنان، ط1، 1983م، ص12.

(2) المرجع نفسه، ص12.

(3) عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتاب الجديدة، سور

الأزبكية، ليبيا، ط1، 2004م، ص454.

(4) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ص310.

(5) أبو القاسم السّجلّماسي، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح علّال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط،

ط1، 1401هـ/1980م، ص10.

النّدي والبلاغي كانت ترتبط بهذه العناوين البديعية، وهو التزام أوهم الدّارسين أنّ مؤلّفات هذه العناوين كانت ترتبط بذلك المصطلح - البديع - الذي خنق النّوق الشعري والأدبي، فابتعد الدّارسون المعاصرون عنها، وضاعت بذلك قيم نقدية ما كانت لتضيع لو أنّنا تجاوزنا العنوان إلى المضمون. <<(5)

ج- صناعة البديع:

يحدّد ابن البناء صناعة البديع بأنّها صناعة القول ودلالته على المعنى المقصود، وهو مفهوم مدّسع الدّلالة شامل لكلّ الفنون والأساليب البلاغية، كما أنّه جزء بالنّسبة إلى كلّ أعمّ منه وهو العلم. فصناعة البديع تستند إلى علم البيان هذا الأخير الذي يكتسب مفهومًا مغايرًا ضمن المجال النّدي البلاغي للمراكشي، وانطلاقًا من ذلك نجد أنّ صناعة البديع في الإجمال >> ترجع إلى صناعة القول ودلالته على المعنى المقصود، ومستندًا علم البيان... <<(1)

ويتّبع هذا المصطلح على مدار المؤلّف يتّضح لنا أنّ ابن البناء أراد توضيح الطّريقة المثلى التي يجب أن ينتهجها المتكلّم لصناعة خطاب متكامل من النّاحيتين الظّاهرية والباطنية، ثمّ ما هي شروط هذا الخطاب كي يحقق فائدة؛ أي كيفية تأهيل الخطاب وتهيئته وشحنه بالمقاصد، ثمّ كيف يلقي المتكلّم برسالته كي يفهمها مستمعه، وهذا ما يمكن أن ننتبّه من خلال قوله: >> وصناعة البديع، والفصاحة، والبلاغة إنّما هي من جهة الاستدلال بالألفاظ على معانيها، فهي راجعة إلى كيفية العبارة والأساليب في البيان. <<(2) فبمقدار وجود الملاءمة بين الألفاظ والمعاني تتحقّق قواعد الفصاحة والبلاغة، وبمقدار فقدها تنقص قيمة التعبير ويقع الخلل في التّواصل اللّغوي والتّفاهم البشري، ومتى توفّرت الفصاحة والبلاغة في الخطاب تحقّقت صناعة القول البديع، ولهذا كانت الصّناعة البديعية هي البحث عن تحقيق الغرض من الكلام إيجازًا أو إطابًا، حقيقة أو مجازًا، وأمّا المعاني في حدّ ذاتها فهي البيان ذاته.

(1) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 88.

(2) المصدر نفسه، ص 88.

هذا المفهوم الذي قّمه ابن البناء لصناعة البديع يعكس لنا جانبا لسانيا تداوليا مهما يظهر في اهتمام الناقد بالخطاب والمخاطب والمخاطب، والفعل الجامع بينهما وهو فعل التّواصل والاستعمال اللّغوي، ذلك أنّ صناعة البديع هي كناية شاملة لعناصر مهمة في المدونة الخطابية، وذلك كلّه يدخل ضمن ما يسمّى بالاتّصال؛ فابن البناء من خلال المفهوم الذي قّمه لصناعة البديع - ولغيرها من المفاهيم البلاغية - يهدف إلى رسم الحدود الصحيحة التي إذا التزمها المتكلّم أنتج وأنجز أبعادا وظيفية تتجاوز البعد التّعليمي، فيفهم ويدفهم ويؤثّر ويقنع ويمتّع باتّباع استراتيجيات بلاغية محدّدة ومضبوطة، >> فحين التّكلّم يتعيّن مراعاة فنّ القول لتصل إلى قلب المتلقّي وعقله، وهي برأي لوسبرج نظام بنية من الأشكال التّصورية اللّغوية يصلح لإحداث التّأثير، فهي تداولية في صميمها إذ يمكن الاتّصال بين المتكلّم والسّامع >>(1).

ونشير إلى أنّ أمر التّواصل ليس بجديد على الفكر العربيّ، فقد التفت العرب ومنذ القديم إلى أهمية التّواصل في حياتهم، وما يؤكّد ذلك اهتمامهم باللّغة في أرقى صورها لأنّها اللّيل الأوّل على وجودهم، >> فقد أدرك العرب كغيرهم من الشعوب أنّهم لا يستطيعون تحقيق وجودهم دون هذا الفعل >>(2).

وما ينضوي تحت هذا المصطلح من أساليب ومفاهيم يؤكّد أنّ التّأدية أمر ضروري لكلّ علم من علوم اللّسان، فلا فائدة من الكلام إذا لم يكن فصيحاً مؤسّسا لغاية و مقصد، وإن لم يكن قادرا على الإبلاغ والإفهام، أي التّواصل الجيد الفعّال وهو أعلى مراتب التّداولية.

تتخصر صناعة البديع بحسب ابن البناء في أمرين؛ الأمر الأوّل هو المنحى التّعبيري والمتعلّق بالإيجاز والإطناب والمساواة وما يتّصل بذلك، والأمر الثّاني في ملاءمة الكلام للأغراض المقصودة وفق أسلوب يختاره الشّاعر أو الكاتب، وقد عبّر عنه المؤلّف بمواجهة المعنى نحو الغرض المقصود. ولقد وضع المرّاشي شروطا خاصّة بكلا الأمرين؛ فاشتراط في الأوّل أن تكون الألفاظ المؤبّية للمعنى المقصود مطابقة لما يقتضيه الحال،

(1) سليم حمدان، (شكّال التّواصل في التّراث البلاغي العربيّ دراسة في ضوء اللّسانيات التّداولية)، رسالة

ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2009/2008م، ص77.

(2) سامية بن يامنة، الاتّصال اللّساني بين البلاغة والتّداولية، ص55.

فيسوق المتكلم كلامه وفقا لمقام الحديث ومقام المستمع، ذلك لأن الخطاب يتباين بتباين مستويات المستمعين وأحوالهم وحتى أغراض الخطاب ذاته، وعليه فتقسيم الخطاب في البلاغة يقتضي أمران؛ أولهما اختلاف مستويات الناس المخاطبين في فهم الخطاب الأدبي وإدراك معانيه، والثاني اختلاف أغراض الخطاب نفسه بحسب الأحوال وذلك ما يعبر عنه البلاغيون بمراعاة مقتضى الحال⁽¹⁾، لأن هذه المقاييس التعبيرية لها دور فعال في أداء المعنى، فمن أخل بها فقد أخل بعناصر البلاغة وأفسد عليه وعلى الناس طرق البيان.

أما الأمر الثاني فقد أدمجه في عناصر أولية ترد إليه جميع المصطلحات ولن اختلفت، لأن مدار الأمر كله يتعلّق بالكليات لا بالكلمات المعوّدة عنها، فإذا اتّحدت المفاهيم وتبلورت المقاصد فلا ضير في هذا الاختلاف، لأنه يظلّ اختلافا عرضيا لا يمسّ الجوهر ولا يؤثر في فاعليته مادام هناك اتفاق على الكليات، وهو ما أفصح عنه إفصاحا بيّنا في نهاية مؤلّفه >> قد تلتفّ أقسام البديع بعضها ببعض، فنتركّب وتتداخل... لأجل ذلك يختلف أهل هذه الصّناعة في الأمثلة الجزئية، فيضعها بعضهم في قسم ويضعها آخرون في قسم آخر، كما يختلفون أيضا في أسامي الأقسام...، وليس ذلك مخرّا بالصّناعة فإنه قد وقع الاتفاق على الصّور الجزئية الشّخصية التي فيها، فلا يضرّ الاختلاف في إدراجها تحت أيّ كلفي كان... لأننا لو قرّنا أنها لا اسم لها، ولا تتدرج تحت كلفي لم تبطل حقيقتها.⁽²⁾ وقد جمع العناصر السّابقة في أربعة مجموعات أو لنقل كليات، أدرج تحت كل كلفي مجموعة ما يناسبها من الأساليب والأنواع والأشكال التعبيرية، وعلى هذا الأساس كانت هناك "أساليب الخروج من شيء إلى شيء، وتبديل شيء بشيء، وتشبيه شيء بشيء، وتفصيل شيء بشيء".

ويفرق ابن البناء بين علم البديع وصناعة البديع بدقّة ممّونة تحدّد موضوع هذه الصّناعة، وتكشف لنا عن دقّة ذهنيته العلمية ووضعه للحدود بين كلّ مصطلح وآخر حتى لا يقع الخلط والاشتباه، حيث تتكلّف هذه الصّناعة بإخراج الكلام سهلا في معانيه حسنا في مبانيه، كما

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص 87-89.

(2) المصدر نفسه، ص 173.

(3) المصدر نفسه، ص 88.

تتكلف بتعليم الكلام وطبقاته وهو ما يوضحه قول ابن البناء >> والصناعة المتكفة بذلك هي صناعة البديع، والعلم الذي منه هذه الصناعة هو علم البيان <<(3)، وصناعة البديع من حيث هي صناعة لا علم فإنها >> تعطي القوانين الكلية التي تنضبط بها الجزئيات المندرجة تحتها، والعلم يميز جزئيات كلي وجزئيات كلي آخر حتى لا يختلط شيء بشيء، ولا يشتبه في العلم شيء مما يشتبه في الصناعة ولذلك تتمم الحكمة من الشعر والجد من الهزل في العلم وتشتك في الصناعة <<(1)

وهو بهذا يرجع للعلم صفة الحكمة التي تضم القول الصادق اليقيني، وصفة الجد التي تتطلب الصرامة في المواضيع والفروق الدقيقة بين المفاهيم والكليات، على خلاف الصناعة التي تضم كل تلك الأنواع المختلفة، لأن الصناعة شيء يكتسب والعلم صفة ربانية، وابن البناء يعد علم البيان موهبة لا صنعة لأنه لا يكتسب بالتعلم، وإنما هو >> شيء يفيضه الحق من عنده على الأذهان، ويشهد به العقل الصريح لا باستفادة من إنسان <<(2) ومن خلال هذا القول نخلص إلى أن الصناعة هي جزء من العلم تأخذ وسائلها وقواعدها منه، وبذلك فهي تتحصر أو ذات مجال محدود بخلاف العلم المتميز بالمجال الإبداعي المفتوح بصفته موهبة، ولذلك تتساوى صناعة البديع مع صناعة البيان ولا تتساوى مع العلم، ف >> متى أطلق البيان على القول وحده الذي به التبيان، فصناعة البديع هي صناعة البيان، وعلم البيان فوقها فإطلاق علم البيان على الصناعة غير سديد <<(3)

حاصل النظر فيما سبق أن تعرض ابن البناء لصناعة البديع وتحليله الخاص لها يكشف عن منحى جديد للفنون البلاغية من معانٍ وبيانٍ وبديع، تتعلق بالوظيفة التواصلية لا بالزخرف اللفظي؛ إذ إن هذه الصناعة تأتي لتحقيق غايات ووظائف سامية، منها تعليم طبقات الكلام لإنتاج القول الواضح البليغ الذي سيكون له وقع حسن على الأسماع وأثر في النفوس

(1) المصدر السابق، ص88.

(2) المصدر نفسه، ص88.

(3) المصدر نفسه، ص89.

بتملّكها، ليتغلغل في الذات ويحقّق الغاية الأولى لكلّ خطاب وهي التّواصل، ثمّ إن امتلاك مثل هذه الأساليب يعمل على تهذيب الطّبع وتحسين قوّة البيان، ممّا يقود إلى فهم الخطاب الأسمى وهو الخطاب الإلهي وكذلك فهم الخطابات بجميع أنواعها، وذلك مراد ابن البناء

من تأليف الكتاب حيث سعى فيه >> إلى تقريب أصول صناعة البديع ومن أساليبها البلاغية ووجوه التّفريع... ومنفعته في زيادة المنة وفهم الكتاب والسنة.<<(1)

2 - علم البيان وصناعة البيان:

- البيان لغة: الظهور والوضوح. واصطلاحاً: توضيح المعنى والكشف عنه كشفاً يجعل السّامع يفضي إلى حقيقته بسهولة، ويتحقّق ذلك باجتناب الوحشي المتوعر، والسّاقط السّوقي من الكلام، والتّدقيق في اختيار الألفاظ والمعاني(2).

- سئل ثمامة بن أشرس جعفر بن يحيى، وكان في النّزوة من الفصاحة والبلاغة الّتي أوصلته إلى الوزارة: ما البيان؟ فأجابه: أن يكون الاسم يحيط بمعناك، ويجلّي مغزاك، وتخرجه عن الشّركة، ولا تستعين عليه بطول الفكرة، والّذي لا بدّ من أن يكون سليماً من التّكلف، بعيداً عن الصّنع بريئاً من التّعقيد، غنياً عن التّأويل(3).

- وقال الرّماني (ت386هـ): >> البيان إحضار المعنى للّفس بسرعة إدراك، وقيل ذلك لئلاّ يلتبس بالدّلالة، لأنّها إحضار المعنى للّفس وإن كان بإبطاء.<<(4)

إنّ المتأمّل لنصوص ابن البناء البلاغية يجد أنّ مصطلح البيان يأخذ في قسم منه اتّجاهاً فريداً يدلّ على خصوصية واستقلالية فكره المتشعب بالتّعالييم الدّينية، ويوافق في القسم الآخر منه ما ذهب إليه سابقوه من مفهوم هذا المصطلح؛ >> حيث يأتي عنده بمعنى الإبانة

(1) المصدر السّابق، ص69.

(2) محمّد عزّام، المصطلح النّقدّي في التّراث الأدبي العربي، ص81.

(3) المرجع نفسه، ص81.

(4) المرجع نفسه، ص81.

(5) سعاد فريح صالح الثّقفي، (المصطلح النّقدّي و البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص40.

والإحاطة بأساليب النظم المختلفة لتحقيق الوضوح في الكلام، ويأتي أيضا عنده بمعنى التوضيح وأشار إلى أنه عمود البلاغة ومادة أساليب البديع.^{<<(5)}

ومفهومه للتوضيح يتفق مع المفهوم الذي ساقه الرّماني لمصطلح البيان، حيث عرفه قائلا: >> ومن التفصيل ما يقال له التوضيح، وهو إحضار المعنى للفهم بسرعة إدراك، ولا يكون إلا بالأفصح الأجلى من الألفاظ وأحسنها إبانة ومسموعا، وسماه الرّماني حسن البيان، وهذا النوع هو عمود البلاغة ومادة أساليب البديع.^{<<(1)} ويبرر ابن البناء سبب إدراجه لهذا المصطلح تحت قسم التفصيل قائلا: >> وإنما جعلته في التفصيل لأن الله سبحانه وصف كتابه بأنه بيان للناس، وبأنه تبيان لكل شيء، وتفصيل لكل شيء.^{<<(2)}

والبيان بهذا المنظور يقوم على إيضاح المعاني وطرحها بأسلوب يمكن من إدراكها بسهولة، ذلك أن >> حسن اللفظ وصلاحه إنما هو بالقصد إلى المستعمل في زمن الخطاب... والإيضاح على أحسن ما يقدر عليه من التسهيل والتقريب.^{<<(3)} فلا ينبغي أن يتولى المتكلم في كلامه أسلوب الغموض، فلا ينتقي الغريب النادر من الألفاظ بل يجب أن يعتمد إلى الوضوح والجلاء في نظم الكلام، لئتمكّن المستمع من إدراك معانيه وفهمها ف >> أنس النفوس موقوف على أن نخرجها من خفي إلى جلي.^{<<(4)}

وغالبا ما يكون التوضيح أبلغ من الحجاج ومن اعتماد أسلوب التلميح في الكلام إذا أحسن المتكلم استغلاله، ونجد لهذا الأسلوب وفرة في القرآن الكريم فيما يسمى بأسلوب الترغيب وأسلوب الترهيب، وقد ساق ابن البناء لذلك شواهد قرآنية توضح بدقة المقصود العام له، من ذلك قوله تعالى: ﴿ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ ﴾⁽⁵⁾ ولقد علق على ذلك مبيّنا أن

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص134.

(2) المصدر نفسه، ص135.

(3) المصدر نفسه، 173 - 174.

(4) الجرجاني، أسرار البلاغة، تع محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1996م، ص99.

(5) سورة البقرة، الآية 179.

(6) ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص135.

أسلوب الآية: >> من البيان الموجز الذي لا يقرن به شيء. <<(6) أي أنه جلي لا يحتاج إلى ما يوضحه.

ينقسم البيان عند ابن البناء بحسب طبقات الناس إلى بيان العامة وبيان الخاصة فهناك:

– الطبقة الخاصة؛ ويكون البيان بحسب هذه الطبقة هو الكلام البديع، الدال على القول الذي يصاغ صياغة واضحة ملائمة لمقام هذه الطبقة المحكومة بضوابط لغوية صارمة ومحددة في التحدث، ومبني على قواعد اللغة.

– وهناك الطبقة العامة؛ ويكون البيان فيها هو الكلام المبني على غير اللغة وعلى غير الإعراب، فلا قانون يضبطه غير قانون التواصل الجماعي المتعارف عليه، وهذا ما نص عليه ابن البناء قائلا: >> وكذلك يكون البيان عند الخاصة بالكلام البديع، ويكون عند العامة بكلامها المبني على غير اللغة وعلى غير الإعراب. <<(1)

فالبيان من هذا المنطلق يتباين مدلوله تبعاً للطبقة التي تستعمله وتوظف أساليبه، فكل طبقة تصوغ كلامها بحسب درجة معرفتها وحاجتها، ومدى استعدادها لتقبله والإمكانيات المتوفرة لديها لتحليله وفهمه بالقدر الذي يمكنها من تحقيق التواصل بين أفرادها، فالطبقتان تختلفان من حيث الكفاءة اللغوية والحاجة التواصلية، وإذا كان البيان مرتبطاً بالقول وبأسس إنتاجه يكون البيان دالاً على صناعة البيان، ف >> متى أطلق البيان على القول وحده الذي به التبيان، فصناعة البديع هي صناعة البيان، وعلم البيان فوقها. <<(2) في جانب آخر لهذا المصطلح يأتي لفظ البيان مقترناً بكلمة "علم" التي منحتة ديناميكية معنوية جديدة مخالفة لما عهدناه من دلالات له، وبداية يعرف ابن البناء العلم بأنه >> هو الذي يميز بين الكليات والجزئيات، ويميز بين جزئيات كلي وجزئيات كلي آخر، حتى لا يختلط شيء بشيء ولا يشتبه في العلم شيء مما يشتبه في الصناعة، ولذلك تتميز الحكمة من الشعر والجد من الهزل في

(1) المصدر السابق، ص88.

(2) المصدر نفسه، ص89.

(3) المصدر نفسه، ص88.

العلم وتتشرك في الصّناعة. <<(3) فالعلم عنده روح الحياة؛ لأنّ استكمال الإنسان لاعتقاداته وأعماله وأخلاقه إنّما هو بالعلم الذي يقسمه إلى ثلاثة أقسام حسب مراتب المدركات الإنسانية وهي: >> مرتبة الحسّ، ومنها العبارة بالأسان عمّا في الضمير، ومرتبة الفكر التّخيلي، ومنها ما يحصل في الفسّ بالفهم من مدلولات الألفاظ، ومرتبة العقل الروحي، ومنها المعقولات الثّابتة الدائمة، ومنها ما يستشرف على مشارف الأنوار الفائضة على الباطن من قبل الحق، التي هي مفتاح باب ارتباط الخلق بالحق، ومسالك الأسماء الحسن في العالم الثّابت بها في المراتب الزائلة، فكأنّ الثّانية مقصد، والثالثة مبدأ، والأولى لاحق. <<(1) فهناك المدركات الحسية، والمدركات التّخيلية، والمدركات الروحية، وإلى النوع الثّالث ينتمي علم البيان ذلك أنّ البيان هو >> شيء يفيضه الحق من عنده على الأذهان، ويشهد به العقل الصّريح لا باستفادة من إنسان، إنّما يحصل من المؤظنين التّنبية على العلم الذي علّمه الله خلقه، <<(2) فالبيان بهذا المفهوم هو موهبة وفطرة لا صنعة.

ومفهوم العلم عنده يسمو عن المفهوم العام المتعارف عليه؛ من معرفة لوازم الأشياء والإحاطة بقوانينها وضوابطها بل هو مراتب، وأعلى مراتبه مرتبة الإلهام وكذلك البيان الذي هو ملكة تتشأ مع الإنسان، وهو يتهيأ فطريّ فيه لاكتساب اللّغة وتعلّمها فهو وحي من عند الله إلى الإنسان، وبرهانه في ذلك قوله تعالى: ﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَطْمَهُ الْيَاقِينِ ﴾ (3). وهذا القول يوحي بأنّ البيان هو خصيصة أو ملكة تنمو هذه الملكة لتصبح مفهوما يشمل >> المهارات المختلفة التي يمتلك المبدع التّعبير فيها من دون سابق تعليم ومعرفة، ويقصد بذلك ملكة الإبداع والمهارة اللّغوية التي يفيض بها الحق على من يشاء من خلقه. <<(4)

(1) سعاد فريح، (المصطلح النّقدّي و البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص 37.

(2) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 88.

(3) سورة الرّحمن، الآية 02.

(4) سعاد فريح صالح الثّقفي، (المصطلح النّقدّي والبلاغي عند ابن البناء)، ص 37.

فملكة البيان هي بنية خلاقة تمكّن الإنسان من إبداع عدد لا متناهي من الأساليب الفنية والقدرات التأويلية لصناعة القول البليغ بكل ما يشمله من تنوعات خطابية، فتتلون عباراته بتلون الحال وبالتألي إمكانية التكيف مع كل مستجدات المحيط، ومن ثم فإن هذا العلم البياني هو علم كليّ شامل لكل فنون القول على اختلافها وتعددها.

ونظرا لتلك الخصائص الفريدة المتوفرة في علم البيان كان ابن البناء مضطرا للتفريق بينه وبين صناعة البيان؛ فيرى أنّ علم البيان أوسع وأشمل من صناعته التي تندرج تحته، ولهذا السبب لا يصحّ أن نطلق لفظ العلم على الصناعة لأنّ هناك بونا شاسعا بين المفهومين، وعلم البيان حسب مفهوم ابن البناء >> هو علم يشمل فنون القول المختلفة، وأنّه علم كليّ شموليّ تخدمه الصناعات المكتسبة المتمثلة في أساليب الظوم المختلفة، ومن ثمّ فهو يشمل سلتر أنواع الكلاية المشتركة لطرق الأداء في العلوم كلها. <<(1) ونفهم من هذا الحديث أنّ صناعة البيان تستمدّ وسائلها ومفاهيمها من العلم الشامل لكلّ التنوعات القولية والذي يعدّ بمثابة المادة الأولية لإنتاج مختلف أساليب الكلام، هذه الأخيرة التي تتباين بتباين الطاقات الإبداعية لكلّ متكلم.

ويتراءى لنا تفريقه بين المفهومين في مواضع عدة من كتابه، من ذلك عندما فرق بين صناعة البديع وعلم البيان، حيث جعل من علم البيان مستندا لصناعة البديع وصناعة البيان اللتان تعتمدان عليه في صياغة الفنون القولية: >> فصناعة البديع ترجع إلى صناعة القول ودلالاته على المعنى المقصود، ومستندها علم البيان... <<(2) وتعرض لذلك أيضا أثناء تحديده لمفهوم علم البيان، حيث إنّ >> علم البيان إنما هو من جهة وجه الدلالة والدليل فهو راجع إلى المعاني من حيث هي واضحة فيه، ومشاكلة الأمور من جهة حقائقها. <<(3) وهذا القول يوحي بمفهوم آخر للبيان خلاصته أن يكون الكلام واضحا ومطابقا للواقع، ومتى أخذ البيان هذا المفهوم المتعلق بسبل إنتاج القول كان مفهومه مطابقا لمفهوم صناعة البديع لاشتراكهما

(1) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، مقمّة المحقّق، ص30.

(2) المصدر نفسه، ص88.

(3) المصدر نفسه، ص88.

(4) المصدر نفسه، ص89.

في الوسيلة والهدف لأنه >متى أطلق البيان على القول وحده الذي به التبيان، فصناعة البديع هي صناعة البيان وعلم البيان فوقها، بإطلاق علم البيان على الصناعة غير سديد.<<(4)

وبالتالي فالعلم والصناعة غير متساويين لأن الأول أعلى منزلة وأقوى تأثيراً وأثبت من ناحية التغيير باعتباره هبة ربانية، على خلاف الصناعة التي هي مهارة مكتسبة معرضة للتغيير، كما أنها قد تحمد وقد تُنم، ثم إن حدود علم البيان غير محددة فهو لا ينحصر لأنه ملكة إبداعية كلبية قادرة على التوليد والخلق، وهي تتسم بالثبوت ولمكانية الوجود، أما الصناعة فليست إلا مجموعة من الأساليب والأدوات نهلتها من علم البيان،

ولهذا السبب كما يقول ابن البناء: >> علم البيان لا ينحصر لأنه يشمل سائر القواعد الكلية المشتركة لطرق الآداء في العلوم كلها، وأما صناعة البيان فقد تنحصر، وكذلك الصناعة البديعية فقد حصرها البلاغيون في أقسام وأنواع معينة، ووضعوا لتلك الأقسام والأنواع أسماء معلومة.<<(1)

يبرر ابن البناء توجهه التقسيمي هذا استناداً إلى قاعدة هامة في علم البيان، وهي >> أن المرجوح لا يؤثر في الراجح لاختلاف مرتبتيهما في القوة والضعف، والقوي يدفع الضعيف طبعاً وعقلاً، وكذلك الإمكان لا يقدر إنما يقدر وجود الممكن لا إمكانه فإن إمكانه عدم، والعدم لا يقدر في الموجود وكذلك سائر القواعد الكلية المشتركة لبيان جزئيات العلوم كلها هي من علم البيان.<<(2) يورد المراكشي من خلال هذا القول قاعدة كونية حاجية تتعلق بتدرج القوى وتأثيراتها من ناحية الوجود والعدم، والتغيير والثبوت والقوة والضعف، وهي قواعد علمية رياضية يعتمد عليها كثيراً في البرهنة، وسيتم أخذ منها مستنداً لتبرير سبب إخراجه للشعر والكلام التخيلي من دائرة أصناف المخاطبات الداخلة في باب الحق، ولذلك دعا إلى وجوب

(1) المصدر السابق، مقامة المحقق، ص 30.

(2) المصدر نفسه، ص 89.

الصدق في الكلام لأنّ الصدق لا يكون إلا مع الواقع والواقع هو الموجود، أما الشّعْر فهو كلام كاذب ومن ثمّ فهو مجرد تخيلات وأوهام، والخيال أمر غير واقعي لا يمكن حصوله، حدّي وإن أمكن وجوده فقد يقع وقد لا يقع، وبالتالي فهو في حَسْبَةِ غير الموجود، والموجود هو طاقة فعّالة تدفع غير الموجود ليزوب ويندثر لأنها أقوى من ناحية واقعيّتها، وكذلك من ناحية تثبوت والتغيّر فالشيء الثابت هو ركيّزة متّحدة الصّفات ضامنة لإمكانية التّواجد الدائم، أما المتغيّر فهو عنصر متذبذب قد يواصل مسيرته العملية وقد لا يفعل ذلك وفي هذه الحال يكون عرضة للزوال.

استنادا إلى هذه القواعد الرياضيّة المنطقيّة منح ابن البّناء لعلم البيان صفات الكليّة والملكة والإبداعية ليثبت ديمومته وقدرته التّأثيرية في ذات المتحدّث ومحيطه مهما كانت خصائصه، وإلى جانب العلم يستند ابن البّناء دوماً إلى اللّين الذي يشهد له فيه قوله تعالى: ﴿وَمَا عَظَمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَطَمَكُمُ اللَّهُ﴾⁽¹⁾.

نشير هنا إلى أنّ حديث ابن البّناء عن الملكة البيانية يتضمّن فطنة ونباهة >> لجانب له أهميّة كبيرة في مجال الرّاسات القديّة والبلاغيّة، وحدّي اللّسانية - خاصّة مجال التّعليمية واللّسانيات التّطبيقيّة - والممارسات الأدبيّة الجيدة، <<⁽²⁾ والتي تدخل ضمن المجال التّواصلي >> وهو جانب الموهبة والاستعداد الفطري في الأديب ليكون بليغا. <<⁽³⁾ وعليه فلكي يكون المتكلّم بليغا قادرا على الصّناعة والإنتاج الخطابي لا بدّ أن يتوفّر لديه تهيّأ فطري أو استعداد ملكي للكلام ، ذلك أنّ >> الكلام ممّا يتعزّر حصوله بالصدفة والاتّفاق، فليس يجوز في الوجود أن يحصل من الجاهل الموضعة اللّغوية خطاب يستجيب لنواميسها ويتشكّل بأشكال أبنيتها، ولعلّ هذا ممّا يمكن أن يستغلّ في تدعيم وجهة النّظر القائلة بتواجد الطّاقة التّوليديّة

(1) سورة المائدة، الآية 5.

(2) ابن البّناء المراكشي، الرّوض المربع في صناعة البديع، مقّمة المحقّق، ص30.

(3) المصدر نفسه، ص30.

(4) عبد السّلام المسّني، التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، ص291.

لدى الإنسان بالفطرة والطبع. ولن الاكتساب إنما هو خلق المناخ الذي تتقدح فيه شرارة التوليد اللغوي بعد استرساخ أنماط المواضعة المخصوصة. <<(4)

والقول السابق يسير في الاتجاه ذاته الذي رسمه ابن البناء لمدلول البيان؛ فالإنسان يولد وهو يحمل في ذاته استعدادا فطريا لتقلب ما يجده في محيطه من معارف، ويملك في الآن ذاته آلية خاصة تمكنه من تطوير معارفه عن طريق الممارسة والتفاعل مع محيطه، وبالتعلم ينمي تلك الملكة وينشطها في إبداع وتوليد البنيات اللغوية، وهو عمل يتشارك فيه مع أفراد المجتمع، ثم إن الكلام لو كان من نتائج المصادفة والمواضعة لوحدها لتعذر الاحتكام إليه. كما أن وجود مثل هذه الطاقة التوليدية لدى الفرد هو ما يسمح له بخلق روابط تواصلية مع ذاته ومجتمعه ومع الحدث اللغوي الذي ينتجه، ولعل ما يثبت صحة ذلك هو قدرة الفرد على التكيف مع الآخرين، وإمكانية تعلمه للغات متعددة، ومن هنا ف >> علاقة المتكلم بنواميس الظاهرة اللغوية علاقة مفتوحة لا متناهية بالقوة، ولذلك يتسنى الجزم بأن طاقة التوليد الكلامي لدى الإنسان هي صورة للروابط الفاعلة بينه وبين الحدث اللساني، ... والفرد الواحد له من الوجهة النظرية على الأقل استعداد مبدئي لتعلم لغات متعددة تمكنه من ممارسة مواضعات كثيرة في نفس الوقت... <<(1)

وباستثمار المعطيات السابقة نخلص إلى أن البيان بوصفه ملكة أو استعداد فطري أو موهبة إلهية يكون رابطا متينا من جهتين؛ من جهة البيان والوضوح، ومن جهة التهيأ الفطري، فيه يتمكن الإنسان من التعبير عن ذاته والتواصل مع غيره، بتوصيل تعبيراته إلى عالمه في منحى تبادلي فيتأثر ويؤثر، ولن يكون للإنسان مقاصد أكثر من ذلك؛ أي أكثر من الفهم والإفهام والتواصل على أبعاد نطاقاته وتلك أبعاد تداولية بحتة، ذلك أن امتلاك الشخص للبيان

(1) المرجع السابق، ص 291 - 230.

يمكنه من الإبانة عن مقاصده والتعبير عنها بثقة لغوية نابغة من فهم عميق لما يختلج الذات، ولما يحصل في المحيط. وبهذا فالبيان هو الرابط الأولي الذي يسمح للفرد بالتواصل مع غيره ومع كل ما يحيط به، يمكنه من إدراك العالم ومفهمته وفق رؤيته الخاصة ثم نقل ذلك إلى غيره، ومتى امتلك الفرد هذه الملكة وطورها ونشطها ازدادت قدرته على الإبداع والتأويل لابتكار الأنماط القولية والأساليب اللغوية اللازمة لصياغة رؤى خاصة عن عالمه الذاتي والخارجي، وعليه فالبيان ما هو إلا >> تلك الملكة التي خلق الله عليها الإنسان كائنا قادرا على التعبير عما في نفسه والتأثير فيمن حوله من بني جلدته.<<⁽¹⁾ ومتى توفرت ثنائية (تعبير / تأثير) كان الإنسان أكثر توصالا مع نفسه ومع غيره.

3/ مفهوم البلاغة و الفصاحة:

البلاغة والفصاحة هما محور صناعة البديع واليهما مرجع أبحاثه، و>> الغاية التي يقف عندها المتكلم والكاتب والضالة التي ينشدانها، وما عقد أئمة البيان الفصول ولا بوبوا الأبواب إلا بغية أن يوقفوا الطالب أو المسترشد على تحقيقات وملاحظات وضوابط إذا روعيت في خطابه بلغ الحد المطلوب من سهولة الفهم وإيجاد الأثر المقصود في نفس السامع، واتصفت من ثم بصفة الفصاحة والبلاغة.<<⁽²⁾ ومن هذا المنطلق تعدّ الفصاحة والبلاغة هما العلامة الدالة على فكر المتكلم في أرقى صورة، ولذلك حرص البلاغيون على أن تظهر هذه الصورة متناسقة الأجزاء تركيبيا ودلالة، متناسبة مع حال السامع ومقامه، ذلك لأن غاية اللغة التي هي مادة الفصاحة والبلاغة >> التفاهم، فنحن نتكلم أو نكتب لبيان أفكارنا وإيصالها إلى فهم السامع أو القارئ...<<⁽³⁾

وكغيره من البلاغيين حرص ابن البناء على توضيح هذين المفهومين بكل ما يشملانه من جوانب لسانية؛ فقد >> أعطى لكل من الفصاحة والبلاغة مفهوما محددا، وفرق بينهما وبين البديع مما يدل على استقلالية فكره في التحديد الذي ربما لم يتفق فيه مع غيره من علماء

(1) أحمد مطلوب، البلاغة و التطبيق، ص225.

(2) جبر ضومط، الخواطر الحسان في المعاني و البيان، مطبعة الهلال، دط، 1896م، ص9.

(3) المرجع نفسه، ص9.

مدرسته،⁽¹⁾ فحازم القرطاجني مثلاً لا يُعطي للبلاغة تعريفاً محدداً، بل أورد هذا المصطلح مقترناً بكلمة علم قائلاً: >> إن علم البلاغة يشتمل على صناعتي الشعر والبلاغة.<<⁽²⁾ ثم إن مصطلحي الفصاحة والبلاغة إلى جانب ما تقدم من مصطلحات يشكّلان ركيزة أساسية في المشروع النقدي البلاغي للكوشي، ووفقهما تتحدد رؤيته اللسانية التداولية، إذ إنهما يعكسان وبشكل كبير مفهوم التواصل عند المحدثين؛ فإذا كانت التداولية تركز على الكفاءتين التواصلية والإنتاجية فإن هاتين الكفاءتين لطالما كانتا محل اهتمام لدى البلاغيين العرب الذين اهتموا بالكفاءة اللغوية مقترنة بالكفاءة الأدائية أو التواصلية فيما يسمّى بالفصاحة والبلاغة.

ووجود مثل هذه الخصائص يوجب الإشارة إلى أن البلاغة والفصاحة لم يكونا بحثاً جمالياً فقط، فنحن نجحف >> ونخطئ حين نعتبر البلاغة جمالية للغة فقط، وإنما هي فلسفة التفكير وثقافة المجتمع وأسلوبية الحوار، <<⁽³⁾ وهذا الرأي يؤكده بارت بقوله: >> فلفظ البلاغة يمتلك دلالة مزدوجة، فهي أداة محاجة ووسيلة تفكير وتقنية للإقناع، إضافة إلى كونها فن القول وجودة الحديث.<<⁽⁴⁾ ولعلّ هذا ما يجعل منهما مبحثين مهمين يعالجان قضايا لسانية ذات أثر بالغ في تحديد العلاقة القائمة بين المتحاورين وأسس نجاحها، ومن هذه الزاوية نجد البلاغة اليوم في ارتباط وثيق بالتداولية،⁽⁵⁾ ووفقاً لهذا المنظور يتجلى مفهوم البلاغة والفصاحة عند ابن البناء.

أ - مفهوم البلاغة:

لقد حدّد ابن البناء البلاغة تحديداً دالاً دقيقاً، يعكس معرفته البلاغية النقدية وذهنيته العلمية، وهو في تحديده يميل إلى اللغة الطبيعية التي تتسم بالجمال الفني والتركيب المتناسق

(1) سعاد فريخ صالح الثّقفي، (لمصطلح النّقدي و البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص36.

(2) المرجع نفسه، ص36.

(3) يوسف تغزوي التقنيات البلاغية في التواصل اللساني و أبعادها التداولية، ص2.

(4) رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، تجر عمر أوكان، إفريقيا الشرق، دط، 1994م، ص6.

(5) يوسف تغزوي التقنيات البلاغية في التواصل اللساني و أبعادها التداولية، ص2.

الدال بحيث يسهل من خلاله تواصل المبدع مع متلقّيه، وقد عرفها بقوله: >> البلاغة هي أن يعو عن المعنى المطلوب عبارة يسهل بها حصوله في النفس متمكنا من الغرض المقصود.<<(1) وهذا تعريف دقيق موجز لا يجترّ تعاريف السّابقين بألفاظهم ، وأما ينبع من فطنة ودقّة إحساس بأحوال الخطاب ولمتكلم والمخاطب جميعا.(2)

فالبلاغة إذن تمثّل جسرا بناءً توصليا بين ذات المتكلم وذات المستمع، حيث ينطلق المتكلم من ذاته حاملا مقاصده ليصل إلى نفس مستمعه فيبث تلك المقاصد ويمكّنها فيها، ويجب أن يتم ذلك كلاًه بسهولة ورشاقة وسلاسة كلامية لا يشعر معها المستمع بذلك الانتقال، ونشير إلى أن السهولة المطلوبة هنا لا يقصد بها الألفظ أو التركيب المبتذل، بل إن هذا المصطلح يوحي لنا بدعوة ابن البناء إلى وجوب الابتعاد عن الغموض والتعقيد الذي من شأنه أن يكون سببا في تعطيل عملية تبليغ المقاصد، وهذا الحديث يعتبر النقطة المهمة من المراكشي تنبئ عن وعيه اللساني بما يمكن أن ينتج عن البلاغة إن التزم المتكلم بشروطها من فهم وإفهام، ثم إن هذين الأخيرين يشكّلان أساسا متينا ودليلا ملموسا على نجاح عملية المحادثة بين المتحاورين.

وحديث ابن البناء هذا يتفق مع ما ذهب إليه غرايس في تحديده لفائدة التّواصل، فحسبه حين نتصل بالناس نفلح في توليد فهم لديهم، يجعلهم يتعرفون على قصدنا في توليد ذلك الفهم،(3) وهو غير بعيد أيضا عما دعا إليه قبل ذلك بشر بن المعتمر في صحيفته، حيث نصح المتكلم قائلا: >>إياك والتّوعو، فإنّ التّوعو يسلمك إلى التّعقيد والتّعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك.<<(4)

إنّ التّعبير عن المعنى المطلوب الذي تدعو له البلاغة يتطلّب من المتكلم امتلاك عدد من الكفاءات؛ لعلّ أهمها الكفاءة الإنتاجية التي تمكّنه من التّحكّم في معانيه وانتقاء ألفاظه لصياغة التراكيب الملائمة، وتعضد هذه الكفاءة كفاءة التّبليغ أو الأداء لتمكين المعنى في

(1) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 87.

(2) المصدر نفسه، ص 87.

(3) سليم حمدان، أشكال التّواصل في التّراث البلاغي العربي، ص 16.

(4) عيد بليغ، >التّداولية البعد الثّالث في سيميوطيقا موريس<<، ص 330.

ذات المستمع، وبناء على ذلك يذهب ابن البنّاء في خاتمة كتابه إلى تحديد الشّروط والتّقنيات الّغلي الّتي إذا توخّأها المتكلّم في خطابه بلغ مرتبة الإجابة، فحقّق أغراضه ومقاصده، وقد عبّر عن ذلك قائلاً: >> واعلم أنّ المحمود في جميع أساليب البلاغة إنّما هو ما لا يظهر فيه التّكلف ولا يكون مطلوباً بالتّعسف، وعليه رونق الفصاحة وطلاوة البديع، وما كان من الكلام مضرّس الألفاظ مجتمعة الأجزاء، غير مسجوع مختتم الأواخر بحروف متباينة فهو خارج عن البديع لاحق بكلام العوام. <<(1) من الواضح أنّ هذه العناصر الّتي دعا ابن البنّاء إلى ضرورة توفّرها في الخطاب البديع أو الشّريف >> تشكّل مجالات مشتركة بين البلاغة العربية واللّسانيات التّداولية بمختلف جوانب دراستها للمعنى، كما أنّها تحمل الكثير من القيم التّداولية في دراسة اللّغة، <<(2) فهذه الأخيرة تعنى كذلك >> بالشّروط اللّازمة لكي تكون الأقوال اللّغوية مقبولة وناجحة وملائمة في الموقف التّواصلي الّذي يتحدّث فيه المتكلّم. <<(3) فمبدأ الوضوح الّذي اعتمد عليه ابن البنّاء في تحديد مصطلح البلاغة هو مبدأ تداولي يظهر فيما أطلق عليه جريس مبدأ الطّريقة؛ حيث ينصّ هذا المبدأ على >> وجوب الاحتراز من الخفاء في التّعبير، والاشتباه في اللفظ وعلى ترتيب الكلام. <<(4)

إضافة إلى اهتمام ابن البنّاء بصحة اللّغة وصوابها من حيث مستوياتها، وسلامة الألفاظ من العيوب، وتشديده على وجوب توفّر الإنسجام بين المعاني والتّراكيب الموظّفة في

الخطاب، نجد أنّ المراكشي يعتبر أنّ البليغ من الناس هو الّذي يصوغ كلامه حسب مقتضيات الأحوال وحسب مقامات الحديث، وحسب ما تفكّر به ذاته وما تتطلّبه ذات مستمعه، فيقصد إلى الإيجاز أو المساواة أو الإطناب. فهناك عدّة تعابير تتجلّى في تأدية

- (1) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص173.
- (2) خليفة أبو جادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، ص717.
- (3) أم الخير السلفاوي، (البعد التّداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسكاكي)، ص168.
- (4) طه عبد الرّحمان، أصول الحوار في تجديد علم الكلام، ص104.

المعنى المراد بلفظ أو ألفاظ مساوية لهذه المعاني، أو ناقصة عنها وافية، أو زائدة عنها لفائدة، وقد يسلك طريقاً وسطاً بين ذلك هو طريق المساواة وكلّ حسب مقتضيات الأحوال والمقامات؛ >> فليس كلّ أحد من الناس يسهل عليه الوجيز، ولا كلّهم لا يفهم إلا من البسيط. <<(1)

ومبدأ المطابقة هذا والذي يتطلب >> معرفة أقدار السامعين ومراعاة ذلك أثناء التّلفّظ بالخطاب، <<(2) هو مبدأ تداولي مهم من مبادئ التّعاون الجرايسية، وهو مبدأ المناسبة الذي يقضي بضرورة مناسبة الحديث للسياق الوارد فيه(3)، فالمتكلّم عموماً يجب أن تتوفر لديه >> القدرة على صياغة كلامه في مستوى فهم السامع، وثقافته، ومرتبته الاجتماعية، وذلك لأنّ الناس من هذه الوجهة في درجات متباينة. <<(4)

يبدو ابن البناء من خلال قوله السّابق حريصاً على بناء علاقة وطيدة بين المتحاورين، وباهتمامه هذا كان قد نصّب لنفسه مقاما تداولياً يتبلور في حرصه على الفعالية اللّغوية والتّأثيرات المختلفة لها في نفس السّامع، ممّا يجعله يلتقي مع المباحث التّداولية في الاعتماد على اللّغة كفعل إجرائي يمارسه المتكلّم على السّامع في سياقات مخصوصة، ولذلك نجد من المحدثين من يسوّي بين البلاغة والتّداولية انطلاقاً من اعتمادهما المشترك على اللّغة، ومن بين هؤلاء نجد جيفري ليتش الذي يرى أنّ >> البلاغة تداولية في صميمها، إذ أنّها ممارسة الاتّصال بين المتكلّم والسّامع بحيث يحلّان إشكالية علاقتهما، مستخدمين وسائل محدّدة لتأثير على بعضهما. <<(5)

وحاصل النّظر فيما سبق أنّ ابن البناء كان حريصاً على توفّر الشّروط الملائمة لتحقيق عمل إبلاغي ناجح بين المتكلّم والمستمع، فاهتمّ بعملية التّلفّظ وبكلّ العوامل المتحكّمة

(1) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 87.

(2) أم الخير السّلفاوي، (البعد التّداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسّكاكي)، ص 168.

(3) المرجع نفسه، ص 168.

(4) المرجع نفسه، ص 169.

(5) صلاح فضل، بلاغة الخطاب وعلم النّص، عالم المعرفة، الكويت، 1992، ص 97.

فيها، فالبلاغة عنده >> هي ملكة البيان وقوة النفس على حسن التعبير بما تريد من المعنى، لتبلغ من مخاطبتها ما تريد من أثر في وجدانه، يميل به إلى الرغبة فيما رغب عنه، أو الفرة مما كان يميل إليه، أو تمكين ميل إلى مرغوب أو تقرير نفرة من مكروه، أو تحويل في الاعتقاد وذوق النفس لما تسمعه، أو وجوه النقد فيما يلقي إليها. <<(1) وهذه الاهتمامات ما هي إلا رؤى لسانية تداولية تعكس اتساعا معرفيا للنقاد والمدونة البلاغية العربية، ذلك أن البلاغة والتداولية >> علمان يتفقان في دراسة الوسائل اللغوية التي يستعملها المتكلم في عملية التواصل وعوامل المقام المؤثرة في اختياره أدوات معينة دون أخرى للتعبير عن قصده، كالعلاقة بين الكلام وسياق الحال، وأثر العلاقة بين المتكلم والمخاطب على الكلم والمقاصد من الكلام. <<(2)

ب- مفهوم الفصاحة:

- الفصاحة في اللغة هي البيان والوضوح، وقد استعملها علماء البلاغة بمعنى البلاغة والبيان، ومنهم ابن سلام (ت231هـ)، والجاحظ (ت255هـ) في كتابه البيان والتبيين، وابن قتيبة الذي تحدث عن الفصاحة دون أن يذكرها بلفظها في كتابه الشعر والشعراء، ثم عاد فذكرها في كتابه أدب الكاتب. (3)

كما وردت الفصاحة أيضا بمفهومها المرادف للبلاغة عند قدامة بن جعفر (ت337هـ) في معرض حديثه عن نعت اللفظ الحسن، وهي بذلك مناقضة للفظ الشناعة؛ لأنها تعني خلو

(1) رجاء عيد، فلسفة البلاغة بين التقنية و التطور، منشأة المعارف، الأسكندرية، ط1، دت، ص21.

(2) أم الخير سلفاوي، (البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسكاكي)، ص169.

(3) محمد عزّام، المصطلح النقدي في التراث العربي، ص277.

اللفظ المفرد من تنافر الحروف والغرابة ومخالفة القياس، وخلو الكلام من ضعف التأليف والتعقيد، وهي صفات الفصاحة التي استقرت مصطلحا واضحا بعد قدامة⁽¹⁾ ومع مجيء أبو هلال العسكري (ت395هـ) اتخذ مصطلح الفصاحة منحى مغايرا، حيث استقل على يديه عن مصطلح البلاغة، وقد عرفها >> بأنها الإبانة عما في النفس، وأنها مقصورة على اللفظ في حين أن البلاغة مقصورة على المعنى.<<⁽²⁾ وقد استمرت الفصاحة بهذا المعنى إلى غاية القرنين السادس والسابع، حيث انتهى البلاغيون إلى وضع شروط لفصاحة اللفظة، وهي شروط لم تخرج في مجملها عما كان سائدا قبل ذلك، وقد تمثلت هذه الشروط في:

- خلو حروفها من التنافر.

- أن تكون معتدلة الوزن.

- وأن تكون متوالية الحركات، وعربية أصيلة، وحلوة مألوفة.⁽³⁾

في حين ضبطوا شروط فصاحة الكلام على النحو الآتي:

- سلامة مفرداته مما يبهّم معناه؛ وذلك بخلوه من تنافر الكلمات ومن ضعف التأليف، ومن التعقيد اللفظي أو المعنوي، ومن كثرة التكرار ومن تتابع الإضافات.⁽⁴⁾

وحدّوا فصاحة المتكلم بأنها >>الملكة التي يقتدر بها صاحبها على التعبير عن المقصود بكلام فصيح في أيّ غرض كان.<<⁽⁵⁾

وإذا ما تتبعنا دلالة هذا المصطلح في المشروع البلاغي عند ابن البناء، نجد أن مصطلح

(1) المرجع السابق، ص277.

(2) المرجع نفسه، ص277.

(3) المرجع نفسه، ص277 - 278.

(4) المرجع نفسه، ص278.

(5) المرجع نفسه، ص278.

الفصاحة يرتبط بإبانة اللفظ عن المعنى بموافقته له و مطابقته، ولقد حددها ابن البناء

بقوله: >> والفصاحة أن يكون اللفظ مشاكلا للمعنى، فإن من الألفاظ ما تكون سهلة المخارج على الناطق بها وتدّل على معناها بسرعة لكثرة استعمالها، فإذا اجتمع على الكلام أن يكون لفظه فصيحاً لسهولة مخارجه، وعذوبته في السمع، وسهولة تصوّر معناه وحسن مبانيه بالمشكلة العقلية والنظام الطبيعي واتّسع الفهم في لوازمه، فهو العالي الدرجة، الرفيع المنزلة النّهية في الطبقات الشريفة، ولذلك احتيج إلى معرفة الكلام وطبقاته.<<(1) ويمكن إجمال شروط الفصاحة عند ابن البناء فيما يلي:

- مشاكلة اللفظ للمعنى.
- سهولة مخارج الألفاظ.
- عذوبتها في السمع.
- وضوح دلالتها على المعنى.
- التماسك التركيبي والإنسجام الدلالي.
- اختيار المألوف من الألفاظ والمستعمل منها.

فقد تنبّه ابن البناء إلى ضرورة التلاؤم والانسجام بين اللفظ والمعنى، وإذا تحقّق تشاكلهما في بناء سليم منتظم لا تعقيد فيه ولا خلل بحيث كلّما دلّت عليه لوازمه اتّسع مدلول العبارة وسهل على المستمع إدراكها، وهذا ما يُعَلِي من مراتب الخطاب وبلوغ أعلاها وهي مرتبة الكلام البديع أو المتناهي في الحسن.

والى جانب فصاحة اللفظ اشترط ابن البناء في الكلام موافقته للنظام العقلي؛ ويقصد به >> حال المعاني مع المتكلم كيف تناسقت واستقامت بنيتها في الذهن قبل أن يلبسها ثوبها من الصياغة و الألفاظ.<<(2) أي حسن تركيب الألفاظ والمعاني في الذهن عندما يكون الكلام بنية مجردة، ثم إن حسن التركيب الذهني يجب أن يتبعه شرط آخر وهو موافقة النظام

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص 87.

(2) عبد السلام المسني، التفكير اللساني في الحضارة العربية، ص 230.

الطَّبِيعِي، فالتَّرْكِيْبُ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ جَارِيَا فِي الاسْتِعْمَالِ قَابِلًا لِلتَّوَادُلِ بِمُؤَافَقَتِهِ لِلْعَرَفِ اللَّغَوِيِّ فَلَا يَكُونُ نَادِرًا غَرِيبًا عَلَى الْأَسْمَاعِ.

وبهذا يكون ابن البنّاء تحث عن الفصاحة اللفظية والتي يُقصد بها >> جريان الكلمة وفق العرف اللغوي، سليمة من التنافر غير مستتقلة. <<(1)

كما تحث المراكشي عن الفصاحة المعنوية؛ وقد قصد بها >> البعد عن الغرابة والخلوص من التعقيد في طرح المعاني، <<(2) وذلك ليتمكن المستمع من إدراكها بسهولة لأن الغرابة والتعقيد ينهيان المتكلم إلى الغموض، والغموض يحجب عن المستمع مقاصد الإرسال، مما يؤدي إلى الإخلال بالعملية الإبلاغية، ولذلك نبه ابن البنّاء إلى ضرورة احترام منزلة المستمع ومعرفة الطبقات الكلامية، فكل مستمع طبقة كلامية تناسب حاله. ونشير إلى أن مصطلح السهولة عند ابن البنّاء لا يقصد به الابتذال بل يقصد به اللفظ المتمنع الذي يوحي لك بأنه قريب المأخذ، سهل التناول، ولكن بمجرد الاقتراب منه يعزّ مطلبه ويتمنع معناه، فيجعلك تلاحقه حتى تحصل عليه لفخامة معناه، وبذلك يكون اللفظ السهل >> أمتع جانبا، وأعزّ مطلبا، وأحسن موقعا وأعذب مسمعا. <<(3)

فالفصاحة إلى جانب البلاغة تسمح بخلق معادلة متساوية الأطراف بين المتكلم والمستمع، بحيث تكون صورة التركيب التي تشكلت في ذهن المتكلم هي نفس الصورة التي ارتسمت في نفس المستمع أثناء التواصل، ذلك لأن >> الخطاب اللغوي لا يدرك غايته في الإبلاغ وربط التواصل بين الباطن والمنقول إلا إذا ترتبت دلالاته في نفس السامع طبقا لنفس ترتبها في ذهن المتكلم. <<(4)

إن شرط الملاءمة الذي وضعه ابن البنّاء يفرض وجود رقابة كلامية تتضح قوانينها في وجوب اختيار اللفظ والمعنى المتناسقين، وكذا الموافقة الخارجية والموافقة الداخلية؛ الأولى

(1) محمّد عزّام، المصطلح النقدي في التراث العربي، ص 278.

(2) المرجع نفسه، ص 278.

(3) العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، الصّانعتين، ص 44.

(4) عبد السلام المسّي، التّفكير اللّساني في الحضارة العربية، ص 231.

بين الألفاظ والثانية بين المعاني، ثم موافقة كل ذلك لحال المستمع والمقاصد المتوخاة من ذلك، فنقوى وترتفع لقوة المقصد وسمو المستمع، وتتواضع لتواضع المقصد وطبقة المستمع، والموازنة في كل مرة بين أطراف الحديث؛ فإذا كان المعنى غريبا كانت الألفاظ بسيطة حتى يسهل على المستمع تلقيها وإدراكها، وإذا كانت الألفاظ غريبة كان المعنى قريبا بسيطا، كي لا ينفر المستمع من الحديث ويتعب فكره في التّقيب دون فائدة تطل، ولهذا السّبب يرى ابن البناء أنّ المتكلم المبدع هو >> الذي يتخوّر لمعانيه ما يناسبها من الألفاظ، وبهذا يحقق لعمله الفني تكامل الامتاع والتأثير.<<⁽¹⁾ وهذا من أسمى الغايات التداولية، وهو ما يجعل من الفصاحة التي تهدف إلى وضع الشروط اللازمة لبناء الكلام وبيان كل المقاصد التي يهدف إليها إلى تحقيقها تقف على قدم المساواة مع التداولية، التي تدرس بدورها تفاعل الاتصالي بين المخاطب والمخاطب، وما يحدثه الفعل الكلامي من تأثير.

ثم إن إشارة ابن البناء إلى ضرورة تجنب الالتباس والتّعقيد في المركبات اللغوية هو تحقيق لمبدأ التّواصل الذي يركّز بدوره على سهولة الفهم وتبليغ المقاصد، >> فالالتباس ممنوع أبدا لمنافاته القصد من وضع اللغة،<<⁽²⁾ ولذلك شدّد ابن البناء في خاتمة كتابه على >> ضرورة تجنب التّكلف والتّعسف في العبارة، والتزام الكلام الذي عليه رونق الفصاحة وطلاوة البديع، واستعمال اللفظ المألوف، ومخاطبة الناس على أقدارهم لأنّه السبيل الهادي إلى صناعة القول البليغ البديع.<<⁽³⁾ كما أنّ سهولة الفهم التي تحدت عنها ابن البناء تترجم مبدأ تداوليا مهمّا، ذلك أنّ >> سهولة الفهم شرط ضروري، كما أنّه غاية اللغة، ومطلب من مطالبها المقصودة بالذات، وهو دليل على ارتقائها وارتقاء أهلها، وآلا فالتّفاهم المطلق قد يحصل بالإشارات والأصوات الطّبيعية إلا أنّ مثل هذا التّفاهم لا يطلق عليه اسم لغة إلا على سبيل التّجوّز والتّسامح كقولنا لغة الحيوان...<<⁽⁴⁾

(1) محمّد عزّام، المصطلح النّقدي في التّراث الأدبي العربي، ص 11.

(2) جبر ضومط، الخواطر الحسان في المعاني و البيان، ص 19.

(3) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 173 - 174.

(4) جبر ضومط، الخواطر الحسان في المعاني و البيان، ص 19.

المبحث الثاني: المنهج التّداولي ووظائفه في صناعة البديع:

إذا كانت اللّسانيات الغربية في فترات محدّدة من دراساتها قد أهملت الوظائف التي يمكن أن تؤديها البنية اللّغوية في سياقات استعمالها، وفي علاقاتها الداخليّة والخارجيّة، ولم تتدارك ذلك إلا في عصورها اللاحقة، فإنّ البلاغة العربيّة لطالما وجّهت اهتمامها لمثل هذه الغايات، وهو ما يمكن أن نتبيّه من خلال النموذج البلاغي لابن البناء المراكشي كواحد من النّماذج البلاغيّة التي لم تهمل أهمية البنية اللّغوية في خلق نسيج تفاعلي تواصلّي بين المتحدّثين؛ فقد ألح المراكشي على ضرورة توافر نواتج معيّنة تبرز بحق فعالية الخطاب ليستحقّ التّواجد في مصاف القول البديع، وهذا ما يجعل المفاهيم المقيّمة في مجال صناعة البديع باعتباره مجالا بلاغيا نقديا مفهوما ثريا يكشف عن رؤية نافذة ومعرفة عميقة بالأنساق اللّغوية على مختلف المستويات من النّاحية الطّرية والتّطبيقية.

ومستند حديثنا الأوّلي ثقافة ابن البناء الواسعة التي تتصهر فيها معارف شتى؛ رياضية ومنطقية فلسفية، ونحوية دينية، وبلاغية نقدية، ووعيه بأنّ صناعة البديع كمشروع لصناعة الخطاب النّاجع لا يمكن أن تحقّق فعاليتها على الصّعيد الإنجازي ما لم تسهم في تحقيق وظائف متعدّدة منها ما هو تداولي ومنها ما هو فوق تداولي.

فالمتمألّى لمفهوم صناعة البديع عند ابن البناء يجده يتّسم بأبعاد لا تتحصر في الثنائيّة التّعليمية الجمالية فقط، بل هو مفهوم متشعب الأبعاد والمعاني باعتباره مفهوما بلاغيا فإنّه يسعى إلى إنجاز وظائف عديدة منها؛ الوظيفة التّواصلية التي تهدف إلى الإبلاغ، والوظيفة الإخباريّة المعرفيّة التّعلّمية أي إظهار الأمر على وجه الإخبار قصد الإفهام، والوظيفة التّأثيريّة بتقديم الأمر على وجه الاستمالة وجلب القلوب، ويندرج تحت هذه الأخيرة الوظيفة الإقناعية وهي بحسب المسّدي >> استعمال منطقي لساني بهدف الإقناع.<<⁽¹⁾

والإقناع يكون إقناعا عقليا حجاجيا أو إقناعا عاطفيا وهو ما يحقّق الغايات ما فوق تداولية.

(1) عبد السلام المسّدي، التّفكير اللّساني في الحضارة العربيّة، ص 231.

ويقصد بالوظائف التداولية الجانب الوظيفي الذي يشمل اللّغة بوصفها نشاطا فعليا في واقع استعمالها؛ أي >> الأداء الفعلي للغة أي اللّغة في واقع استعمالها. <<(1) ومن هذه الوظائف نجد:

1- الوظيفة التعليمية:

ويمكن أن نطلق عليها مصطلح الفعية، ويقصد بها >> البحث عن أيسر السبل التعليمية ليقمّا بها القواعد الرائدة التي تيسر معها الأخذ بزمام البلاغة، فلا تبقى قواعدها جافة ولكنها تندمج مع البيان العربي وتكون سبيلا إلى فهم القرآن والسنة. <<(2) ولهذا نرى بعض العلماء يوحون في مؤلفاتهم بهذه الغاية ويجعلونها مقصدا واضحا في كتبهم، ولقد كان ابن البناء واحدا من أولئك العلماء، فالبلاغة في نظره نشأت لهدف أسمى هو إدراك إعجاز القرآن وفهم معناه ومغزاه، وبالتالي لا يجب أن تكون البلاغة غاية مجردة لذاتها بل وسيلة لتحقيق منفعة أكبر، ولكي تتحقق هذه المنفعة تتجه صناعة البديع إلى تبسيط الصور البلاغية وتقريبها إلى الأذهان باختصار ومن غير إخلال، وقد أبان ابن البناء عن غرضه الفعي ذلك قائلا: >>فغرضي أن أقرب في هذا الكتاب من أصول صناعة البديع، ومن أساليبها البلاغية ووجوه التّفريع، تقريبا غير مغل وتأليفا غير ممل، يصغر جرمه ويكثر علمه... <<(3) يرى ابن البناء أن تبسيط هذه الصور البلاغية يسمح باستغلالها في فهم القرآن الكريم والسنة الشريفة، ثم في تدقيق أساليب الخطاب المتنوعة، ويؤكد ذلك قوله: >> ومنفعته في زيادة المنّة، وفهم الكتاب والسنة، فليجعله الأريب من أربه، والله تعالى هو المسؤول أن ينفع به إنه منعم كريم... <<(4) ويريد بالمنّة في قوله هذا قدرة الإنسان على حسن فهم الأدب وتدقيقه، و فهم كتاب الله وسنة رسوله، وهي نعمة أدبية لا تعادلها نعمة أخرى، وذلك لا يقتصر على

(1) خليفة أبو جادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، ص 721.

(2) محمد بن عبد العزيز الدباغ، >>الروض المريع في صناعة البديع من روائع مخطوطات خزانة القرويين<<، مجلة دعوة الحق، ع 244، يناير 1985م، ص 2.

(3) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص 69.

(4) المصدر نفسه، ص 69.

الخطاب الديني فقط بل إن ما يقّمه هو وسيلة لفهم الخطابات بجميع أنواعها، وقد قرّر ذلك في خاتمة مؤلفه قائلاً: >وبهذا الذي ذكرناه في هذا الكتاب يعرف التفاضل في البلاغة والفصاحة، وهو قدر كاف في فهم ذلك في كتاب الله وسنة نبيه وفي المخاطبات كلّها.<(1)

وهذا المنحى الفعي الواقع في الدراسة لا يبلغ ذروته إلا في المنهج التداولي الذي جاءت به اللسانيات الحديثة، فلأدب ثمره، وللغة هدف، وللبيان قصد ومهمة، وكلما شرفت الغاية شرفت الوسيلة، فتكون الغاية الأسمى هي فهم القرآن الكريم والخطاب اللغوي بصفة عامة(2).

2- الوظيفة التواصلية:

إنّ للغة عدّة وظائف ومن أهمها الوظيفة التواصلية التي تقوم بها من أجل المحافظة على حياة اللغة، لأنّ اللغة تحيا بالتداول وبغيره لا حياة لها، ولا تكون اللغة لغة إلا إذا دخلت إطار الاستعمال وتداولها أفراد الجماعة اللغوية فيما بينهم، وهذا ما ذهب إليه إميل دوركايم قائلاً: >إنّ حدود اللغات تميل إلى الاقتران بحدود الزمر الاجتماعية التي تدعى بالأمم.<(3)

يعتمد التّواصل بالدرجة الأولى على إعادة مفهمة العالم من قبل المتكلّم وفق رؤية ذاتية، ليجعل من التراكيب المجردة تراكيب قابلة للممارسة والتداول، وتتجلّى تلك التراكيب في أشكال لغوية بلاغية مختلفة، ولن يستطيع المتكلّم ابتكار مثل هذه الأشكال ما لم يملك الآلية الإبداعية؛ فالإنسان يتواصل مع كلّ ما هو موجود في الكون ومع كلّ ما يمكن أن يطاله فكريا وحسيًا، ثمّ في عمليات داخلية يعيد صياغة نتائج علاقاته مع مختلف الأجزاء الكونية وفق مفهوم خاص يستند إلى الكفايات الإنتاجية ولتأويلية أولاً، وإلى الأعراف والسّنن الاجتماعية ثانياً، أي أنه يحول إدراكه للنّوات والكائنات والأشياء عن طريق الإبداع إلى سلوكيات وأفعال وأفكار يتبادلها مع غيره ويعو بها عن مفاهيمه، >فالتّواصل يسمح بتداول المعلومات بين الجماعات وهذا يسهّل عملية التّلاقي المعرفي، في حين عندما تطرح الألفاظ كعلامات غير متداولة للتّواصل يساء فهمها ممّا يؤدّي إلى عمليّة الانقطاع

(1) المصدر السابق، ص174.

(2) راضية خفيف بوبكري، >التداولية وتحليل الخطاب الأدبي<، ص.

(3) سليم حمدان، أشكال التّواصل في التّراث البلاغي العربي، ص80.

المعرفي. <<(1)

وصناعة البديع بما تتضمنه من مفاهيم بلاغية هي شكل تعبيريّ كليّ أو مفهومي لرؤية المتكلّم، حيث يتحدّد عمل هذه الأشكال >> في الوصول والانتهاؤ إلى نفوس المخاطبين، <<(2) أي تمكين المعنى وتقديره في ذات المستمع، وهي الغاية التي أشار ابن البناء إلى ضرورة توفّرها في الكلام البليغ، ذلك أنّ >> البلاغة هي أن يعو عن المعنى المطلوب عبارة يسهل بها حصوله في النفس متمكّنًا من الغرض المقصود. <<(3) والقول السابق يوضّح أن أهمّ مبدأ يحقق بلاغة الخطاب بحسب ابن البناء هو مبدأ الاتّصال واستخدام اللّغة استخدامًا يضمن وصول المعاني إلى نفوس المخاطبين، ويذهب تمام حسان بدوره إلى >> أنّ المعنى اللّغوي للفظ البلاغة فرع يدلّ على معنى الإبلاغ أو التّواصل الذي هو موضوع من موضوعات علم الاتّصال. <<(4)

وما يدلّ أيضًا على اهتمام ابن البناء بالاتّصال تناوله للعديد من شروطه وظروفه أدائه؛ ومن ذلك شرط الوضوح في الكلام فقد دعا ابن البناء إلى تجبّ كل ما من شأنه أن يكون سببًا في تعقيد المعنى وإبهامه على المستمع لأنّه ينفّره ويصرفه عن متابعة الإرسال، ولذلك أشار إلى ضرورة التدرّج في طرح المعاني، فاستخدام اللفظ المناسب للمعنى مطلب ضروري ينبغي للأديب أن يسعى في توظيف قدراته الفنّية لإبرازه، ولهذا نجده يقسم المعاني إلى مستويات؛ >> منها البينة القريبة، ومنها الغامضة البعيدة، وبينهما متوسّطات، وكذلك الألفاظ في الدلالة عليها توضع على نسبتها... <<(5) فالوضوح إذن شرط أساسي في طرح المعاني وتقريبها من الذّهن كي يتمكّن المستمع من إدراكها بسهولة، فترتسم صورتها في ذات المتلقي كما هي في ذات المتحدث.

(1) عبد الفتّاح احمد يوسف، لسانيات الخطاب و أنساق الثّقافة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431هـ/2010م، ص 49.

(2) المرجع نفسه، ص49.

(3) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص87.

(4) سامية بن يامنة، >الاتّصال اللّساني بين البلاغة و التداولية<<، ص10.

(5) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص122.

من الشّروط الّتي تناولها المراكشي أيضاً، معرفة أقدار السّامعين ومنازلهم، وكل ما يرتبط بالمعنى وملابساته، فإنّها حسن اللفظ وصلاحه يرجع إلى >> القصد إلى المستعمل في زمان الخطاب وعلى قدر من يخاطب... والإيضاح على أحسن ما يقدر عليه من التّسهيل ولتّ قريب... <<(1) وعليه >> فالمتكلم في إنشائه للمعنى يقيد بشكل المعاني ونوع المخاطب، وحال الخطاب ومقامه، وهي كلّها شروط لإحراز المنفعة ونجاح الإبلّاع، ولا تختلف عمّا تعرضه اللّسانيّات التّداولية حديثاً من شروط نجاح الملفوظ وهدأ التّعاون في الخطاب.<<(2)

3- الوظيفة التّأثيرية:

تعتمد الوظيفة التّأثيرية على كلّ الوسائل الّتي من شأنها إحداث التّغيير في سلوك المستمع؛ ومن ذلك الوسائل الإقناعية والوسائل الإمتاعية، ومن ثمّ فإنّ هذه الوظيفة هي عنصر شامل لوظيفتين مندرجتين تحتها، تعتمد الأولى على الإقناع الفكري والثّانية على الإقناع الوجداني أو التّشبع العاطفي.

لقد سخر البلاغيون العرب وسائل عدّة لإرضاء المستمع واستمالاته والتّأثير فيه، ذلك أنّهم كانوا على وعي بأنّه لا فائدة من إيراد كلام حسن ومعنى شريف دون غاية ومقصد يسعى المتكلم بلوغه، ولم يكن ابن البّناء بمنأى عن ذلك فمدار صناعة البديع عنده متوقّف على مدى >> استدراج الخصم إلى الإذعان والتّسليم، لأنّه لا انتفاع بإيراد الألفاظ المليحة الرّائعة ولا المعاني اللّطيفة النّقيّة دون أن تكون مستجابة لبلوغ غرض المخاطب بها.<<(3)

أ- الإقناع :

إذا كانت الغاية الأولى لصناعة البديع هي التّواصل فإنّها لا تقف بالتّأكيد عند هذا الحد، بل تتجاوزّه إلى إحداث أثر معنّي في سلوك المخاطبين إمّا إيجاباً أو سلّبا ويتجلّى

(1) المصدر السّابق، ص174.

(2) خليفة أبو جادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، ص716 - 717.

(3) ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب و الشّاعر، تع محمّد محي الدين عبد المجيد، المكتبة العصرية، بيروت، دط، 1410هـ/ 1990م، ص250.

ذلك في الوظيفة الإقناعية، حيث يعتبر >> الإقناع من أهم وظائف التّواصل وغاياته، حتّى أنّ البلاغة العربية جاءت من أجل التّواصل والإقناع والإمتاع.<<(1)

إنّ ابن البناء يتناوله للوظائف الأولى لم يهمل دور الإقناع في تحقيق إبلاغ ناجح للرسالة اللّغوية، ولقد أشار إلى ذلك في معرض حديثه عن الخطاب وأقسامه وأهم نواتجه، حيث تتدرّج الغايات الإقناعية بتدرّج أنواع الخطاب؛ فيحصل عن البرهان اليقين، وعن الجدل الظنّ الغالب، وعن الخطابة الإقناع وعن الشّعور الاستفزاز والتّوهم، وأخيرا ينتج عن المغالطة التّضليل.(2)

إنّ هذه الدّرجات الإقناعية ما هي إلّا نواتج أو محصول تأثيرات الخطاب في نفس المستمع، ولذلك حرص ابن البناء على بلوغ المستمع أعلى درجات الإقناع ببناء خطابه على الصّدق وظهوره بالبرهان، وكلّما تأسّس الخطاب على هذين المبدأين كلّما كان أكثر تأثيرا في نفس المستمع وسهّل بذلك على المرسل سبيل الاستحواذ على متلقّيه، ف>> حسن معنى الكلام وصلاحه وصحّته إنّما هو ببنائه على الصّدق وقصده إلى الجميل وظهوره بالبرهان.<<(3)

ونشير إلى أنّ ابن البناء قد استثنى من كلّ ذلك الخطاب الشّعري لأنّه يعتبر >> أنّه خطاب بأقوال كاذبة على سبيل المحاكاة.<<(4)

يعتبر المراكشي الإقناع الدليل المحسوس على تحقّق الرسالة اللّغوية وعلى بلوغ المتكلّم مراده من الحديث، فهو أثر يبيّن أنّ الرسالة قد انتقلت من مرحلة التّجريد إلى مرحلة الوجود بتجسّدها في أفعال المستمع، ذلك أنّ >> الإقناع هو أحد طرفي العلاقة بين رسالة هادفة إلى توجيه الفكر أو الاعتقاد، وطرفها الآخر هو الاقتناع، وهذان الطّرفان متلازمان وجودا أو عدما، فلا وجود للإقناع دون وجود الاقتناع.<<(5) والصدّق النفسي في الخطاب هو أعلى

(1) محمّد مفتاح، التّلقّي والتّأويل، ص382.

(2) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص81.

(3) المصدر نفسه، ص81.

(4) المصدر نفسه، ص174.

(5) سليم حمدان، أشكال التّواصل في التّراث البلاغي العربي، ص74.

درجات الاقتناع التي يمكن أن يبلغها المتحدث، في مقابل التحايل اللغوي أو الكذب اللغوي مثلما نجد في الشعر- خاصة الشعر المبالغ فيه - فإنه وإن استمال المتلقي في فترة من الفترات فإن ذلك لن يستمر لأن المستمع يميل إلى ذلك النوع من الخطابات عندما يكون حالما أو متعطشا لعاطفة معينة ولكن بمجرد مقابلة ذلك بالواقع الذي هو أكثر صدقا سيندثر ذلك التأثير، وبالتالي فإن الصدق هو الوحيد الذي يضمن امتداد التأثير في نفس المستمع، وهذا كله إشارة من ابن البناء بأنه لا وجود لتواصل دون وجود تأثير متبادل بين طرفي الحديث، لأن الإقناع في مجمله هو >> إنهاض النفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده أو التخلي عن فعله.<<(1) وهذا الرأي يتوافق مع ما ذهب إليه كل من هوراد مارتن و كنيث أندرسين فحسبهما >> أن كل اتصال هدفه الإقناع، وذلك أنه يبحث عن رد فعل على أفكار القائم بالاتصال.<<(2)

تمثل صناعة البديع إضافة إلى كل ما سبق حالة استثنائية للغة تتطلب جهدا خاصا من المتكلم للتأثير في المستمع، لأن >> الاستعمال الاستثنائي للغة من شأنه أن يؤثر في المتلقي أكثر من غيره، فليس ثم من أحد من الممكن أن يثار لشيء إذا ما قرأ جدول الضرب.<<(3) ومن خلال هذه الرؤيا تتسع زاوية المنظور البلاغي لابن البناء لتشمل رؤى تداولية تتجلى في البعد التأثيري؛ حيث >> تعد البلاغة هي التأسيس الأول للتداولية بوصفها حالة من حالات استعمال اللغة تهدف إلى التأثير في المتلقي، ومن ثم فهي تعكس بعدا تداوليا للكلام<<(4) وهذا ما يؤكد ليتش قائلا: >> إن المدخل الذي له حضوره في التداولية هو المدخل البلاغي، ولا يخفى أن مصطلح البلاغة مصطلح تقليدي للغاية، وهو يشير إلى دراسة الاستعمال المؤثر للغة في عملية الاتصال، وقد فهمت البلاغة في وجهة النظر التاريخية

(1) المرجع السابق، ص 74.

(2) المرجع نفسه، ص 74.

(3) عيد بلبع، >التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس<<، ص 278.

(4) المرجع نفسه، ص 283.

التقليدية على أنها فن استعمال اللغة بمهارة بغرض الإقناع، أو إنتاج التعبيرات الأدبية أو بغرض الكلام التواصلي بين الناس... <<(1)

ب- الإمتاع:

يذهب طه عبد الرحمان إلى أن قوة التأثير في المستمع يمكن أن تزداد فاعليتها إذا زواج المتكلم بين نوعين من الأساليب وهما أسلوب الإقناع والإمتاع، أي المزوجة بين الوظيفة التداولية والوظيفة ما فوق تداولية، ف >> قد تزوج أساليب الإقناع بأساليب الإمتاع، فتكون إذ ذاك أقدر على التأثير في اعتقاد المخاطب، وتوجيه سلوكه لما يهبها هذا الإمتاع من قوة في استحضر الأشياء، ونفوذ في إشهادها للمخاطب كأنه يراها رأي العين. <<(2)

ونقصد بالإمتاع هنا تدرج المتكلم في استعماله الخطابي التأثيري للوصول بالمستمع إلى تحقيق مبدأ ما فوق اللذة أو ما فوق التداولية؛ ومصطلح ما فوق التداولية يقصد به >> التروع الجمالي للصيغ الأدبية المتداولة التي تتخطى في مقاصدها مجرد الإبلاغ، وتتوقف وظيفتها عليه. <<(3) ففي هذا المفهوم ينشد المتكلم الإمتاع والجمالية والتخلي، وهو الرأي الذي ذهب إليه ابن البناء فحسبه أن المخاطب لن يرق بكلامه إلى مراتب البديع ما لم يرق بالمستمع إلى مراتب الإقناع والإمتاع والذي عو عنه بمفهوم اللذة الشعورية، فالمتكلم ينبغي أن يقصد إلى الجميل من الكلام ليخفف عن النفس ومتعها، وهذا يتطلب منه البحث عن الأساليب التي من شأنها إيصاله إلى مقاصده.

يتجلى حديث ابن البناء عن وظيفة الإمتاع في أكثر من موضع من كتابه؛ من ذلك تعليقه على حسن الجمع بين الضدين وما يمكن أن يخلقه في ذات المستمع من تلاذذ شعوري،

(1) المرجع السابق، ص 283.

(2) طه عبد الرحمان، أصول الحوار في تجديد علم الكلام، ص 38.

* مصطلح ما فوق تداولية هو مصطلح أطلقه الباحث أبو جادي في إحدى دراساته لتداولية النص الشعري قاصدا به التروع الجمالي للصيغ الأدبية المتداولة، وهو يريد أن يتجاوز المفهوم التداولي بهذه الخطوة الأولية ليغوص في مغامرة تنشد الإمتاع والجمالية والتخييل، ومن هنا اقترح الباحث أن يكون للشعر مكانة في الدرس التداولي بالظر لما يتوفر فيه من جماليات وأبعاد ما فوق تداولية من شأنها أن تضيف لهذا الدرس أبعادا إبداعية أخرى.

ينظر: خليفة أبو جادي، تداولية النص الشعري، ص 41 - 42.

(3) المرجع نفسه، ص 41 - 42.

وتجسد وتمثّل مادي، ويمكن أن نتبين ذلك من خلال قوله: >> فموضع اللذة موضع التقاء من الضدين، فتمثّل النفس ذلك في القول والاعتدال في اجتماعهما فتستطيعه.<<⁽¹⁾ ولقد مثّل لذلك بثنائية (الرّي / العطش) فيقول: >> ألا ترى أن من أصابه العطش فإنّ الرّي لما كان ضده كان إذا شرب الماء وجد له لذة لملاقاء العطش الرّي، ثم لا يزال الرّي يستحکم والعطش يضمحلّ إلى كلال الرّي وذهاب العطش، فيُكفّ عن الشرب وأما كانت اللذة أعظم ما كانت عند الالتقاء.<<⁽²⁾

ولكي يضمن المتكلم تحقّق غايته الإقناعية الإمتاعية وجب أن تكون أساليبه الخطابية قريبة من واقع المستمع، وهو ما يسهّل عليه تبليغ مقاصده لأنّ النفس بحسب ابن البنّاء ترى أنّ لها شرفاً عظيماً بوصولها إلى مقصد المتكلم، >> فإذا وصلت النفس إلى المعنى بغير اللفظ كان اللفظ زائداً فيثقل، لاسيما إن كانت النفس ترى أنّ لها في الوصول إلى المعنى خصوصية وشرفاً على غيرها فإنّها تسرّ، لأنّها قد بلغت إلى المقصود من غير طول، وكلّ ما يسهّل إلى المطلوب فهو محبوب وكلّ ما يعوق عنه فهو مكروه.<<⁽³⁾ فأسلوب المتكلم وحده هو الذي يمكن أن يستثير عواطف المستمع إما إيجاباً أو سلباً، لأنّه إذا كان خطابك خفيفاً موزوناً موازياً لواقع المستمع يكون الذي >> تقوله له أكثر وقعا في نفسه وأبقى أثراً، لأنّك قد أقمت عليه الحجّة بما يوافق سلوكه وبذلك يكون اقتناعه بكلامك أكثر.<<⁽⁴⁾

إنّ ما أشار إليه ابن البنّاء يتقاطع في جزء كبير منه مع النظريات اللسانية التداولية الحديثة، ف >> قد جعلت نظرية الأفعال الكلامية غرض قسم من الأفعال أن يحاول المتكلم إقناع اللقّي بفعل شيء ما وأسمتها التوجيّهات، وفيها يكون اتّجاه المطابقة من الألفاظ إلى العالم، ويقوم محتوى القضية على إنجاز المتلقّي للفعل.<<⁽⁵⁾

(1) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص111.

(2) المصدر نفسه، ص111.

(3) المصدر نفسه، ص83 - 84.

(4) محمّد كريم الكوّاز، البلاغة و النّد، الانتشار العربي، بيروت، ط1، 2006م، ص297.

(5) المرجع نفسه، ص297.

وبهذا نجد أن ابن البناء والتداولية يشتركان إلى حد ما في الإلحاح على ضرورة وجود الغرض الانفعالي كمكون أساسي في التداول اللساني لتحقيق المتعة الجمالية الكامنة في الإشباع المترفع.

ونشير في خاتمة هذا القول إلى أن تقسيمنا للوظائف لا يعني بأي شكل من الأشكال أننا نضع حدوداً فاصلة بين كل وظيفة وأخرى، ذلك لأن هذه الوظائف تتكامل وتتعاقد في نسق كلي لتحقيق الأثر الأول لصناعة البديع كمفهوم بلاغي وهو الإجراء أو التداول؛ فحين نخبر نحن نقدم معرفة وحين نقدم معرفة ينبغي أن ندلل عليها لنقنع غيرنا بها، ونهاية الإقناع هي للأثير ولتأثير عامل يعطي إشارة بقبول ما قدم من إرسال وتداوله والرد عليه، أو رفضه والتخلي عنه، وكل ذلك يعني الممارسة التي من شأنها المحافظة على حياة اللغة وتوسع مجالها.

المبحث الثالث: المقومات البلاغية لتحقيق الفعل التداولي

إنه لمن المجحف في حق البلاغة العربية النظر إليها على أنها مجرد نظرية لإنتاج الأفكار أو الممكن منها، فالبلاغة العربية تتميز بتأسسها على عدد من المقومات اللغوية والإبلاغية والتواصلية التي تستوجب علينا توسيع زاوية المنظور البلاغي، بحيث تصبح فيه البلاغة عامل وظيفي على مستويين؛ مستوى تداولي يحقق وظائف إقناعية وبنفعية وتواصلية، ومستوى ما فوق تداولي يحقق وظائف جمالية تأثيرية، ولعل ما يبرر لنا هذا الحديث هو عناية البلاغيين العرب بأطراف التواصل سواء كان متكلماً أو سامعاً أو خطاباً أو سياقاً، فلا تتحقق عندهم درجة البلاغة > إن لم تتوافر هذه العناصر الثلاثة؛ المتكلم الذي يفهم، والسامع الذي يفهم، والرسالة المنقولة من المتكلم إلى السامع.<<(1) وتقوم البلاغة العربية باعتبارها فعلاً إجرائياً على كفاءة الإنتاج للتواصل، وكفاءة التلقي، وهي تحرص على أن يمتلك المتكلم المهارات والقدرات اللغوية اللازمة لإنتاج كلامي سليم،

(1) ليلي كادة، المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية (ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجاً)، رسالة دكتوراه، جامعة الحاج لخضر، باتنة، دت، ص 323.

وكذا كفاءة التّوصيل الّتي تتطلّب امتلاك أساليب خاصّة تمكّن المتكلّم من تمرير رسالته على نحو يضمن وصول معانيه الفّسفية وترتّبها في نفس مستمعه كما هي مترتّبة في ذاته، وبهذا تصبح البلاغة عامل تقني ووظيفي تداولي يتكوّن من >> مجموع القواعد والوصفات الّتي يبيح استخدامها إقناع سامع الخطاب... حتّى لو كان ما ينبغي إقناعه به كاذبا<<(1) وهذا ما يجعل البلاغة تكثّف حضورها في كلّ الخطابات مهما كان نوعها ولا تقتصر على فئة محدّدة، بل نجدها عند الإنسان العادي كما نجدها عند النّخبة المثقّفة، >> إذ لا يكاد يخلو منها أيّ خطاب إلى درجة تجعلنا نعرّف الإنسان كما يقول رولان بارت بأنّه حيوان بلاغي<<(2) وهذا يكشف لنا عن ذلك التّفاعل الّذي يعتمل بفضل البلاغة داخل المتكلّم مع ذاته و خارجا مع محيطه، ف>> الإنسان لا يفكر أو يتفلسف أو يكتب أدبا أو غيره بمعزل عن العالم، إنّهُ في تواصل فعّال مع محيطه الخارجي وما يحتويه من مؤثّرات، ومحفّزات وإكراهات، ومن هنا يدخل الجانب البلاغي كآلية رئيسية في تشكيل الخطاب لتحقيق تواصل ممّن ومثمر بين النّاس، واليوم نعيش عودة قويّة للبلاغة إنّها تعرف حضورا متميّزا في مشهد علوم التّواصل.<<(3)

إنّ إسناد وظيفة التّواصل للبلاغة نابع من إدراكها أنّ هذه العملية لا تستند إلى النّور الّذي يقوم به المتكلّم فقط، بل حرصت على أن يكون لكلّ عنصر مكانة ودورا محدّدا يؤيّه، ومن ذلك دور المستمع الّذي حرصت على أن تتوفر فيه شروط محدّدة ليكون في نفس درجة المتكلّم أو قريبا منها ضمّانا لتحقيق التّفاعل اللّغوي، ذلك أنّ >> إنشاء الكلام من لدن المتكلّم وفهمه من لدن المخاطب عمليّتين لا انفصال لإحدهما عن الأخرى، وانفراد المتكلّم بالسّبق الزّمني ما كان ليلزم عنه انفرادا بتكوين مضمون الكلام، بل ما إن يشرع المتكلّم في الطّق حتّى يقاسمه المخاطب دلالاته، لأنّ هذه الدّلالات الخطابية لا تنزل على ألفاظها نزول

(1) يوسف تغزاوي، التّقنيات البلاغية في التّواصل اللّساني، ص 01.

(2) رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترح عمر أوكان، إفريقيا الشّرق، 1994م، ص 5.

(3) عبد السّلام عشير، إشكالات التّواصل في اللّسانيات التّداولية (مقاربة معرفية تداولية)، رسالة دكتوراه، 2000م، ص 12.

المعنى على المفردات في المعجم، وأما تنشأ وتتكاثر وتقلّب وتتعرّف من خلال العلاقة التّخاطبية، متّجهة شيئاً فشيئاً إلى تحصيل الاتّفاق عليها بين المتكلّم ونظيره المخاطب.^{<<(1)} وعليه فإنّ درجة التّفاعل التي تسعى كل من البلاغة والتّداولية بلوغها في العلاقة التّخاطبية لا تبلغ ذروتها إلاّ بخروج المتكلّم عن ذاته والنّخول في حيز المستمع لتنشأ علاقات جديدة ومتجدّدة تتجاوز تلك التي كانت بين الشّخص وذاته، إلى نشوء علاقات بينه وبين مستمعه وبينه وبين محيطه، إذ >> لا يبلغ المتحاور درجة التّفاعل حتّى يتفرّق ويخرج عن نفسه إلى نفس الغير قائماً بكل وظائف هذا الغير.^{<<(2)} وبالعودة إلى مؤلّف الرّوض المريع نجد أنّ اهتمام ابن البناء كان منصباً على جميع أقطاب عملية المحادثة، ويظهر ذلك في عنايته بمجموعة من التّظّم والمقومات التي تؤيّد الدور الأساس في صناعة الخطاب.

1-مراعاة المتكلّم:

يحظى المتكلّم في المشروع البلاغي للمراكشي بأهمية لا تقلّ عن تلك التي أبدتها التّداولية الحديثة تجاه هذا العنصر التّخاطبي، فقد أكد ابن البناء مكانة المتكلّم بوصفه فاعل الخطاب ومنتجه في أكثر من موضع من مؤلّفه، وهذا ينبىء عن وعيه بأن >> الحدث اللّغوي ينطلق من نفس المتكلّم ويتركّب على أنسجة اللّغة وفقاً لمواضع قد استقرت بين المتحاورين، وهكذا لا يكون الخطاب إثباتاً أو نفيّاً، ولا يكون خيراً أو استخباراً، كما لا يكون أمراً أو نهياً إلاّ بفعل المتكلّم... فهو صانع الحدث اللّغوي وملتمزم به.^{<<(3)}

ولقد تناول ابن البناء ما ينبغي أن يكون عليه المتكلّم من معرفة بقواعد اللّغة وقوانينها، وخبرة في انتقاء الألفاظ والمعاني، ويتّضح ذلك أثناء حديثه عن الارتباط بين اللفظ والمعنى قائلاً: >> ولهذا وجب تقديم معرفة مفردات اللّغة وصناعة اشتقاق ألفاظها وتصريفها، ومعرفة تركيب أجزاء القول منها وقوانين إعرابها ونحو اشتقاقها، فإنّ ذلك هو المتقدّم والمبتدأ

(1) طه عبد الرحمان، أصول الحوار و تجديد علم الكلام، ص50.

(2) المرجع نفسه، ص50.

(3) عبد السّلام المسّي، التّفكير اللّساني في الحضارة العربية، ص293.

لهذه الصّناعة البلاغية.⁽¹⁾ ويذهب ابن البنّاء إلى أنّ هذه المعرفة في حدّ ذاتها غير كافية فعلى المتكلّم التماس سلامة الكلام وحسنه، ولن يتأتّى له ذلك إلّا >> ببناؤه على الصدق وقصده إلى الجميل وظهوره بالبرهان،⁽²⁾ ولا يقف المراكشي في توجيهه للمتكلّم عند هذا الحد، بل يطالبه باجتتاب التكلّف والتعسّف في طلب الكلام، الذي ينبغي أن تكون عليه مسحة من رونق الفصاحة وطلاوة البديع.⁽³⁾

وبذلك فالكلام البليغ لا يتحقّق للمتكلّم إلّا إذا كان عارفا بمواطن الألفاظ والمعاني وما يصلح لكلّ منها، وأكثر من ذلك يرى ابن البنّاء أنّه على المتكلّم مراعاة الحالة النفسية للألفاظ >> لأنها غير مقصودة لذاتها، إمّا هي لإيصال المعاني إلى النفس⁽⁴⁾، ثمّ إنّ للألفاظ وجود ذاتي ووجود خارجي، ويظهر لنا ذلك أثناء حديثه عن أوجه الارتباط بين اللفظ والمعنى، >> إذ يسبق اعتبار المعنى بالنسبة إلى اللفظ من جهة ما هو مدلول اللفظ... اعتبار كلّ واحد منهما في نفسه⁽⁵⁾، وحديثه هذا يقف على قدم المساواة مع الاهتمام الحديث بالشحنة السيكلوجية للكلمات، ومن ذلك ما أورده نهاد الموسى في كتابها اللّغة والبلاغة العصرية، حيث تذهب إلى أنّه >> يجب أن نعرف القيم السيكلوجية للكلمات، وما فيها من شحنات عاطفية أو تنبيهات ذهنية، فاللّغة علم وفن، هي علم من حيث أنّنا يجب أن نعرف كيف ننتقد المعاني وكيف نسبر المعاني في الكلمة، وهي فنّ من حيث قدرتنا على استعمال الكلمات كي تبعث التّحريك الاجتماعي.⁽⁶⁾

(1) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المربع في صناعة البديع، ص75.

(2) المصدر نفسه، ص174.

(3) المصدر نفسه، ص173 - 174.

(4) المصدر نفسه، ص83.

(5) المصدر نفسه، ص75.

(6) نهاد الموسى، اللّغة و البلاغة العصرية، ص107.

إن الحديث عن الطّاقة الدّيناميكية للألفاظ تتّضح بقوّة في قول ابن البّناء: >> كلّ ما يسهّل في الوصول إلى المطلوب فهو محبوب، وكلّ ما يعوقه عنه مكروه، <<⁽¹⁾ فالمرّاكشي يلحّ إذن على ضرورة انتقاء الكلمة ذات الفعالية الوظيفية والإمتاعية، إلى جانب اعتماد الأساليب القويّة المؤثّرة لصناعة الكلام البديع، وذلك يتطلّب من المتكلّم معرفة كيفية تفصيل الكلام وتوضيحه، فكما أنّه لكلّ شخص ثوب ينسج على مقاسه فكذلك لكلّ مستمع كلمات تستفزّ عاطفته وتؤثّر في آرائه، ولعلّ هذا ما دفع ابن البّناء إلى جعل تمام آلة البلاغة في حسن التّقسيم: >> والبلاغة في ذلك إمّا هي صحّة التّقسيم بحيث لا تتكرّر ولا يدخل بعضها في بعض، واستقاء الأقسام و حسن سياقها. <<⁽²⁾ فقد بين المرّاكشي أنّ المتكلّم ينبغي ألاّ يتجاوز الحدّ المطلوب في توظيف الظّاهرة اللّغوية، فلا يكثر ولا يتكلّف لأن ذلك ينعكس سلبا على مضمون الخطاب وقد يكون سببا في تشويش الإبلاغ السّاعي له، ومن ذلك تعليقه على أبيات لامرئ القيس في معرض حديثه عن الالتفات، حيث أخذ عليه التفاته فيها ثلاثة التفاتات بدل اثنتين:

تَطَاوَلَ لَيْلِكَ بِالْأَثْدِ	وَنَامَ الْخَطِيّ وَلَمْ تَرْقُدْ
وَبَلَدَاتُ لَهُ لَيْلَةٌ	كَلَيْلَةِ نَبِيِّ الْعَدْرِ الْأَرِيْدِ
وَذَلِكَ مِنْ نَيْلِ جَاغِي	وَبَيَّنَّهُ عَنِ أَبِي الْأَسْوَدِ. ⁽³⁾

ولقد علّق ابن البّناء على ذلك قائلا: >> التفت امرئ القيس في هذه الأبيات الثلاث ثلاث التفاتات، ولا يجوز الالتفات إلاّ في كلامين. <<⁽⁴⁾

(1) ابن البّناء المرّاكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 83 - 84.

(2) المصدر نفسه، ص 129.

(3) المصدر نفسه، ص 98.

(4) المصدر نفسه، ص 98.

إن الانتقاء اللفظي الذي تحدّث عنه ابن البناء يجب أن ترافقه المعرفة بدرجة نفس الغير ومرتبته، ورغبته في بلوغ الشّوة أو اللّذة الشّعورية، وهذه اللّذة هي وسيلة لاستدراج المستمع وجعله يذعن للمتكلّم، ولعلّ من أهمّ السبل القولية المحقّقة لذلك حسن الجمع بين المتضادات، لأنّ >> موضع اللّذة موضع الالتقاء من الضدين، فتتمثّل النفس ذلك في القول، والاعتدال في جمعها فتستطيعه.<<⁽¹⁾ كما أنّ المعرفة بطبقة الكلام وبمستوى المستمع من شأنه تيسير عملية التّبليغ، و>> لذلك احتيج إلى معرفة الكلام وطبقاته<<⁽²⁾ وخير مثال على ذلك الأسلوب الخطابي للقرآن الكريم الذي أتى مراعيًا في قصصه لجميع أنواع المخاطبين، و>> على ذلك جاءت القصص المتكرّرة في القرآن لأنّها مخاطبة للجميع، وبحسب أغراض الخطاب المختلفة بحسب الأحوال.<<⁽³⁾

وبذلك فإنّ حديث ابن البناء عن العلاقة التّأثيرية بين المتكلّم والمستمع تجعله يلتقي مع جرایس في عنايته التّداولية بالمتكلّم، وذلك في إدراكهما المشترك لنقطة >> التّأثير الذي يمارسه المتكلّم بغرض حمل المخاطب على تنفيذ ما طلبه منه بشكل ضمني، فهو يعمل على إبراز الروابط التي توحد الكلام.<<⁽⁴⁾

وعليه فابن البناء ومن منظور بلاغيّ منطو على التفاتات لسانية تداولية مهمّة يرى >> أنّ المتكلّم يجب أن يبلغ في استعماله للكلام الحدّ الذي يمكّنه من توفّيه خواصّ تراكيب الكلام حقّها، فيكون فصيحًا وملتزمًا بما ثبت في متن اللّغة من قواعد النحو، والصّرف والدّلالة والمعجم، ويختار الفصيح من مفردات اللّغة وجملها، ومحتززا عن الخطأ في تأدية المعنى المراد، وعدم التّعقيد في أداء المعاني.<<⁽⁵⁾

وبالظنّ إلى كلّ هذه الجوانب التي أوجب ابن البناء على المتكلّم احترامها والتزامها، نجد أنّها تمثّل في مقابل ذلك >> مجال التّداولية الأوسع الذي حدّده بيرس في دراسة العلامات

(1) المصدر السّابق، ص111.

(2) المصدر نفسه، ص87.

(3) المصدر نفسه، ص87.

(4) ليلي كادة، المكوّن التّداولي في النّظرية اللسانية العربية)، ص324.

(5) أم الخير السّفاوي، (البعد التّداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسّكاكي)، ص158.

وعلاقتها بمستعملها، وهي علاقة تتعكس في الاستخدام الشّحني للغة، وآثار المتكلمين على كلامهم، وكيف يمكن للمتكلم أن يعلّل من موقف سامعه،⁽¹⁾ ذلك أنّ المبدأ الأول الذي تركز عليه اللسانيات التداولية هو دراسة اللغة في سياقات استعمالها تجنباً لتعقيد الألفاظ والمعاني إذا أخذت منعزلة عن سياقاتها ضمناً لقوة التأثير في السّلمع.⁽²⁾

حاصل النظر فيما سبق، أنّ ابن البناء بعنايته بالمتكلم كعنصر فاعل في العملية الإبلغية التّواصلية يتجاوز حدود البلاغة ليقترح النّطاق التّداولي، فيقف على قدم المساواة مع الباحثين التّداوليين الذين يعتبرون المتكلم أحد أهم أركان العمل التّواصلية.⁽³⁾

2 - مراعاة المستمع:

يتحدّد التّواصل البشري في شكل خلية متشابكة الأطراف، بحيث لا يمكن فصل أي جزء فيها عن الآخر، إذ لا يمكنها تأدية عملها وتحقيق فعاليتها إلا إذا عملت بشكل متّحد، ذلك أنّها تتضمّن حركة خاصة داخل تلك الأجزاء التي هي عبارة عن تبادلات تأثيرية وتأثرية، وبناء على ذلك يبني المرسل خطابه انطلاقاً من فكرة أساس وهي أنّ ما ينتجه من خطاب لابد أن يتوجّه به إلى ذات مستمعة، لأنّ الخطاب بصفته علامة يتطلب ضرورة وجود الاستجابة لدى المتلقّي ليتحقّق للعلامة اللغوية معناها ودلالاتها، فالعلامة كما يقول موريس بيكام: >> تريد أن تقول شيئاً، وعلى الرغم من ذلك ليس باستطاعتها أن تقول شيئاً إلا بوجود شخص يستقبلها ويستجيب لما تريد قوله، وما لم تتوفّر الاستجابة من جانب شخص ما لا توجد دلالة أو معنى.⁽⁴⁾

فإذا كان المتكلم هو منتج الدلالات والمقاصد، فإنّ هذه الأخيرة لن يتحقّق وجودها وفعاليتها ما لم تدخل في علاقة تخاطبية بين متراسلين؛ مرسل يصنع الكلام ويشحنه

(1) خليفة أبو جادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، ص 717.

(2) أم الخير السلفاوي، (البعد التّداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسكاكي)، ص 158.

(3) ليلي كادة، المكوّن التّداولي في النّظرية اللسانية العربية)، ص 325.

(4) المرجع نفسه، ص 118.

بالمقاصد، ومستمع يستجيب لدلالات الإرسال الموجه له مما يضمن استمرارية هذه العلامة بتداولها.

إنّ اهتمام ابن البنّاء بالمستمع يظهر في مواضع عدّة من مؤلّفه، فقد عرض لضرورة مراعاة المتكلّم لمراتب المستمع وقدراته قبل أن يبني خطابه؛ لأنّه بحسب نوع المستمع يتحدّد نوع الخطاب إمّا إيجازاً أو مساواة أو تطويلاً فكلّ مستمع طريقة يفهم بها، إذ >> ليس كلّ أحد من النّاس يسهل عليه الوجيز، ولا كلّهم لا يفهم إلّا من البسيط، بل هم على ثلاث رتب:

منهم من يكتفي بالوجيز ويثقل عليه البسيط، ومنهم من لا يفهم الوجيز بل البسيط، ومنهم المتوسط، فذلك انقسم الخطاب في البلاغة إلى الإيجاز والمساواة والتّطويل... <<(1) هذا القول يوضّح لنا مراتب المستمعين وأنواعهم، فقد جعلهم ابن البنّاء في ثلاثة أنواع؛ نوع فطن ذكي يميل إلى الاختصار في الكلام وإلى الفخامة في التراكيب، ونوع ضعيف ذو مستوى متدنّي لا يصله المعنى بقصر الفكرة بل بطولها وتفصيلها، ونوع ثالث يتوسّط الوعّين السّابقين. وهذا التّحديد جعله يقسم مفهوم البيان - كما أشرنا إلى ذلك سابقاً - بحسب طبقات النّاس إلى مفهومين أسند فيه كلّ مفهوم إلى طبقة معيّنة؛ فيكون كلاماً بسيطاً لا يخضع لسنن صارمة بإسناده إلى الطبقة العامّة، وكلاماً بليغاً شريفاً إذا أسند إلى الطبقة الخاصّة وجب فيه أن يكون مبنياً على قواعد اللّغة وخاضعاً لنواميسها، لأنّ طبقة النّاس تشمل مستواهم المعرفي وحالتهم النفسيّة، ومستواهم الاجتماعي، ومستواهم العقلي، فإذا خوطب المستمع بكلام أعلى درجة من مقدّراته الفكرية ومقامه الاجتماعي فإنّ ذلك يؤدّي إلى تعطيل العملية الإبلّغية بينهما، فالمستمع مع وجود ذلك الفارق لن يستطيع تحليل وفهم ما وجه له من إرسال، وربما قد يؤدّي ذلك إلى تنفيره من الخطاب، >> فمثل من كَلّم إنساناً بما لا يفهمه، وبما لا يحتاج إلى تفسيره له كمثّل من كَلّم عربياً بالفارسية، لأنّ الكلام إنّها وضع ليعرف به السّامع مراد

القائل. <<(1)

(1) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 87.

(1) أم الخير السّلفاوي، (لبعد التّداولي في البلاغة العربية)، ص 129.

(2) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 83.

إضافة إلى ما تقدّم فقد عرض ابن البناء لأحوال المستمع في معرض حديثه عن تنظيم الخطاب وصناعته، فكلّ أسلوب خطابي ينتهجه المتكلّم من إيجاز أو إطباب أو مساواة أو إطالة أو حشو يرجع بالدرجة الأولى إلى اهتمام منه بحال المخاطب واحترام لطبيعة العلاقة التي تربطهما والخلفية الإيديولوجية المحيطة بكلّ ذلك، ويضرب المراكشي مثلا لذلك بأسلوب الإيجاز ومواقع استحسانه، >> فمتى كانت المعاني بيّنة بنفسها أو بقرينة سياق الكلام أو غيره من القرائن كان الإيجاز نافعا لأجل التّخفيف عن النفس، لأنّ الألفاظ غير مقصودة لذاتها إنّما هي لإيصال المعاني إلى النفس.<<(2)

إنّ القول السابق يوحى بإلحاح ابن البناء على ضرورة مراعاة المتكلّم لنفسية المستمع توخيا للمنفعة والامتناع، فيختار من المعاني ما يلائم أجزاء القول، فيدرك أنّ لكلّ صورة خطابية أثر معنّي في النفس، ومن ذلك البنية التكرارية التي إذا وظّفت توظيفا صائبا أنجزت فعل التّخفيف عن النفس بدل الثقل الذي قد يحسّه المستمع من تكرير الكلمات، لأنّها في هذه الحال تكون بمثابة تذكير له واقتصاد له في جهده الفكريّ بتجنّب عملية الاسترجاع، وهذا ما يُبين عنه قول ابن البناء في تعليقه على هذا النمط من المخاطبات: >> ومن هذا القسم ما يأتي تخفيفا على النفس من الاسترجاع إلى ما مضى.<<(3) ولقد مثّل لذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ (4)، وقوله تعالى ﴿لَمَّا قَضَيْتُمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَرَأَى سَكِينَتَهُمْ وَقَالَ لَأَتَايَنَّكُمْ مِنْكُمْ أَجْرٌ كَثِيرٌ وَلَئِنْ لَمْ يَنْتَهِبُوا يَدَيْهِمْ يُغْلَبُونَ عَلَيْهِمْ﴾ (5).

(3) المصدر نفسه، ص160.

(4) سورة الروم، الآية 07.

الأُنبياءِ بغيرِ حقٍّ...»⁽¹⁾ ثم قال: ﴿وَيُكْفِّرُهُمْ وَقَدْ وَابَّ عَلَيْهِمْ عَلَى مَرِّمْ بِهِ أَنَا عَظِيمًا﴾⁽²⁾ فلكي لا يلجأ المستمع إلى استرجاع ما مر عليه من كلام يكون التكرار بمثابة تذكرة له بعد نسيان.

وفي موضع آخر من مؤلف الروض المريع نجد أن ابن البنّاء رجح خطأ المعاني وصوابها إلى عدم مناسبتها لحال المستمع، فحدّد الأسباب التي تؤثّر في غموض المعاني والتباسها، وذكر منها الغرابة، والاشتراك اللفظي، وفرط الإيجاز الذي يؤثّر في الغموض أو الإغلاق في الظن أو التعقيد، إضافة إلى مجيء الكلام مبهما دون مقدمات يعتمد عليها السّامع في تحديد المقاصد وفهمها⁽³⁾، «فبمقدار العناية بالمخاطب يُنشئ المتكلم كلامه، ويبني عبارته دفعا للتوهم عن السّامع، وبمقدار وضوح العبارة تتضح الدلالة.»⁽⁴⁾

ثم إن مدار الفصاحة والبلاغة عند المراكشي لا يتوقّف عند حدود المتكلم وإرساله للكلام فقط دون غايات من ذلك، بل «إنّ الغاية التي يجري إليها استعمال اللّغة هي معرفة الإنسان ما في ضمير صاحبه، وحاجة أخيه ومعنى شريكه والمعاون له على أمره، وتبليغه إيّاه حاجات نفسه»⁽⁵⁾. وعلى هذا الأساس كما قلنا يتحدّد المفهومين السّابقين في مؤلف الروض المريع، حيث يرتكزان على مبدئين مهمين هما؛ مبدأ الاقتصاد على انتباه السّامع، ومبدأ الاقتصاد على متأثرية السّامع.

أ - مبدأ الاقتصاد على انتباه السّامع:

إنّ تحققّ صفة البليغ للمتكلم بحسب ابن البنّاء قائمة على مدى تعبيره عن المعنى المطلوب بصورة يسهّل بها وصول المعنى إلى ذات مستمعه وفهمه وتمكّنه من غرضه، كما أنّ اتّصافه بصفة الفصاحة يتطلّب منه انتقاء الألفاظ السهلة المخارج القريبة الدلالة، ذات

(1) سورة النّساء، الآية 154.

(2) سورة النّساء، الآية 155.

(3) ابن البنّاء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص 84.

(4) ليلي كادة، المكوّن التّدولي في النّظرية اللّسانية العربية)، ص 328.

(5) المرجع نفسه، ص 333.

الوقع الحسن مراعاة لحال مستمعه، وتوخيا للوضوح والأثير فيه، ف >> استعمال اللفظ

المألوف، ومخاطبة الناس على أقدارهم هو السبيل الهادي للبلاغة.<<(1)

إذا ما تأملنا الشروط السابقة وجدنا أنها تتجه نحو مبدأ لغوي استعمالي مهم يتمثل في اقتصاد المتكلم على انتباه السامع؛ والذي يُقصد به >> أن لا تلجئ الذهن في انتقاء مفردات جملك ولا في تنسيقها، وسائر ما يتعلّق بها إلى صرف الذهن إلى ما هو في غنى عن صرفه من قوة انتباهه لإدراك المعنى المقصود بها.<<(2) وغايات هذا المبدأ تتحقّق في دعوة المراكشي للوضوح والسهولة الخطابية والابتعاد عن التعقيد والتكلف في صياغة التراكيب أي تجنّب الإيجاز المفرط، أو التّطويل المملّ، أو التّبسيط المبتذل، ذلك أنّ >> حسن اللفظ وصلاحه إنّما هو بالقصد إلى المستعمل في زمن الخطاب وعلى قدر من يخاطب، والإيضاح على أحسن ما يقدر عليه من التّسهيل والتّقريب.<<(3) فوجود الغموض والتّعقيد في الكلام يجعل السامع >> يصرف قبل فهم المعنى المقصود قوة من انتباهه كان في غنى عن صرفها فيما لو خلا الكلام منه،<<(4) فالسامع بسبب التعقيد الموجود في الكلام يشغل ذهنه ويصرف قوته التّركيزية إلى تحليل وتفسير زوائد الكلام وهي ممّا لا ينبغي فهمه، وهو في غنى عن فهمها، وبالتالي ستقلّ قوة تركيزه لتعب فكره وتعطلّ قدرته على الوصول إلى الغرض المقصود من الإرسال، >> ولهذا السبب يذهب البلاغيون إلى أنّ التّطويل والتّحشية وما شابه ذلك مخالف لشروط البلاغة.<<(5) فكلّما أجاد المتكلم في الموازنة بين مقادير الكلام كلّما سهل على نفسه وعلى غيره سبل التّحاور، ولعلّ هذا ما دفع البلاغيين إلى القول

(1) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 40.

(2) جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص 12.

(3) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 174.

(4) جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص 13.

(5) المرجع نفسه، ص 13.

بـ >> أن الإيجاز هو السحر الحلال، وأنه سرّ البلاغة وقطبها الذي تدور عليه لأن فيه اقتصاداً على انتباه السّامع، <<(1) وذلك لأن المتكلم لا يذكر فيه إلا ما كان يعلم أن السّامع في حاجة إلى معرفته لتبيين الفائدة منه، وفي هذا السياق يقول طه عبد الرّحمان: >> إن اللسان العربي يمتاز على كثير من الألسن بكونه يميل إلى إيجاز العبارة وطيّ المعارف المشتركة طيّاً، اعتماداً على قدرة المخاطب في تدارك ما أضر في الكلام، وفي استحضار أدلّته السياقية بل في إبداعها من عنده متى اقتضت ذلك حاجة الفهم. <<(2)

إضافة إلى ما سبق نبّه المراكشي المتكلم إلى ضرورة انتقاء الألفاظ المألوفة على غير المألوفة، وذلك في معرض حديثه عن شروط الفصاحة، >> فإن من الألفاظ ما تكون سهلة المخارج على النّاطق بها، وتدلّ على معناها لكثرة استعمالها. <<(3) لأن شيوع اللفظ أو كثرة تداوله يبسر على متلقّيه مهمّة تصوّر معناه، فلا يجهد فكره في مطاردة ألفاظ غريبة دون فائدة ترجى، ثم إن في >> انتقاء المألوف اقتصاد على ذهن السّامع وبيانه، لأنّ الذّهن لا بدّ له بعد الشّعور بالألفاظ من صرف قوّة على استحضار صورة المعاني المرادة بها، ومن المعلوم أنّه كلّما كانت أكثر ألفة كان استحضار صورته معانيها عند الذّهن أسهل، فكانت من ثمّ القوّة المنصرفة لهذه الغاية أقلّ وحصل الاقتصاد بذلك. <<(4)

وحرصاً على بلوغ الرّجّة الرّفيعة في المحادثات يذهب ابن البّناء إلى مطالبة المتكلم بتوخي مبدأ الصّدق في خطابه، لأنّ الكذب بحسبه هو استفزاز لمخيّلة المستمع والنّخول به

(1) المرجع السابق، ص12.

(2) طه عبد الرّحمان، اللسان و الميزان، ص112.

(3) ابن البّناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص87

(4) جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص13.

في دوامة من التوهّات المتعبة والمضلّة والّتي لا طائل منها، ودليله في ذلك أنّ الرسول عليه الصلّاة والسّلام لم يقلّ الشعر لأنّه يعلم أنّه قول كاذب، يقول: >>ولذلك كان أفصح

الخلق صلّى الله عليه وسلّم لا يقول شعرا.<<(1)

وصفوة القول أنّ القوّة المقتصدة تيسر من عمل المتكلّم في تبليغ مقاصده، ومن مهمّة المستمع في تأويل الإرسال الموجّه له وإدراك المعاني وفهمها، ذلك أنّ تلك القوّة >> تنفق في تحقيق المعنى المسوق له الخطاب قصداً، فيكون واضحاً لدى الذّهن فمن ثمّ يكون أشدّ رسوخاً وأعظم تأثيراً في النّفس، وهذا هو عين البلاغة أو المقصود منها.<<(2)

ب - مبدأ الاقتصاد على متأثرية السّامع:

إنّ غاية المتكلّم من إنشاء الكلام لا تقتصر على فهمه من لدن السّامع فقط، بل إنّ السّامع وأثناء سماعه للعبارة تشتغل لديه قوتان هما: قوّة الإدراك والمتعلّقة بانتباه السّامع، وقوّة التّأثر والانفعال وهي الّتي قصدنا بها مبدأ المتأثرية؛ >>والقوّة المتأثرة إذا تأثرت ابتداءً بمدرك من المدركات، فلا بدّ أن تكون على حالة من القوّة والضعف هي غيرها بعد أن تتأثّر استئنافاً، فإنّه إن بقيت التّأثرات التّالية شديدة استمرّ الكلام على بلاغته، وإلا شعر السّامع ببركاكته وتبرّم به.<<(3)

ويظهر لنا هذا المبدأ في سياق حديث ابن البنّاء عن خاصية التّوازي، حيث نبّه إلى وجوب الموازنة بين أجزاء الكلام ومكوّناته، لأنّ قوّة الكلام تكون دائماً في أوله ثمّ تبدأ هذه القوّة بالتّناقص لتصل إلى درجة الضعف في آخره، ويرافق ذلك التّناقص تناقص قوّة التّأثير في السّامع، وهذه المعادلة يوضّحها قوله الآتي: >> فقد يغلب أحد الأسلوبين على الآخر في

(1) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص174.

(2) جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص13.

(3) المرجع نفسه، ص13.

الالتفاف، ومتى خرج جزء القول عن التّوازي في القدر فليكن الآخر منهما أطول، لأنّ القول يندفع من المتكلّم نحو المخاطب باللفظ فتكون قوّته في أوله، وضعفه في آخره. كما يعرض

المتحرّك بالقصر فإذا اتّفق أن يكون الجزء الثّاني أقصر من الأوّل مع كونه أضعف، ويكون الأوّل أطول مع كونه أقوى حدث بين الجزئين تنافر صنيعي فشوش النّغم.⁽¹⁾ ومن ثمّ فإن لم يكن هناك توازن بين أطراف الكلام من ناحية قوّة التّأثير وضعفها، وحدّتي قوّة الطّلق أنّى ذلك إلى اختلال الخطاب وتعطلّ غاياته الإفهامية والتّأثيرية، لأنّه كما يقول ابن البّناء >> إذا كان الجزء الثّاني أطول من الأوّل يكون ما في الثّاني من الطّول في مقابلة قوّة الطّلق في الأوّل، وما في الأوّل من القصر في مقابلة ما في الثّاني من ضعف الطّلق فيعتدلان.⁽²⁾

حاصل الظّر فيما سبق أنّه على المتكلّم أن يدرك أنّ للذّفس قوى فاعلة ومنفعلة؛ فإنّ النّفس في كلّ ما يقوم فيها من إحساسات وانفعالات إذا بقيت فيه على نفس الحالة، أو أكرهت عليها شعرت بالملل والضّجر، فضلاً على أنّها لا تعود تتأثّر بها، ذلك لأنّ النّفس مع بداية تأثّرها بما يلقي لها من إرسال تكون في أشدّ استعدادها لتقبّله والتّفاعل معه، ثمّ تبدأ تلك القوتان - الإدراكية والمتأثّرية - بالتناقص حتّى تصل حدّ الكلال أو الضّعف الشّديد، وعليه فإذا كان الإرسال يمتاز بالطّول الشّديد أو العمق فإنّ المعادلة للّغوية لن تكون متوازنة الأطراف وستنتهي قوّتي الإدراك والانفعال قبل انتهاء الإرسال، ولقد وضّح ابن البّناء ذلك في حديثه عن التّقاء الضّدين: >> وأما كانت اللّذة أعظم ما كانت عند الالتقاء، ثمّ لم تلبث أن أخذت تضعف قليلاً قليلاً، حتّى يبلغ الرّي فتخلص لنته وتتقضي، ولو تمادى في الشّرب بعد ذلك لانقلبت اللّذة ألماً، فموضع اللّذة موضع الالتقاء من الضّدين، فتتمثّل النّفس ذلك في القول، والاعتدال في جمعها فتستطيعه.⁽³⁾

(1) ابن البّناء المرّاكشي، الرّوض المرّيع في صناعة البديع، ص169.

(2) المصدر نفسه، ص170.

(3) المصدر نفسه، ص111.

إنّ القول السابق إضافة إلى ما قّمه لنا من معرفة عن ضرورة الموازنة بين أطراف

الحديث، فإنه يوحي لنا ببعد آخر يتجلّى في دعوة المراكشي إلى وجوب تنويع الصّور

الخطابية حتّى يتجنّب المتكلّم الوقوع في الفطية والملل الذي يجني على كلامه، كما أنّ هذا التنويع يعمل على امتلاك لبّ السّامع من خلال الانتقال به بين حالات شعورية متباينة ومتناسقة في الآن ذاته، وقد مثّل لذلك كما أشرنا سابقا بثنائية الرّي والعطش، وما ينتج عن ذلك من لذة شعورية قد لا تتحقّق في بقية الصّور إن ساقها المتكلّم على وتيرة واحدة، وبالتالي فإنّ التنويع الخطابي وعدم الإكثار من ترديد الصور ذاتها يخلق انكسارات شعورية داخل المستمع، ومع كلّ انكسار تكتسب نفسيته شحنة شعورية جديدة مغايرة لتلك التي حصلت عليها آنفا، فهناك قاعدة نقول: >> إذا انتقلت عينك من قبيح مهما كان إلى جميل من جنسه ظهر لك القبح في أشدّ ما يكون من قبحه، والجميل في أشدّ ما يكون من جماله.<<(1) ونشير في خاتمة هذا الحديث إلى أنّ ابن البداء بعنايته بالمخاطب، وتعرّضه للعديد من المفاهيم اللسانية يفتح لنفسه أفقا دراسيا حديثا يتشارك فيه مع الأبحاث اللسانية الحديثة والمعاصرة ولاسيما المبحث التّداولي، باعتبار أنّ من أوسع مجالات التّداولية العناية بالمخاطب والمخاطب منطلقة في ذلك من مبدأ أساس وهو >> أنّ الخطاب اللساني يتوجّه (من وإلى) أحد الطّرفين المتكلّم والمخاطب، فالمرسل إليه حاضر في ذهن المرسل عند إنتاج الخطاب، سواء أكان حضورا عينيا أم استحضارا ذهنيا، وهذا الشّخص أو الاستحضار للمرسل إليه هو ما أسهم في حركية الخطاب، بل يسهم في قدرة المرسل التّنويعية، ويمنحه أفقا للممارسة باختيار استراتيجية خطابه.<<(2)

(1) جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص146.

(2) عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيات الخطاب، ص48.

3 – مراعاة الأغراض والمقاصد:

إلى جانب المقومات البلاغية السابقة تشكّل الأغراض والمقاصد مقوماً أساسياً يسهم في تحديد هوية الخطاب وتحقيق فائدته، إذ لا يمكن للخطاب الخالي من المقاصد أن يأخذ صفة الخطاب دونها بل سيكون مجرد لغو أو كلام أجوف، فدور اللغة لا يقتصر في بعض السياقات على إقامة العلاقات وتثبيتها، فقد تتجاوز ذلك إلى التأثير وغيره، كما أنها تعتبر معبراً رئيسياً عن المقاصد التي ينويها المتكلم، فاللغة لا تكف بأداء وظيفة مرجعية تحيل إلى مدلول بل تتعداها إلى تحقيق وظائف تداولية تتفاوت بحسب القصد* أو الغرض الذي لأجله يسوق المتكلم خطابه.

ولا نعدم في تراثنا العربي إشارات ذكية، إن لم تكن اهتمامات مكثفة بمراعاة القصد من الكلام، وأثر ذلك في توجيه الدلالات اللغوية بالوقوف على المضمير منها، إنطلاقاً من أن اللغات الطبيعية برمتها لا تخرج معاييرها الموازية عن القصد المولدة لها والنيات التي من ورائها، والرغبات التي داخلها والوفاة التي تحركها، إنها أيضاً تشكّل قوة الدافع للتواصل الكلامي.⁽¹⁾

و ابن البناء مع نباهته الفكرية وتضلعه البلاغي ما كان ليغفل مفهوماً كمفهوم القصد، فقد كان على وعي بأن كل عمل خطابي قائم على المقاصد التي يتوخاها المتكلم من خطابه، ذلك لأن >> الأصل في الكلام القصد، فلا يتكلم الإنسان إلا وهو قاصد إلى تحصيل أمر من الأمور.<<⁽²⁾ ولقد استحضر القصد في حديثه عن صناعة البديع، مبيناً أن تنوع الأساليب واختلافها في وضوح الدلالة التي هي موضوع علم البيان مرتبطان في الأساس بالأغراض والمقاصد التي تتوخى من الخطاب نفسه وبدل على ذلك قوله: >> فالأغراض والمقاصد تختلف في الخطاب على الشيء الواحد، فيكون لذلك الشيء الواحد أنحاء كثيرة بحسب كل

* المراد بالقصد هنا ما دلّ على معنى يحسن السكوت عنه، وكان العلم به ضرورياً لإفادة الكلام.

(1) ليلي كادة، الوكون التداولي في النظرية اللسانية العربية)، ص334.

(2) طه عبد الرحمن، اللسان و الميزان، ص103.

(3) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص109.

غرض، فقد ينحو بعض الناس في الشيء نحو غير الذي ينحوه فيه بعض، فلا يعترض بأحدها على الآخر لاختلاف النحوين.^{<<(3)}

وقول المراكشي السابق يوضح لنا أن الأغراض والمقاصد في الخطاب تتباين تبعاً لتباين إيديولوجيات المتكلمين ومذاهبهم الفكرية، ومتى كان الكلام موجهاً نحو غرضه المناسب له كان بليغاً.

يوصل ابن البناء حديثه عن المقاصد مشيراً إلى أنه على المتكلم أن يدرك أن المعنى قد يكون بليغاً بالنسبة لغرض، وغير بليغ بالنسبة لغرض آخر، لأن بلاغة الخطاب بحسبه تقف على مدى المناسبة والانسجام بين اللفظ والمعنى من جهة، ثم بين المعنى والغرض المقصود والمنحى المتبع أو الأسلوب المستخدم في التعبير من جهة أخرى، >> ولذلك اشترطوا في البديع أن يكون اللفظ بإزاء المعنى، والمعنى مواجهها نحو الغرض المقصود، لأنه قد يكون المعنى بليغاً بالنسبة إلى غرض، وغير بليغ بالنسبة لغرض آخر، ولذلك لا يصح الاعتراض على أحد إلا بعد الاتفاق على الغرض والنحو الذي نحاها فيه.^{<<(1)}

وفي موضع آخر من المؤلف يربط ابن البناء بين دلالة الكلام وتحقق فائدته من الأغراض والمقاصد المتوخاة فيه، ذلك أن القصد هو الذي يحدد نوع الخطاب وأسلوبه، ومتى كان الكلام خالياً من الأغراض والمقاصد فقد صفة الخطابية ليصير مجرد لغو لا طائل من ورائه، ذلك أن الأصل في اللغة أنها جعلت >> ترجماناً عما في الضمائر من تلك القصد... فهي في المتعارف عليه عبارة المتكلم عن مقصوده،^{<<(2)} ولهذا يلح ابن البناء على ضرورة بناء الخطاب على المقاصد قائلاً: >> وحسن اللفظ وصلاحه إنما هو بالقصد إلى المستعمل في زمان الخطاب وعلى قدر من يخاطب،^{<<(3)} فالعلاقة بين القصد والخطاب هي علاقة

(1) المصدر السابق، ص 89.

(2) ابن خلدون، المقنمة، ص 565.

(3) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، 173.

(4) ليلي كادة، المهكون التداولي في النظرية اللسانية العربية، ص 338.

التزام وتفاعل ف >> كما أن قصد المتكلم هو الذي أنتج النص اللغوي، فإن النص اللغوي هو السبيل الوحيد للكشف عن قصد المتكلم في عملية معكوسة.^{<<(4)}

ولما كان اللفظ غير مقصود في ذاته بل لإنجاز وظيفة محددة وجب شحنه بمقصد محدد ليحقق المتكلم الوظيفة أو الفعل الذي يرومه، لأنه بانعدام القصد تتعدم الوظيفة، وحرصا على ذلك يشترط ابن البناء توفّر عنصر الوضوح في المقاصد وقربها إلى ذهن المستمع طلبا للتعاون الخطابي والبلاغة اللفظية، لأنه >> كلما كان المقصد واضحا كان أحسن في البيان.^{<<(1)} ولقد حدّد ابن البناء أسباب الغموض في المقاصد وأرجعها إلى سببين رئيسيين؛ يكمن الأول في رغبة المتكلم في تحريك ذهن مستمعه وإجباره على التفكير لينتقل به من رحلة الضعف (الجهل) إلى مرحلة القوة (النور) فيسعى إلى المقاصد البعيدة لاستفزاز مخيلة السامع وإجباره على المشاركة في تأويل النص، وقد يعود سبب الغموض إلى قصور لدى المتكلم حيث تغمض مقاصده وتحجب عن المستمع إذا كان المتكلم عاجزا عن التعبير عن نواياه بأسلوب خطابي بليغ، فقد >> يكون الغرض شيئا لا يتأتى في الحكمة كشفه إما لقصور الفهم عنه، ولما لتميز الفطن النكي من الجاهل الغبي، فيظهر للفطن شرفه فيسر بنفسه، ويظهر لغيره قصوره فيتحوّل لعجزه، وربما يكون ذلك داعية لتحريك فكره حتى يخرج من ظلمة الجهل إلى نور العلم.^{<<(2)}

وتبقى المقاصد بحسب ابن البناء هي الحدّ الفاصل في حسن المعاني وقبحها، فكلاما أحسن المتكلم الموازنة بين أغراضه وتركيبه من ألفاظ ومعان كلما حسن خطابه، وكلما كان هناك انفصال وتباعد قبح الخطاب ، لأن >> المعاني منها البينة القريبة، ومنها الغامضة البعيدة، وبينهما المتوسطات... والمقاصد تبين الحسن من ذلك والقبیح.^{<<(3)}

(1) ابن البزّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص123.

(2) المصدر نفسه، ص122.

(3) المصدر نفسه، ص 122-12.

ولا شكّ في أنّ اهتمام ابن البناء بالمقاصد كعنصر فعّال في توجيه العمليّة التّواصلية هو عمل يتشارك فيه مع الطّرح التّداولي الحديث، >> فقد أولت الدّراسات التّداولية اهتماما كبيرا بالقصد في العمليّة التّواصلية، فالمخاطب يدعو المخاطب لمعرفة غرضه من التّواصل، <<(1) وكما يقول فليب بلانشيه: >> فعندما أتكلّم فأنا أحاول إيصال بعض الأشياء إلى مخاطبي بدعوته إلى التّعرف على مقصدي من توصيل تلك الأشياء بالذات، وأتصلّ على الأثر المنتظر عندما أدعوه إلى معرفة غرضي من تقديم هذا الأثر له، وما إن يتعرّف مخاطبي على ما في غرضي الحصول عليه حتّى تتحقّق النتيجة عموما. <<(2) وبالتالي فإنّ الأهمية التي يحتلّها المقصد في المشروع البلاغي لابن البناء تعادل تلك الأهمية التي يحظى بها هذا المقوم عند جرايس كعنصر تداولي يسهم في تحقيق مبدأ التّعاون، إذ >> يعتبر القصد أحد أهمّ مبادئ المحادثة عند جرايس، فقد مضى هذا الأخير إلى اعتداد القصد من الخصائص الأساسية للخطاب الطّبيعي، فالعمل التّواصلية يتطلّب استحضار المقاصد حتّى يقوم التّعاون بين المتحاورين فيقف كلّ منهما على قصد الآخر. <<(3)

ويتخذ القصد في عمومه الصّورة الآتية:

- إن قول القائل لا يمكن أن يحقق فائدة إلّا إذا قصد القائل لأمر ثلاث؛ هي دفع المقول له للإجابة عن الإرسال الموجّه له، اطلاع المقول له على هذا القصد، وأخيرا أن المقول له لا ينهض بجواب إلّا بالاستناد إلى قصد القائل الذي تعرّف عليه(4)، ولقد لاحظنا توفّر هذه الأمور في حديث ابن البناء، واهتمامه بكلّ ما من شأنه أن يوصل المعنى إلى نفس المستمع

(1) ليلي كادة، المكوّن التّداولي في النّظرية اللسانية العربية)، ص337.

(2) فليب بلانشيه، التّداولية من أوستن إلى غوفمان، تر صابر الحباشة، دار الحوار، سورية، ط1، 2007م، ص139.

(3) ليلي كادة، (المكوّن التّداولي في النّظرية اللسانية العربية)، ص339.

(4) المرجع نفسه، ص337.

(5) ابن البذاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص83.

والتأثير فيها، لأنّ النفس بحسب ابن البناء ترى أنّ لها في الوصول إلى المعنى شرفاً وتفرداً لها عن غيرها من النوات. (5)

وخلاصة القول أنّ حديث المراكشي في مجمله قريب من طرح التداوليين >> الذين لا يكتفون بالقصد الإخباري انطلاقاً من المؤشّرات اللسانية فحسب، بل إنّ هذا المعنى الظاهر هو بداية الطريق إلى قصد آخر أعمق هو القصد إلى تغيير المحيط المعرفي للسامع، وهو قطب الرّحى في النظرية الجرايسية التي تعتبر التّواصل الإنساني في عمومها قصدياً. <<(1)

4 – مراعاة السياق الذي يجري فيه الحدث اللغوي:

لقد وُظّف مصطلح السياق في مجالات متعدّدة تراوحت بين اللغوي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي، ولكن وعلى الرّغم من تباين استخدامات هذا المصطلح إلا أنّ المعاجم تقدّم له تعريفاً ينطبق إلى حدّ ما من حديث المكوّن الجوهري على تلك السياقات جميعاً، حيث حدّد السياق في مجال تحليل الخطاب بأنّه >> سلسلة الأفكار التي تجسّد نصّاً ما، وبالتحديد فإنّ السياق هو مجموع النصّ الذي يحيط بالجملة التي يراد فهمها، وعليه يتوقّف الفهم السليم لها. <<(2) وعوّف السياق أيضاً بأنّه: >> المحيط اللساني الذي انتجت فيه العبارة... ولا يشترط في تلك العناصر الحافّة بالعبارة أن تكون قريبة، بل يمكنها أن تكون بعيدة في متن الخطاب. <<(3)

وبذلك يعتبر السياق المانح الأول والمحدّد الرئيسي للهوية الدلالية للعبارة بكلّ ما تتضمنه من مرجعيات للنصّ أو للعبارة اللغوية، ومن ثمّ >> فإنّ معنى العبارة يتغيّر طبقاً للسياق الذي

(1) ليلي كادة، المكوّن التداولي في النظرية اللسانية العربية)، ص338.

(2) محمّد إقبال عروي، دور السياق في التّرجيح بين الأقاويل التفسيرية، روافد، الكويت، ط1، 1428هـ/2007م، ص23.

(3) المرجع نفسه، ص23.

(4) المرجع نفسه، ص23.

ترد فيه. <<(4) ونشوء العبارة داخل سياق يمنع عن المستمع إمكانية التأويل الإفرادي لها من دون العودة إلى المحيط الذي أنتجت فيه، لأنه >> إذا كان التركيب يوجد داخل النص فإن الدلالة توجد داخل السياق، وهذا لا يقتصر على تحديد دلالة العبارة فقط بل يمتد ليشمل تحديد الصور والاستعارات والمجازات، والبحث في آليات ضبطها وتأويلها. <<(1) وهذا يوضح أن السياق والعبارة يشكّان ثنائية تفاعلية من ناحية التأثير والتأثر، فلا يمكن للعبارة أن تنشأ بمنأى عن محيطها، ولا يمكن لهذا المحيط أن يتصل من دوره الريادي باعتباره >> قاعدة أساسية في عملية التأويل. <<(2)

وبالعودة إلى المؤلفات البلاغية نجد أن البلاغيين العرب قد تداولوا هذا المفهوم وعبروا عنه بمصطلحات شتى أشهرها: المقام، والحال أو مقتضى الحال، وحتّى السياق بمفهومه الحديث، ووظّفوه عن وعي في تحليلاتهم البلاغية والتّقديّة، فقد >> أدرك بلغاء العربية القدامى ظاهرة السياق من خلال عباراتهم مقتضى الحال التي أنتجت مقولتهم لكلّ مقام مقال، ولكلّ كلمة مع صاحبها مقام، فانطلقوا في مباحثهم حول فكرة المقام وربطها بالتركيب والصياغة، فربطوا الشّكل اللّغوي أو الأسلوب اللّغوي بالمقام،... فأصبح معيار الكلام في باب الحسن والقبول بحسب مناسبة الكلام لما يليق بمقتضى الحال والمقام. <<(3)

وقد كان لهذا المصطلح حضوراً مميّزاً في المشروع البلاغي لابن البناء، فقد وظّف المراكشي مصطلح السياق بمفهومه الحدائي، إذ يعدّ عنده مرجعاً أساسياً لتحديد مقاصد الكلام ودلالته، وقد اعتمد بشكل مخصوص على السياق اللّغوي المتمثّل في استغلال الشواهد اللّغوية في تحديد المفاهيم، بدل اعتماد الشرح والتفسير معوّلاً في كلّ ذلك على فطنة متلقّيه وحسّه التّأويلي للشاهد اللّغوي للوصول إلى المفاهيم المطلوبة وتتجلّى لنا عناية ابن البناء بالسياق

(1) المرجع السابق، ص 24.

(2) المرجع نفسه، ص 25.

(3) ليلى كادة، الإكّون التّداولي في النّظرية اللّسانية العربية، ص 342.

من خلال إيراد هذا المصطلح بتسميته الحديثة، ويتراءى ذلك في أكثر من موضع من مؤلفه، فقد انتبه إلى أهمية هذا العنصر في تأويل دلالات التراكيب والتوصل إلى مقاصدها، وهو ما يوضحه قوله الآتي: >> ومتى كانت المعاني بيّنة بنفسها أو بقريئة سياق الكلام أو غيرها من القرائن كان الإيجاز نافعا<<(1) وهذا القول يبين أهمية القرائن في كشف تمعّر الكلام وتحصيل فائدته حينما يعمد المتكلم إلى الإيجاز، فيلجأ المتكلم إلى السياق لتقدير العناصر الغائبة وإعادة ربط الأجزاء من أجل الوصول إلى المقاصد الكلية، هذا ويشير ابن البناء في موضع آخر إلى أهمية السياق الحالي والسياق اللغوي والاجتماعي في تأويل العبارات والاستدلال على المقاصد بالعودة إلى العرف والإنصاف واللين محدداً في الآن ذاته المقصود بسياق الكلام، حيث >> يستدلّ على المقاصد بالقرائن، ومنها سياق الكلام وهو ربط القول بالغرض المقصود من غير تصريح به، والقرائن لا يستدلّ عليها إنما يرجع فيها إلى العرف والإنصاف واللين.<<(2)

إن ابن البناء من خلال قوله السلبق يجعل من سياق الكلام - وقد يقصد به السياق اللغوي - جزء من القرائن والتي يقصد بها السياق العام، ثم إن حديث المراكشي عن العرف (المواضعة) والإنصاف يعتبر إشارة منه إلى >> أهمية السياق الاجتماعي في رسم دلالات النص، وإشارة إلى ضرورة وجود معارف مشتركة بين المتكلم والمستمع لتحقيق الإفهام ومن ثم التوصل،<<(3) فالمتحاوران لا ينطلقان من فراغ أو من خلفية بيضاء بل ينبغي أن تكون هناك بعض النقاط المشتركة التي يبنيان على أساسها حديثهما، ذلك أن التوصل الذي يقوم في أي لحظة يتأسس في فهم ملفوظه لدى المتلقي على رصيد خلفي من المعارف، وكذا المبادئ العامة المنظمة للحوار.(4)

(1) ابن البناء المراكشي، الرّوض المربع في صناعة البديع، ص83.

(2) المصدر نفسه، ص123.

(3) ليلي كادة، (المكوّن التّدّولي في النظرية اللّسانية العربية)، ص342 - 343.

(4) محمّد الظّيف، الحوار وخصائص التّفاعّل التّواصلّي، ص132.

إن القول السابق يكشف عن أهمية العرف اللغوي ودوره في تحديد الدلالات الضمنية للفعل اللغوي المباشر وغير المباشر، فلو أن المستمع ينتمي إلى جماعة لغوية غير جماعة المتكلم لما تمكن من فهم المقاصد والدلالات الضمنية للتركييب اللغوية، ومع وجود ذلك الفارق اللغوي وحدت الاجتماعي يصبح الاختلاف عائقا يحول دون تحقيق التفاهم وأكثر من ذلك تعطيل فائدة الكلام أو انعدام التواصل بسبب غلق قناة المرور بين طرفي الخطاب من جهة ، وبين ظاهر الخطاب وباطنه من جهة ثانية، وربما هذا ما يستدعي وجود > قناة مرور بين المعنى المباشر والمعنى غير المباشر، تكون بمثابة مبرر أو حجة تبين سبب اعتماد المتكلم على تركيب مضاعف أو مزدوج الدلالة... والمتكلم هو الذي يسعى إلى هذه القناة، وقد تكون هذه القناة شكلية أو معنوية (الأعراف، الثقافات، الفترات). <(1)

فهذه القناة هي التي تسمح للسامع بتتبع دلالة التركيب من ظاهره إلى عمقه، بالاعتماد على سلسلة من الاستدلالات التي تشكل تلازما آليا فيما بينها، بحيث يستلزم كل منها المعنى الذي يليه، ويتوقف تحديد هذه الاستدلالات على مدى تميز المستمع بمقدرة تأويلية، لعل من أهم مرتكزاتها المبدأ الإيديولوجي المشترك بين الطرفين، لأنه ولكي يتوصل المتحدثان إلى إنتاج عملية تخاطبية ناجعة، ولكي يتمكن المتكلم من إيصال أكبر قدر ممكن من الدلالات بأقل عدد من الألفاظ أو التراكيب محققا في ذلك مبدأ الاقتصاد على انتباه السامع، ينبغي أن يكون بين الطرفين شفرة معينة يصطلح عليها بالعقد التخاطبي الذي يستوجب اشتراك كل من المتكلم والمستمع في مجموعة من المعارف اللسانية اللغوية، والثقافية الاجتماعية والتي تتحدد على النحو الآتي:

– امتلاك المعرفة اللسانية (معرفة الدلالات و المعاني).

– معرفة لغوية (معرفة قواعد اللغة).

– معرفة خطابية (معرفة قواعد إنتاج الخطاب). (2)

(1) ليلي كادة، (المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية)، ص 339.

(2) المرجع نفسه، 339 .

ثم إن توفّر مثل هذه المشتركات المعرفية يسمح للمتكلّم باعتماد تقنيات الاختصار والإيجاز، والحذف والأساليب غير المباشرة في صناعة الخطاب، ولذلك يعود ابن البنّاء في تعريفه للحذف إلى أهمية السياق في تأويل المحذوف، حيث يعرفه قائلاً: >> ومنه ما يقال له الحذف، وهو أن يقتصر على عمدة الكلام ويحذف منه ما فضلة أو كالفضلة لدلالة السياق عليه.<<⁽¹⁾ وقد مثّل لذلك بحذف المضاف إليه في قوله تعالى: ﴿ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾⁽²⁾، وعلّق على ذلك قائلاً: >> فالواقع عليه العلم متروك، كأنه قال عاقبة أمركم، لأن سياق القول للتّهديد والوعيد.<<⁽³⁾

وتتّضح أهمية السياق عند المراكشي أيضا في تحديد الدلالات المستلزمة من الخطاب، ومن ذلك مثلا تبديل الطّلب بصورة الخبر، كقوله تعالى: ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يَرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلِينَ كَامِلِينَ ﴾⁽⁴⁾، يذهب ابن البنّاء في تحديده لـ لمضمون الرئيسي للآية إلى أن السياق هو الحدّ الفاصل والجازم بالدلالة المتضمّنة في القول، فهو الذي قطع بأنّ المعنى المستلزم أمر لا خبر، ونستشفّ ذلك من خلال قوله الآتي: >> فدلالة السياق قطعت على أنه أمر لا خبر، كأنه قال لترضع الوالدات أولادهنّ حولين كاملين.<<⁽⁵⁾

ويذهب ابن البنّاء في موضع مغاير من كتابه إلى أن الخطابات تتشكّل وتتباين تبعاً لاختلاف طبقات المقام والأحوال، فيكون الكلام إما إيجازاً أو إطناباً أو مساواة، وهو ما يبين عنه قوله الآتي: >> فلذلك انقسم الخطاب في البلاغة إلى الإيجاز والمساواة والتّطويل... بحسب أغراض الخطاب المختلفة بحسب الأحوال.<<⁽⁶⁾

(1) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 146.

(2) سورة التّكاثر، الآية 30.

(3) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 146.

(4) سورة البقرة، الآية 233.

(5) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 120.

(6) المصدر نفسه، ص 87.

ومن خلال ما سبق يتّضح لنا أنّ لمقامات الكلام ومقتضيات الأحوال القول الفصل في نسج الخطاب وتأويل دلالاته، وهذا الحيث ليس ببعيد عن المفهوم التداولي للغة، فمحتوى الكلام وشكله ينبغي أن يكونا مطابقين لما يقتضيه الحال، كما أنّ اهتمام ابن البناء بالسياق الذي يجري فيه الحدث اللغوي يتشابه مع > ما يلحّ عليه علم الدلالة الوصفي من ضرورة ربط الشّاط اللغوي بالسياق أو الموقف الاجتماعي الذي على ضوئه تتحدّد الدلالة؛ لأنّ الكلام إذا كان في معزل عن سياقه عدّ ضرباً من الضوضاء والعبث الذي لا معنى له، لذلك كانت الصّلة وثقى بين الكلام والموقف أو المقام الذي ينبثق فيه.<<(1)

وحاصل الطّظر فيما سبق أنّ ابن البناء كغيره من علماء العربية قد أولى للعنصر السياقي أهمية بالغة تراءت لنا في أكثر من موضع من مؤلّفه الرّوض المريع، ولعلّ جهوده هذه تتقاطع في نقاط كثيرة مع الجهود الغربية في المجال اللساني التداولي، مع >> وجود فوارق مع الرّاسات التداولية الحديثة التي أولت السياق كبير اهتمام بوصفه مسألة ضرورية وحاسمة في مجال دراسة اللّغة،<<(2) ممّا حدا بماكس بلاك أن يطلق على التداولية اسم السياقية، فهي حسب رأيه التسمية الأنسب لهذا العلم،(3) ومن هنا >> دعا إلى الاستعانة بالعوامل التداولية - غير اللسانية - كالمقاصد والأغراض وظروف الحدث الكلامي لتحديد دلالات الكلام.<<(4) وهي أمور كُنّا قد لاحظنا تواترها ضمن مشروع ابن البناء، فقد بذل جهوداً لا تقلّ شأنًا ولا مستوى عن تلك التي بذلها غيره من العلماء، حيث أسهم بدوره في صياغة نظرية عربية بلاغية تتطوي على العديد من الالتفاتك اللسانية التداولية في دراسة اللّغة والخطاب، ويبرر له ذلك اهتمامه بالعديد من الظواهر اللسانية وغير اللسانية في صناعة القول البديع، والتي شكّلت بروزاً ممّواً على السّاحة التداولية، حيث كُنّا قد تعرّفنا على بعضها في الفصل الأوّل، وسنواصل في اكتشاف أبعادها المعرفية من خلال معالجة بعض القضايا البلاغية المهمّة التي تشغل بدورها حيزاً مهمّاً في المدونة البلاغية العربية عموماً والمراكشية خصوصاً، ونحن

(1) ليلي كادة، اللّكون التداولي في النّظرية اللسانية العربية)، ص 352.

(2) المرجع نفسه، ص 353.

(3) المرجع نفسه، ص 343.

(4) المرجع نفسه، ص 343.

نتحدث في هذا السياق عن البعد الدلالي الذي نسعى فيه للكشف عن أهم العلاقات القائمة بينه وبين القطب التداولي ضمن ثنائية عربية غربية.

الفصل الثاني

الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

تمهيد:

لما كانت غايت اللغة هي التفاهم والتواصل، ولا يمكن التوصل إلى هذه الغاية إلا من خلال اللفظ والمعنى وجب الاهتمام بهذا المكون لتحقيق تلك الغاية، ومن هنا يأتي مبرر ابن البناء في توجيهه المبحثي الدلالي لعلاقات ووجوه الارتباط بين الألفاظ والمعاني، والتي قّمها في دراسته على بقية المباحث، لعلمه بأن الإيهام والغموض الدلالي الحاصل لدى المتكلم والمستمع من شأنه أن ينعكس سلبا على وضوح نص الخطاب، وعلى إنتاجه من قبل المتكلم وتأويله من قبل المستمع، حيث > يرى ابن البناء أن لكل لفظ ثلاث جهات، أو نسّمها ثلاثة مستويات مختلفة، وجب مراعاتها وتقديرها حال الخوض في أي علم، أو البحث في أي معرفة؛ منها جهة الدلالة على المعنى، ويعني بذلك العلاقة الكمية بين الألفاظ والمعاني، ومنها جهة مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود في الخطاب، أي العلاقة النسبية القائمة بين شكل الخطاب وفحواه، وهو يعني بذلك المستوى الدلالي للمصطلح.<<(1)

وعليه يذهب ابن البناء إلى أن الدلالة هي أصل الارتباط بين اللفظ والمعنى، وتثديده على هذه العلاقة الدلالية نابع من إدراكه بأن هذه الثنائية المكونة للغة البشرية لا يمكن أن يتحقق وجودها - ووجود اللغة أيضا - ولا استمراريتها الدلالية والوظيفية إلا إذا تم تداولها داخل نطاق المجتمع، فهناك علاقات متشابهة متفاعلة بين الأطراف الثلاث اللفظ والمعنى واللغة، فإذا كان أساس تحقيق اللغة لوظيفة التفاهم والتواصل هو حسن ربط المتكلم بين اللفظ والمعنى، فإن هذين الأخيرين لن يتحقق وجودهما من دون لغة ينتميان إليها، ثم إن العناصر الثلاث لن تملك طاقة التواجد الاستمراري والوظيفي (التواصلي والإفهامي) إن لم تستعمل وتتداول، ولن نتمكن من توظيف كل ذلك في خطاباتنا إن لم نملك المعرفة الكافية بمدلولات الألفاظ وسبل تشكيل الخطاب بها، وربما هذا ما جعل ابن البناء يدعو: >> إلى

(1) رضوان بنشقرن، >>البحث المصطلحي عند ابن البناء المراكشي<<، مجلة دعوة

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

وجوب التمكن من مدلولات الألفاظ في مختلف أوضاعها واستعمالاتها حتى تحصل في العقل، وتدرك في مختلف مستوياتها، وتفاوت دلالاتها، وبعد ذلك يجوز أو يحق لك الخوض في مجالات الخطاب المتنوعة^{<<(1)>>}، ذلك أن الوقوف على المفاهيم الصحيحة لنصوص القرآن والسنة خاصة والخطابات الأخرى عامة - كما أشار إلى ذلك ابن البناء - يتطلب >>المعرفة بأساليب العربية وطرق الدلالة فيها، ومدلولات ألفاظها أفراداً وتركيباً.<<(2)>>

فقد عمد ابن البناء إلى ضبط المفاهيم والحدود والمصطلحات من ناحية الدلالة ومن ناحية الاستعمال، حتى يتمكن القارئ لكتاب الله وسنة نبيه ولكل خطاب من الوقوف على الفهم السليم لها، وهو عمل يشارك فيه علماء الأصول الذين اهتموا بدورهم بوضع قوانين عامة لذلك، حيث اعتنى المراكشي باستقراء >>الأساليب العربية وعباراتها، وما يطرأ على الكلام من عموم وخصوص، وإطلاق وتقييد وقصر، وتوكيد ونفي واستفهام، وما يدل عليه سياق الكلام جملة من إيماء وإشارة وتبنيه وفحوى، وأمثاله<<(3)>>، واستخرج من كل ذلك قواعد لضبط الخطاب الشرعي والخطابات بجميع أنواعها.

ومما أكدّه ابن البناء من خلال دراسته للأساليب وأوجه الارتباط بين اللفظ والمعنى أن الدلالة ليست مجردة لذاتها، أي أنها لا تقتصر على المعاني المعجمية للمفردات بل هي دلالة استعمالية قائمة على الفهم الكلي ومدلولات الألفاظ والتراكيب وأوجه التوظيف والتداول، وهذا الأمر هو ما أكدّه المحدثون فقد ذهبوا إلى أنه إذا كان من أبرز اهتمامات علم الدلالة العناية بدراسة المعنى والكلمات فإن ذلك لا يعني >> أن علم الدلالة يهتم بالمعنى المفرد وحسب، بل هو يتوجه صوب النشاط الكلامي ذي الدلالة الكاملة من أحداث كلامية، أو من امتدادات نطقية، تكون جملاً ذات معان تتجدد عن طريق معطيات الجملة ككل وليس الكلمة

(1) المرجع السابق، ص 03.

(2) حسن هادي محمّد، (لبحث البلاغي عند الأصوليين)، رسالة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، جمهورية العراق،

1425هـ / 2004م، ص 14.

(3) المرجع نفسه، ص 15.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

المفردة التي يبني بها المتكلمون كلامهم، ولذا فإنه لا يمكن اعتبار كل منهما حدثا كلاميا مستقلا قائما بذاته. <<(1)

و يجب الإشارة إلى أن الأصوليين كانوا السابقين في تناولهم لجوانب دلالية عدّة، فكان مما أكدوه >> أن دلالة اللغة ليست ذاتية، وأنها يحددها الاستعمال وتطورها الاجتماعي. <<(2)

وحديث ابن البناء والأصوليين يشير إلى أنه سواء في إنتاج اللالات أو تلقيها إن المتكلم والمستمع ليسا مقيدين فقط بما ثبت في النظام اللساني العام للغة أو المعجم اللغوي، بل هما مطالبين بتجاوز حدوده والخروج إلى دائرة الاستعمال أي استعمال النظام اللساني داخل المجتمع، الذي يمنح بدوره أفقا موسعا من الدلالات للمتكلم، ومجالا رحبا من التأويلات للمتلقى؛ وأما شدد ابن البناء - و الأصوليون أيضا - على ذلك لعلمه بأن الدلالة اللفظية إن بقيت مقتصرة أو محتجزة في نطاق المعجم فإن ذلك يؤتي إلى تحجرها الدلالي، وقد يؤتي ذلك إلى إهمالها، أما لو دخلت اللفظة سياق التداول فإنها ستكسب مع كل استعمال مفهوما ودلالة جديدة تتباين تبعا لتباين خصائص المكان والزمان والطرف المستعمل لها، وهذا ما يطلق عليه التطور الدلالي للألفاظ بحسب المفاهيم اللسانية المعاصرة.

و ابن البناء في تناوله للمباحث الدلالية من وجهة بلاغية لسانية كان قد فوّق بين غايات البلاغيين الهادفة إلى بحث ما ينبغي >> أن يكون عليه الكلام من التعبير الجميل، وطرق أدائه وقوانينه. <<(3)

و غايات الأصوليين الذين يلجأون إلى المباحث البلاغية بغرض >> التوسل بالدراسات اللغوية والبلاغية للوصول إلى المعنى والكشف عنه في النص المنشأ، معتمدين على الاستقصاء والتحديد الدقيق للمعاني من دون التعرض للقيمة الجمالية

(1) عبد الواحد حسن الشيخ، العلاقات الدلالية والتراث البلاغي العربي (دراسة تطبيقية)، جامعة

الإسكندرية، مصر، ط1، 1419هـ/1999م، ص07.

(2) حسن هادي محمد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص15.

(3) المرجع نفسه، ص11.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

التأثيرية للّص، ولا لتكوين الأسلوب البليغ عند المنشئ كما هو غرض البلاغيين.⁽¹⁾ وغاية التّداوليين الهادفة إلى تبيان طرق استعمال نظام اللّسان؛ أي الكشف عن مختلف الدّلالات الثّانوية أو الإضافية التي تكسبها اللفظة في نسق استعمالها خارج المعجم أي داخل السياق الاجتماعي بكلّ ما يضمّه من معلومات لغوية وغير لغوية، وهذا ما يجعل من المبحث الدّلالي داخل مؤلّف الرّوض المرعب يشكّل ارتباطات وثيقة مع مبحثين مهمّين هما المبحث البلاغي إذ يمكن تسمية الدّرس الدّلالي عند ابن البناء ببلاغة الدّلالة، حيث الكشف عن المعنى بدقّة متناهية، و المبحث التّداولي. فعلى الرّغم من وجود فروقات بين المباحث الثّلاث و التي تتلخّص في الوسيلة وهدف الرّاسة، إلّا أنّ هناك العديد من نقاط التّلاقح بينها؛ فالمفهوم البلاغي للدّلالة المفهوم التّداولي يتفقان في وجوب إخراج اللّغة من حوزها العدمي أو التّجريدي إلى حوزها الدّينامي باعتبارها عنصرا تفاعليا قادرا على تحقيق وجوده، يستعمل ويكسب مع كلّ استعمال دلالات جديدة، ويمثّل في الوقت ذاته وسيلة مهمّة يمكن من خلالها أن نعيد إدراكنا وارتباطنا الحسي بواقعنا، وذلك عن طريق قوّة الفعل ولازم فعل الكلام، لننتقل بالكلام من مرحلة القول المجرد إلى مرحلة الإنشاء والإنجاز التي لن تتحقّق ما لم يملك الملفوظ دلالات مناسبة لمقام الحديث، >فخرج بذلك عن التّلفظ والتّطق إلى الفعل الخطابي وما يحقّق بالسياق من دلالات و معان....<<⁽²⁾ وبذلك نكون قد أنصفا اللّغة بإعادة النّور العملي لها، بكونها فعلا توصليا وليست مجرد ملفوظ خاو من الدّلالات أي كلام لا يحصل فائدة، وهنما يسمح بتنشيط القوّة التّوليدية للّغة التي تمكّننا من إدراك علاقات جديدة في الأشياء، فتصبح اللّغة عنصرا تنفيذيا لكلّ المخطّطات الفكرية مما يمنح إمكانية تطوّر عمليّة التّواصل، وإذا تطوّرت عمليّة التّواصل فإنّه يذتج عنها بالضرورة عادات وأعراف⁽³⁾، فبدل أن تكون اللّغة سببا في الاختلاف والغموض والضّبابية كما يذهب إلى ذلك التفكيكيون، في مقابل ذلك تكون أداة تطوير وائتلاف من خلال ما تولّده من دلالات وعلاقات على مستوى النّص ومستوى المجتمع، وذلك ما يجعل من الثّلاثية السّابقة تمثّل حلقة تفاعلية مترابطة بشكل مميز ومثير.

(1) المرجع السّابق، ص 14.

(2) ليلي كادة، المكوّن التّداولي في النّظرية اللّسانية العربية (ظاهرة الاستلزام التّخاطبي أنموذجا)، ص 334.

(3) سليم أودينة، فلسفة التّداوليات الصّورية و أخلاقيات النّفاش عند يورغن هابرماس)، ص 09.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

وعليه فقد سعى ابن البناء من خلال مبحثه الدلالي إلى ضبط علاقات الألفاظ بمعانيها، بقصد وضع الحدود الصحيحة لتحليل النصوص الشرعية وفهمها، وكذا فهم الخطابات بمختلف أنواعها والتي نظر إليها على أساس أنها وحدة كلية لا انفصال لأي جزء فيها عن الآخر، وقد تناول ذلك من جانبين جانب نظري وجانب تطبيقي.

وبتوجه ذلك إلى دراسة المنظور الدلالي يقتحم نطاق الدراسات اللسانية لما أورده من لفئات مهمة ودقيقة فيما يخص مجال دراسة علاقة المعاني بالألفاظ، وهو ما يجعل من توجهنا المبحثي توجهًا لسانيًا دلاليًا بلاغيًا، وتداوليًا، سنكشف من خلاله عن عدد من الرؤى اللسانية الحديثة والمعاصرة في المدونة المراكشية من خلال دراسته لأقسام الدلالة، وأقسام الخطاب ووجوه تصريفه، وأساليب إنتاجه وفق ما يقتضيه المقام وحال المخاطب، وكذا القوانين الخطابية التي يستند إليها كل من المتكلم والمستمع أثناء العملية الخطابية.

المبحث الأول: أقسام الدلالة عند ابن البناء:

يفتح ابن البناء حديثه عن أقسام الدلالة مشيرًا إلى أن كل كلام مركب من ثنائية اللفظ والمعنى، ومشيرًا أيضًا إلى أن أوجه وطرق الارتباط بين هذين القطبين هو ما يحدد الدلالات الناجمة عنهما، فـ²الارتباط بين اللفظ والمعنى إنما هو ارتباط الدلالة، فيعتبر اللفظ بالنسبة إلى المعنى من جهة دلالاته عليه، ويعتبر المعنى بالنسبة إلى اللفظ من جهة ما هو مدلول اللفظ.⁽¹⁾ وبذلك يقرر ابن البناء أن أصل الارتباط بين كل لفظ ومعناه هو دلالة أحدهما على الآخر، ومتى افتقدنا هذا العنصر حصل شرح بين القطبين والتالي فساد في تركيب الخطاب.

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص75.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

ورتباط اللفظ بالمعنى يكمن في أن الأول دالّ على الثاني ومحدّد لهويته، وأما ارتباط المعنى باللفظ فيعود إلى أن الثاني هو المدلول الحاصل للأول؛ أي التّصوّر الذهني الذي ينشأ لدى الشّخص عند سماعه للفظ سواء كان في النّاخل أو الخارج، ف>> الألفاظ إنّما هي علامات أو أقمصّة للمعاني فلا يحتاج إليها العقل إلّا عند التّفاهم فقط، وهي ليست صوّراً لأشخاص المدركات كصورة البيت للبيت، وصورة زيد (التي يصوّرها المصوّر) لزيد والشّجرة، ... إنّما هي علامة للصّورة الذهنية أو قميص لها اعتاد العقل أن يقرنها (أي تلك العلامة) بها<<(1). ومعنى ذلك أنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى ليست علاقة مائية، بل إنّ الارتباط بينهما هو ارتباط عرفي قائم على المواضعة والاصطلاح.

وينبّه ابن البّناء إلى أمر مهمّ، وهو أنّ ارتباط اللفظ بالمعنى يسبقه ارتباط من نوع آخر، ويقصد بذلك الارتباط الذاتي لكلّ واحد منهما أي؛ وجودهما الذاتي قبل أن يقترنا فقبل أن يحصل أيّ ارتباط بينهما كان هناك لفظ خاوٍ لا يحمل مدلولاً، ومعنى مجرد لا دالّ عليه، ثمّ وعن طريق المواضعة المعتمدة على أوجه المناسبة بين القطبين حصل الارتباط بينهما وصارا عرفاً أو عادة كلامية متعارف عليها، وذلك ما يمكن أن نتبيّه من قول ابن البّناء: >> وهذان الاعتباران من جهة الارتباط يتقدّم عليهما بالضرورة اعتبار كلّ واحد منهما في نفسه، إذ الارتباط بينهما نسبة متأخّرة عن ذاتيهما في الوجود.<<(2)

وعليه فلقد انطلق ابن البّناء من مفهوم بديهيّ فيما يتعلّق بصورة اللفظ وحقيقة المعنى، سواء من حيث الأفراد أو التّركيب أي ومنظوره، سواء من حيث دراسة اللفظ والمعنى

(1) جبر ضومط، الخواطر الحسان في المعاني و البيان، ص40.

(2) ابن البّناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص75.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

مجردين عن الارتباط الدلالي أو دراستهما بعد ذلك الارتباط، وفي ذلك أن الدراسة الأولى متعلّقة بالألفظ من حيث كونه لفظاً، سواء من حيث حقيقة بنيته وما يتصل بها من قواعد التصريف وتنوعات الاشتقاق، أو من حيث وضعه داخل التركيب اللغوي وما يتعلّق بذلك من قواعد النحو وقوانين الإعراب.⁽¹⁾

فقد عني المراكشي - وهو ينتهج في ذلك نهج الأصوليين - بدراسة المعنى مستعينا بدراسة الفلاسفة والبلاغيين واللغويين، وذلك بغية الوصول إلى قواعد وضوابط لتحليل الخطاب الشّرعيّ من جهة والخطابات البشرية من جهة أخرى، ف>> المعنى البلاغيّ الفني هو المحور الذي قسم ابن البناء على أساسه الكلام إلى إيجاز ومساواة وتطويل وحشو وإخلال، وعلى أساسه أيضاً عرف البلاغة والفصاحة.⁽²⁾ فالمعنى في ارتباطه بالألفظ يشكّل أساساً متيناً يستند إليه للمتكلّم في تشكيلاته التعبيرية والصّور البديعية التي يترجمها في أساليب متنوّعة يسوقها بحسب مقام الحديث وحال متلقّيه، ذلك أنّ المعنى >> مقتر و راسخ في ذهن الأديب، ثم تأتي الصّورة اللفظية لتزيح غه الحجاب وتنقله إلى المتلقّي، وبناء على ذلك التّصوّر فقد أصبح النّظر إلى المعنى وإعداده مرحلة أو خطوة أولى من خطوات الإبداع.⁽³⁾ وسبل الإبداع كما يذهب إلى ذلك ابن البناء غير منحصرة في نموذج أو سبيل واحد، بل هي تختلف باختلاف مقاصد المتكلّم وأغراضه ومقتضيات المقام ف>> إذا تبين أنّ المعاني قد تكون مواجهة نحو الغرض، والأغراض لا تنحصر فتقسيم الصّناعة بحسب الأغراض غير منحصرة من جهة المعنى.⁽⁴⁾

(1) عبد العزيز الدّباغ، >> الرّوض المريع من روائع مخطوطات خزّانة القرويين <<، ص 01.

(2) سعاد فريح صالح الثّقفي، لمصطلح النّقدي و البلاغي عند ابن البناء المراكشي، ص 158

(3) المرجع نفسه، ص 158.

(4) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 89 - 90

ويهدف ابن البناء من بحثه لتلك العلاقات إلى تحديد الضابط السليم لتأويل وفهم الخطاب الشرعي، عن طريق معرفة كيفية التفاوت في الدلالة، ولعل ذلك ما جعله يقسم الدلالات باعتبارات كثيرة، كان قد نهلها من تقسيمات الأصوليين الذين استمواها بدورهم من المنطقيين.

1 - دلالة العبارة من جهة أصل الوضع:

يذهب ابن البناء إلى أن اللفظ في دلالاته على المعنى من جهة حقيقة وضع الأول بإزاء الثاني ينقسم إلى ثلاثة أقسام؛ دلالة بالمطابقة، ودلالة بالتضمن، ودلالة بالالتزام، وهذا التقسيم مستمد من كتب علمي المنطق وأصول الفقه التي يبدو واضحاً أن ابن البناء قد تمكن منها فهما ودراسة واستيعاباً.⁽¹⁾

أ - دلالة المطابقة:

وقد حددها ابن البناء بقوله: >> وهي دلالة اللفظ بوضعه على جملة المعنى كدلالة لفظ البيت على جملة البيت << أي؛ أن أساس الارتباط بين النال والمدلول، أو اللفظ ومعناه هو العلم بالوضع⁽²⁾.

- وهي عند أهل العربية والأصول: كون اللفظ بحيث إذا أطلق فهم المعنى منه، للعلم بالوضع⁽³⁾. ويقصد بالوضع هنا جلي الشيء بإزاء آخر، بحيث إذا فهم الأول فهم الثاني⁽⁴⁾. وقد مدّل ابن البناء لذلك بدلالة لفظ البيت على جملة معنى البيت، وهو يشير هنا إلى أن أصل الارتباط بين اللفظ ومعناه هو ارتباط وضعي تم عن طريق الاصطلاح أو المواضعة

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، مقمة المحقق، ص 22.

(2) المصدر نفسه، ص 75.

(3) حسن هادي محمد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص 30.

(4) المرجع نفسه، ص 30.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

فقط وليس ارتباطا مائيا أي؛ أن لفظ البيت لا يشكّل جزء مائيا من معناه. ومن ذلك أيضا دلالة زيد علما على رجل، وكدلالة الإنسان على الكائن الحي الناطق.

- وسميت مطابقة بالتطابق دلالة اللفظ على تمام المعنى المراد منه.⁽⁵⁾

ب - دلالة التضمن:

وقد حددها ابن البناء بأنها: >> دلالة اللفظ على جزء المسمى كدلالة لفظ البيت على السقف⁽¹⁾. ويقصد بذلك دلالة اللفظ على المسمى الذي يكون مركب، ولكنه لا يدل على كل المسمى بل على جزء منه فقط، ومن ذلك دلالة لفظ الإنسان على الكائن الناطق فقط. فمدلول البيت مثلا يتركب من الأساس والسقف والحائط إلى غير ذلك لكن اللفظ هنا اختص في دلالاته على جزء منه فقط، فهذا النوع من الدلالة يتجه من العموم إلى الخصوص بحيث يكون اللفظ عاما يتضمن أو يحتوي مدلولا أخص منه.

- وتجب الإشارة هنا إلى أن >> دلالة التضمن لا يمكن وجودها إلا في مركب، والمركب ما يراد بالجزء منه دلالة على جزء معناه المقصود، أما إذا كان المعنى مفردا بأن كان له جزء، والجزء لم يكن مقصودا في ذاته فلا وجود لدلالة التضمن.⁽²⁾

- ودلالة المطابقة أكثر من التضمنية وجودا في اللغة، لجواز أن يكون المدلول بسيطا لا جزء له يتضمنه.⁽³⁾

ج - دلالة الالتزام:

وهي بحسب ابن البناء >> دلالة اللفظ على لازم المسمى، كدلالة لفظ الحائط على الأساس، وكدلالة لفظ الفعل على الفاعل.⁽⁴⁾ أي أن العلاقة بين اللفظ ومدلوله هي علاقة لزومية،

⁽⁵⁾ المرجع نفسه، ص31.

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص75.

(2) حسن هادي محمد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص31.

(3) المرجع نفسه، ص31

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

بحيث إذا ذكر اللفظ فهم عنه بالضرورة معنى محدد أي؛ >> دلالة اللفظ على خارج عن الموضوع له، لكنه لازم لمعناه لا ينفك عنه ذهنًا.⁽⁵⁾

فهناك ارتباط ذهني بين اللفظ والمدلول اللازم عنه، وهو مدلول مضاف إلى المدلول الأصلي للفظ ولا ينتمي إليه، بحيث إذا سمع المتلقي ذلك اللفظ فهم منه مباشرة معنيان؛ معنى أصلي تحدده دلالاته الوضعية، ومعنى لزومي يستنتجه المستمع بالاستناد إلى الاقتران الذهني بين الجزئين، ذلك أن العلاقة بينهما علاقة شبه حتمية ومحددة ونتجت حتميتها من كثرة تداولها فصارت توازي الدلالة الأصلية أو تضاهيها من حيث الاستعمال.

وقد مثل ابن البناء لذلك بدلالة لفظ الحائط على الأساس، فللفظ الحائط مدلول وضعي وهو ذلك الترتيب المعين للأحجار، ولكن بمجرد سماع لفظ الحائط يتبادر إلى أذهاننا مباشرة معنى قرين أو لازم عنه وهو مدلول الأساس ذلك أن لكل حائط أساس يقوم عليه، والأمر ذاته بالنسبة للفعل والفاعل فالفعل كما هو معروف هو ما دلّ على حدث مقيد بزمن، لكن بمجرد سماع لفظ الفعل يلزم عنه في أذهاننا وجود فاعل قام بذلك الفعل، لأن العلاقة بين الطرفين علاقة لزومية أو حتمية فلا فعل من دون فاعل.

وابن البناء في تحديده لهذا القسم من الدلالة اكتفى فقط بتعريفها، ولم يشر إلى تقسيمات اللزوم كما أوردها الأصوليون والمنطقيون؛ حيث ينقسم اللزوم عندهم باعتبارات متعددة إلى عدة أقسام:

- فباعتبار حصوله في الذهن والخارج قسم إلى ثلاثة أقسام؛ لزوم ذهني وخارجي كلزوم الشجاعة للأسد، ولزوم ذهني فقط كدلالة الأعدام على ملكاتها (كملكة الذكاء، والشجاعة وعدمهما)، ولزوم خارجي فقط كلزوم السواد للغراب.⁽¹⁾

- وقسموه من حيث الوضوح والخفاء إلى قسمين؛ لزوم غير بين، وهو ما يحتاج فيه إلى دليل حتى تتأكد العلاقة بين اللازم والملزوم، كلزوم الحدوث للعالم⁽²⁾ وذلك لأن العلاقة بين

(4) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص 76.

(5) حسن هادي محمّد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص 31.

(1) المرجع السابق، ص 32.

الطرفين هي علاقة غامضة وغير صريحة. ولزوم بّين؛ وفيه تكون العلاقة بين اللّازم والملزوم واضحة ولا يحتاج إلى دليل لإثباتها، كلزوم الزوجية للفظ أربعة⁽³⁾.

2 - دلالة العبارة من جهة التخاطب:

قسّم ابن البناء الدلالة من جهة أسلوب التخاطب ومن جهة الدلالات التي يمكن أن يفهمها السّامع من الإرسال الموجّه إليه إلى ثلاثة أقسام؛ منطوق ومفهوم ومعقول، وكل قسم من هذه الأقسام مرتبط بنوع معنّ من المعاني التي نتخاطب بها في حياتنا اليومية. وهذا القسم الذي تعرّض له المراكشي كان قد بحثه المنطقة قبله.

والخلفية التي ينطلق منها ابن البناء في مباحثه الدلالية هي خلفية دينية مرتكزها الخطاب الشّوعي الذي يسعى دائماً إلى صونه من خلال توضيح القواعد السليمة لاستنباط معانيه، ذلك أنّ >> كتاب الله نزل بالعربية، وينبغي فهمه بحسّ أهلها، واللّغة وعاء للفكر، فلعلّ هنا دور كبير في التّمييز وإدراك الفروق، كما يحتاج التّأويل إلى وسائل معرفية لا تتوفر إلا لمن تمرّس بحياة الشريعة، و باللّغة التي كتبت بها، وله إدراك قويّ لوجوهها.<<⁽¹⁾ وهذا الأمر نبّه له ابن البناء في بداية حديثه عن الدلالة قائلاً: >> ولهذا وجب تقديم معرفة مفردات اللّغة وصناعة اشتقاق ألفاظها وتصريفها، ومعرفة تركيب أجزاء القول منها وقوانين إعرابها ونحو اشتقاقها، فإنّ ذلك هو المتقدّم والمبتدأ لهذه الصّناعة البلاغية.<<⁽²⁾

هذه المعرفة التي يمتلكها كل من المتكلّم والمستمع هي التي تمكّن المتكلّم من صناعة القول البديع ذي الدلالات السليمة، وهي التي تسمح للمتلقّي باتّباع طريق سديد للتّأويل، ذلك أنّ للتّأويل أهمية كبيرة في فهم الخطاب، >> فهو يعرض للألفاظ وللتراكيب من حيث إفادتهما للمعنى الذي يمكن التّوصّل إليه مشتقاً مع الفكرة العامّة للأسلوب، وما بين الألفاظ من

(2) المرجع نفسه، ص 32.

(3) المرجع نفسه، ص 29.

(1) المرجع السابق، ص 271.

(2) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 75.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

صلات،⁽³⁾ وقد نبه الشافعي بدوره إلى ضرورة دراسة لغة النص وطاقاتها وخصائصها وأساليبها في الأداء، حتى يمكن التوصل إلى الدلالة بالمنطوق أو بالمفهوم...⁽⁴⁾

أ - دلالة المنطوق:

ونشير بداية إلى أن ابن البناء قد اكتفى بذكر الأقسام ولم يعم بتعريفها، ولعل ذلك تفاديا منه لتكرير ما قاله السابقون.

ويقصد بدلالة المنطوق الدلالة الحرفية للفظ على معناه أي؛ أن السامع في تلقيه للخطاب لا يفهم منه معنى آخر غير معناه الحقيقي أو الأصلي الذي تتلاقى فيه المعاني بظاهر ألفاظها وحرفيتها.⁽¹⁾ وذلك كأن يقول صديق لتابعه في مقام التوفيق بإنسان أو التودد إليه (لا تعبس في وجه زيد) ، فالسامع هنا يفهم من حرفية النص معنى وحيد وهو >> النهي عن العبوس في وجهه.⁽²⁾

وهذا النوع من الدلالة يوافق المفهوم الغربي للمعنى كما قسمه جرایس ؛ فقد قسم كل من جرایس وصادك (في شكل مشجر) المعنى إلى منطوق ومفهوم، وقد قاما بتفريع المفهوم إلى وضعي وغير وضعي، وفرعا غير الوضعي إلى تخاطبي وغيره، كما يتفرع المفهوم التخاطبي عندهما إلى عام وخاص⁽³⁾. وهذه التقسيمات توافق تلك التقسيمات التي أوردها العرب ولاسيما الأصوليون في مباحثهم الدلالية.

فإذا ما عدنا إلى مفهوم المعنى الوضعي عند جرایس وجدناه يؤتي المفهوم نفسه لدلالة المنطوق عند المراكشي؛ حيث يقصد بالمعنى الوضعي >> المحتوى الدلالي للجملة الذي يشمل مجموع المعاني القواعدية الصرفية والنحوية، والمعاني المعجمية التي

(3) حسن هادي محمد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص 271.

(4) المرجع نفسه، ص 271.

(1) المرجع السابق نفسه، ص 272.

(2) المرجع نفسه، ص 272.

(3) محمد محمد يونس علي، مقامة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتاب الجديدة المتحددة، بيروت، لبنان،

ط1، 2004م، ص 39 - 40.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

تتضمنها.⁽⁴⁾ ومن ثم فالمعنى الوضعي عند جرایس يشير إلى النسبة الخارجية للجملة أو المحتوى المنطقي للقولة.

ب - دلالة المفهوم:

وهو مستلزم المعنى الأول (المنطوق) الذي ينتقل الذهن إليه فور سماعه للفظ الخطاب، وهذا النوع من الدلالة لا يحتاج فيه إلى تأمل أو تفكير حتى يتوصل المستمع إليها، ذلك أن العلاقة بين اللفظ ومفهومه هي علاقة لزومية في ذهن السامع وراسخة، وما سمح بترسخ هذه العلاقة هو كثرة تداولها فعبارة لا تعبس في وجه زيد تحمل مدلولين؛ مدلول حرفي أصلي يتمثل في النهي عن العبوس، ومدلول لزومي يتمثل في النهي عن إيذائه أو ضربه أو إهانته.

وهذا القسم من الدلالة يوافق قسما آخر من أقسام المعنى عند جرایس، ونقصد بذلك " معنى المفهوم الوضعي"؛ وهو تعريف سلبي عنده يشمل مجموعة غير متناغمة من المعاني التي لا يجمع بينها غير كونها لا تدخل في المنطوق⁽¹⁾.

ويرتبط تفريق جرایس بين المنطوق والمفهوم كما يذكر هورن بالتفريق التقليدي بين صيغة الجملة المرتبطة بنسبتها الخارجية، ومحتواها الذي لا يرتبط بنسبتها الخارجية، ومن خصائص هذا المعنى المفهوم أنه لا يفسر في ضوء السياق الذي قيل فيه، أما كونه منطوقا فلكونه لا يندرج في النسبة الخارجية للقولة التي يفهم منها.⁽²⁾

ويوافق أيضا المنطوق غير الصريح عند سبرو وولسون اللذين انتقدا جرایس، حيث ذهبوا إلى أن بعض ما عنده جرایس من المفهوم - ويقصدان المفهوم الوضعي - هو في الواقع

(4) المرجع نفسه، ص 40.

(1) المرجع السابق، ص 41.

(2) المرجع نفسه، ص 52.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

من قبيل المعنى غير الصّوح الذي قصره على ما كان ناشئاً من صيغة منطقية ضمن تركيبية القولة⁽³⁾.

ج - دلالة المعقول:

ويقصد بها الدلالة التي يمكن أن يتوصّل إليها المستمع بعد إعمال عقله، أي بعد التّفكّر والتأمّل، وهي دلالة ضمنية أي غير صريحة يتوصّل لها بالاستناد إلى السياق والقرائن التي تعطي دوماً مفهوماً جديداً إضافة إلى المفهومين السّابقين، ذلك أنّ القرائن >تجعل المتكلّم يسكت عن أشياء، أو يحذف عناصر من الكلام مكتفياً بدلالة القرائن، حتّى يتمكّن السّامع من فهم المسكوت عنه أو المحذوف... بشيء من التّدوّر وقد يفهم كذلك المعنى المقابل.<<⁽¹⁾ ولذلك نبه ابن البّناء إلى ضرورة العودة إلى العرف والإنصاف والدين لتحديد مدلول الخطاب قائلاً: >> ويستدلّ على المقاصد بالقرائن، ومنها سياق الكلام، وهو ربط القول بالعرض المقصود من غير تصريح به. والقرائن لا يستدلّ عليها، إنّما يرجع فيها إلى العرف والإنصاف والدين.<<⁽²⁾

إنّ القول السّابق ينبئ عن إدراك المراكشي لقيمة السّياق ودوره في فهم الخطاب والتوصّل إلى مقاصده، >> وهو الأمر الذي يؤكّده اللّغويون المحدثون في مباحث علم الدلالة من ضرورة دراسة النّصوص ضمن السّياق الذي وردت فيه.<<⁽³⁾

وتقابل دلالة المعقول عند ابن البّناء ما يعرف بالمفهوم التخاطبي عند جريس؛ حيث يقصد به كل ما يستنتج من قولة ما - علاوة على النّسبة الخارجية التي تشير إليها -

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص 52.

⁽¹⁾ ليلي كادة، الإكّون التّداولي في النّظرية اللّسانية العربية)، ص 310.

⁽²⁾ ابن البّناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 123.

⁽³⁾ حسن هادي محمّد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص 359.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

بالاعتماد على أصول التخاطب، وليس بالرجوع إلى المعاني الوضعية أو الاستنتاجات المنطقية⁽⁴⁾.

إن قول جرایس السابق يبين بوضوح الفرق بين المفهوم الوضعي (المنطوق + المفهوم) والمفهوم التخاطبي (دلالة المعقول)؛ فالمفهوم الوضعي يتحصّل عليه بالاستناد إلى المواضع اللغوية، أما المفهوم التخاطبي فيستنبط من القولة عن طريق القيام بعملیات عقلية محكمة بأصول التخاطب أو بالعودة إلى السياق. ومثال ذلك التعبیر المستفادة من الكناية فلا يستطيع المتلقّي التوصل إلى المعنى المقصود إلا بعد القيام بجملة من العملیات العقلية، فحينما نقول مثلا أن عبارة فلان كثير الرماد تدلّ على الجود والكرم فلكي يتوصل المستمع إلى هذا المقصود فلا بدّ من أن يحدّد أوجه الترابط بين صيغة كثير الرماد والمعنى المستلزم منها وهو الجود والكرم، ولا يكون له ذلك إلا إذا علم بأن هذه العبارة قد قيلت في سياق محدّد هو سياق المدح وضمن مجتمع محدّد وهو المجتمع العربيّ الجاهليّ الذي يفخر بحسن الضيافة، ثم يدرك أنّ كثرة الرماد تشير إلى أنّ ذلك الشخص يطبخ كثيرا، ومادام كثير الطبخ فذاك يعني أنّه شخص مضياف ومادام كذلك فهو كريم.

وبناء على ما سبق نجد أنّ المفهوم التخاطبي لا يستمدّ دلالاته من المنطوق بل من الطريقة التي يقال بها كما أنّه ظنيّ الدلالة⁽¹⁾؛ أي أنّ دلالاته ليست قطعية لأنها متعلّقة بذات المتلقّي وطرق استنتاجاته العقلية، ولذلك فإنّ المتكلّم مطالب بالحفاظ على أصالة المفهوم التخاطبي في إرساله مهما كان نوع الأسلوب الذي صيغ به الكلام، فيكون له مقصد يؤول إليه وأن يكون في طاقة المتلقّي تحديده كي لا يضلّ عن مقصده السليم، ولا يكون ذلك إلا إذا تجنّب المتكلّم الغموض والتّوعر، والإغراق والتجريد المفضي إلى الإبهام.

3 - أقسام الدلالة اللفظية من جهة أفراد المعنى و اللفظ و تركيبهما:

(4) محمّد محمّد يونس علي، مقمّة في علمي الدلالة و التخاطب، ص 48.

(1) المرجع السابق، ص 48.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

يورد ابن البنّاء في هذا القسم أقسام اللفظ بالنسبة إلى دلالاته على المعنى من حيث أفراد كل واحد منهما وتركيبه، وحديثه هذا ملخص فيما يبدو عن الغزالي⁽²⁾.
- ينقسم اللفظ عنده من حيث دلالاته على المعنى إلى أربعة أقسام:

- لفظ مفرد يدلّ على معنى مفرد، أي أن اللفظ لا يدلّ إلا على معناه الحرفي. وقد مثّل لذلك بلفظ زيد الذي لا يدلّ إلا على معنى وحيد وهو مسّاه (الشخص المسمّى زيدا)⁽³⁾.

- لفظ مفرد يدلّ على معنى مركّب: وهذا القسم يختصّ بالألفاظ المفردة التي تستعمل من باب الإيجاز إلى الدلالة على معنى عبارة بكاملها. مثل قولنا (قم) ففعل الأمر هذا يشمل مدلول الفعل ومدلول الفاعل (مغادرة المكان).

- لفظ مركّب يدلّ على معنى مفرد: كأن يكون اللفظ عبارة عن جملة لكنّا لا نفهم منه إلا مدلولاً واحداً، ومن ذلك قولنا (عبد قيس) وهو مركّب إضافي يحيل على شخص سمي بذلك⁽¹⁾.

- ولفظ مركّب يدلّ على معنى مركّب: كغلام زيد فهذا التركيب يحيلنا على مدلول أول يؤيّيه لفظ الغلام (الخادم)، ومدلول ثان يؤيّيه زيد (سيده)⁽²⁾.

وبعد فراغه من الحديث عن أقسام اللفظ اتّجه ابن البنّاء إلى الحديث عن أقسام الكلام المركّب، وقد جعلها في أربعة أقسام:

✓ تركيب تقييد واشتراط:

⁽²⁾ ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، مقمّة المحقّق، ص 23.

⁽³⁾ المصدر نفسه، ص 76.

⁽¹⁾ المصدر السّابق، ص 76.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 76.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

ويُقصد به الكلام المركب من أجزاء بسيطة يعتبر كل جزء منها مكملاً للآخر، فهي تؤلف مركب في حكم المفرد⁽³⁾. ومن ذلك المركبات الإضافية التي يتبع فيها المضاف المضاف إليه، والتوابع مثل النعت والمنعوت؛ حيث لا تكتمل دلالة المضاف إلا باقترانه بالمضاف إليه، ولا يتضح المنعوت ولا يفك عنه الإبهام إلا بوجود النعت.

✓ تركيب طلب:

ويعني به المركبات الإنشائية والأساليب الطلبية، وقد حدده في ثلاثة أقسام:

- إما طلب الفعل⁽⁴⁾؛ أي الأمر بفعل الشيء.

- ولما طلب الترك⁽¹⁾؛ أي النهي أو طلب الكف والامتناع.

- ولما طلب القول بالاستفهام⁽²⁾؛ أي طلب حصول معرفة عن شيء نجهله.

✓ تركيب التنبيه:

ويشمل المركبات غير الطلبية وهي أساليب إنشائية لكن لا يطلب بها أي معرفة أو حصول فائدة أو شيء ما، يأتي بها المتكلم فقط للتعبير عن مقصوده، وقد أدرج ابن البناء ضمنه بعض المركبات الطلبية، >وجعل من أقسامه النداء والترجي والتمني<>⁽³⁾.

✓ تركيب إخبار:

(3) حسن هادي محمد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص 34.

(4) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 77.

(1) المصدر السّلبق، ص 77.

(2) المصدر نفسه، ص 77.

(3) المصدر نفسه، ص 77.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

وهو القسم الأخير من أقسام الكلام المركب كما حددها ابن البناء؛ ويقصد به المركبات الكلامية التي يهدف المتكلم من خلالها إلى تقديم فائدة أو معرفة معينة لمتلقيه، وهي بذلك تحتل الصدق والكذب على خلاف المركبات السابقة (الثاني والثالث) التي يسعى المتكلم من خلالها إلى تحصيل غاية ما وهي لا تحتل الصدق ولا الكذب.

ولقد فرّق ابن البناء في هذا القسم بين الأخبار الجازمة وغير الجازمة قائلاً: >> والرابع الإخبار، وهو على قسمين: جازم كالمبتدأ وخبره والفعل وفاعله، وغير جازم كالشروطيات المتصلة والمنفصلة، وكل واحد منها إما ثابت كقولنا: زيد قائم، ولما منفي كقولنا زيد ليس بقائم. <<(4)

ويوضح ابن البناء أن السنة في تركيب الأخبار إما أن تكون واجبة (ضرورية الحصول)، أو ممتنعة (يستحيل وقوعها)، أو ممكنة (ظنية الوقوع) وذلك كله بالنسبة إلى الارتباط الذهني بين المركبات ومدلولاتها، كما قام بتقسيم الممكن إلى خمسة أقسام باعتبار تحقق وقوعه أو عدم تحققه، >> وفي هذا التقسيم ظل لأثر ابن سنان الخفاجي والإمام الغزالي، لأنهما ممن بحثوا في الأحكام الخمسة وهي الوجوب والاستحالة والمنع والإمكان والجواز وما يتعلق بها والفرق بينها، وكان منهج ابن البناء وعباراته ونظريته مشابهة لما هو عند الخفاجي والغزالي. <<(1)

4 - مراتب الدلالة:

في هذا القسم يوازي ابن البناء بين مراتب دلالة الألفاظ ومراتب الوجود، وهو في ذلك ينتهج نهج الإمام الغزالي في بيانه بأن >>رتبة الألفاظ من مراتب الوجود <<(2)

وقد أشار إلى ذلك أيضا حازم القرطاجني الذي وضّح بدوره منزلة وجود المعاني في هذا المربع الدلالي. (3)

(4) المصدر نفسه، ص 77.

(1) المصدر السابق، مقنمة المحقق، ص 24.

(2) محمد محمد يونس علي، مقنمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص 17.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

- يقول ابن البناء في هذا القسم من الدلالة: >> وتعتبر المعاني من حيث هي في الأذهان فقط، أو من حيث هي في الأعيان خارج النفس، أو من جهة نفس الأمر من حيث هي حقائق فقط، لا بالنسبة إلى ذهن ولا إلى خارج عنه.<<⁽⁴⁾ وقوله هذا يُبين عن العلاقة التي ينتقل فيها المعنى من حالة تجريدية غير محدّدة بدوال إلى حالة محسوسة يجسدها فعل الكلام بعد تشكّلها في ذهن المتكلم. فقد >> حَلّ المراكشي في رسالته المركّزة "مراسم الطريقة في فهم الحقيقة من حال الخليفة" منهج المعرفة تحليلاً دقيقاً، فبين كيفية انتقالها وإدراكها بالحواس إلى إدراكها بالعقل، كما فرّق بين إدراك ماهو محسوس، وبين إدراك ما هو ليس بمحسوس،<<⁽⁵⁾ وقد قاده هذا التحليل إلى نتيجة مفادها أن معرفة المحسوسات تمرّ بمرحلتين:

- الأولى هي مرحلة ارتسام الصّور الخيالية للمحسوسات في النفس.

- والثانية هي مرحلة تصرّف القوّة المفكّرة في تلك الصّور تركيباً وتفصيلاً، وتجريداً يرمي إلى تخليص ماهية الشّيء المحسوس من مشخصاته في سبيل إدراك الأمر الكلّي الجامع لمختلف المشخصات الفردية.⁽¹⁾

وهذه المراحل يمكن أن نتبينها من خلال قول ابن البناء: >> فالنفس إذا توجّهت نحو المحسوسات وأدركتها ارتسّمت عنها في النفس صور خيالية، وبعد ذلك تتصرّف بالقوّة المفكّرة تركيباً وتفصيلاً، وتخلص ماهية الشّيء المحسوس من مشخصاته وتدرّك الأمر الكلّي الذي وقع بتشابه الجزئيات، وإذا توجّهت نحو ما ليس بمحسوس لها، سواء كان شأنه أن يحسّ أو ليس من شأنه أن يحسّ فلا بدّ من وضع علامة في النفس تنزل عندها منزلة الصّور المتخيّلة من المحسوسات ويسمّى هذا الوضع توهُّماً.<<⁽²⁾

يذهب ابن البناء إلى أنّ الدلالات تنقسم بحسب العقل إلى ثلاثة أقسام:

⁽³⁾ المرجع نفسه، ص 17.

⁽⁴⁾ ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 77.

⁽⁵⁾ رضوان بنشقرون، >> البحث المصطلحي عند ابن البناء<<، ص 03.

⁽¹⁾ المرجع السابق، ص 3.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ص 4.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

أ - دلالات الأعيان:

ويُقصد بها المعاني التي تدرك بالحواس والتي تقع خارج النفس، وهي تطابق المعارف الواقعة خارجة النفس والذهن.

ب - دلالات الأذهان:

ويقصد بها المعاني الذهنية أو المدركات العقلية؛ أي التصورات الذهنية للمحسوسات وغيرها، وهذا النوع من الدلالات كان حازم القرطاجني قد فصل فيها القول، >> وأبان فيها استثماره لآليات النحو من تركيب، وترتيب وإسناد، وتنظيم التي تدل على إعطاء أهمية الترتيب والترتيب لعمل العقل وإنتاجه، وهو نوع من تأسيس المعرفة، والعلاقة مع الخارج ولكن انطلاقاً من الداخل <<(3).

ج - حقائق مجردة:

ويقصد بها تلك المعاني الغيبية التي لا تدرك بالعقل ولا بالحواس، ولكن في الآن ذاته هي حقيقة واقعة لا يمكن إنكارها، ومن ذلك الأمور التي تتعلق بالآخرة والحساب التي يكون علمها عند الله لكن نصق بوجودها انطلاقاً من تصديقنا بوجود الله.

ويذهب الفلاسفة والمناطق إلى أن وجود الأشياء يتجسد في أربعة أنواع:

- الوجود الذهني: وهو وجود صورة للشيء المتحتم عنه في الذهن (1) وهذا الوجود يُعادل الدلالة الذهنية عند ابن البناء، ويظهر ذلك حين يستدعي ذكر كلمة إنسان مثلاً صورة مجردة تلخص أشكال كل الناس الذين رأهم في حياته.

- الوجود الخارجي للشيء: وهو وجود أفراد البشر مثلاً بكل أجناسهم وألوانهم وأشكالهم في الواقع الخارجي (2). وهو يعادل دلالات الأعيان عند ابن البناء .

(3) سعاد صالح الدَّقفي، (المصطلح النَّدقي والبلاغي عند ابن البذَاء المراكشي)، ص 157.

(1) محمد محمد يونس علي، مقنمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص 17.

(2) المرجع نفسه، ص 17.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

- الوجود اللفظي: وهو وجود أصوات الكلمة التي على صورته الذهنية وتستدعيها في دماغه ويشار بها إلى أفراد ذلك الشيء في العالم الخارجي، وذلك كلفظة إنسان.⁽³⁾

- الوجود الكتابي: وهو وجود حروف هجائية مكتوبة تدلّ على الكلمة المعنية بحروف كلمة إنسان.⁽⁴⁾ ولم يشر ابن البناء إلى الدلالات اللفظية لأنه كان قد تحدّث عنها في دلالة المنطوق، كما لم يتعرّض أيضا لمسألة الكتابة والخط التي ذكرها حازم أيضا، ولعلّ ذلك يعود إلى اعتباره أن الكتابة كرمز لا تشكّل بالضرورة مدلولاً على دال، وإن كان ابن البناء قد فسّر الآيات القرآنية انطلاقاً من رسمها الخطّي.

والشائع عند علماء الدلالة واللسانيين عامّة الاقتصار على الأنواع الثلاثة الأولى دون الرابع، لأنهم لا يرون أن الكتابة جزء طبيعي من اللغة البشرية الطبيعية، بل هي عملية اصطلاحية اصطناعية لرموز حرفية لا تمثّل بالضرورة الأصوات المنطوقة.⁽¹⁾

وتعدّ هذه المراتب الدلالية التي أوردها ابن البناء لفئات لسانية مهمّة نجد لها حضوراً ممّزاً في الدراسات الدلالية الحديثة، حيث يعدّ أوجدن وريتشاردز من أوائل من وضع هذه الأنواع الثلاثة في شكل مثلث عرف بالمثلث الدلالي:



⁽³⁾ المرجع نفسه، ص 18.

⁽⁴⁾ المرجع نفسه، ص 18.

⁽¹⁾ المرجع السابق، ص 18 - 19.

⁽²⁾ المرجع نفسه، ص 19.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

وقد اختار أوجدن وريتشاردز مصطلح الفكرة أو الإشارة للتعبير عن الصورة الذهنية وهو يوافق مصطلح المفهوم الشائع في التراث العربي لاسيما عند المناطقة والفلاسفة ، وتعبير المفهوم أو الصورة الذهنية أنسب من مصطلح الفكرة أو الإشارة .⁽³⁾

ونشير في خاتمة هذا الجزء إلى أن تقسيمات المناطقة والأصوليين وابن البناء توافق ما ذهب إليه الباحثون العرب المحدثون وما توصل له الباحثون الغربيون في هذا المجال، >> الأمر الذي توصل إلى قريب منه بيرس ، إذ قسم العلامة الدالة إلى أيقونة، وشاهد ، ورمز وهي تقسيمات تقترب كثيرا من أنواع الدلالات عند العرب (الطبيعية والوضعية، والعقلية)^{<<(4)} فالسيميائية عند بيرس تنطلق من التركيب الثلاثي للعلامة:

1 - الماثول وهو الدال.

2 - الموضوع وهو الشيء الخارجي.

3- التعبير وهو الصورة الذهنية أو المفهوم⁽¹⁾.

كما أن تقسيم ابن البناء للدلالات إلى مفهوم ومعقول ومنطوق هو تقسيم يوافق تصنيف أوستن الحديث لفعل الكلام الأصلي أو العبارة، حيث يذهب إلى أن الفعل اللغوي >> كجنس عام ينظر له من ثلاث جهات: التلفظ، والنطق والخطابة، يختص فعل التلفظ (دلالة المنطوق) بمخارج الحروف المائية، ويتعلق فعل النطق (دلالة المفهوم) بمقاصد العبارة، أما فعل الخطاب (المعقول) فيهتم بمقاصد المتكلم الخارجة عن العبارة والمفهومة من السياق^{<<(2)}.

(3) المرجع نفسه، ص19.

(4) حسن هادي محمد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص30.

(1) المرجع السابق، ص30.

(2) العبد آشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التداول اللساني (من الوعي بالخصوصيات الذوعية للظاهرة إلى وضع القواعد الضابطة لها)، دار الأمان، الرباط، ط1، 1432هـ/2011م، ص82.

المبحث الثاني: الخطاب وجوه وقوانينه:

بعد فراغ ابن البناء من الحديث عن الدلالات وأقسامها انتقل إلى الحديث عن أقسام الكلام وصفاته وأسباب غموضه، مقررًا في بداية حديثه أن الكلام ينقسم في عمومته إلى قسمين؛ قسم نثري وآخر شعري، ثم إن هذين القسمين يُستعملان في وجوه عدة تتباين تبعًا للغاية التي من أجلها سيق الخطاب، وكذا درجة اقتناع المستمع، فنجد البرهان والجدل، والخطابة، والشعر، والمغالطة.

والتقسيم الذي أورده ابن البناء هو تقسيم قديم عرف عند الفلاسفة والنقاد المسلمين منذ القديم، من قدماء اليونان إلى ظهور المفكرين المسلمين الكبار، كابن وهب وابن سينا وابن رشد، على ما نجده بين هؤلاء من تفاوت واختلاف في ذكر الأسماء وتنوع الأقسام والمناحي.⁽³⁾

فابن رشد مثلاً يرى أن الدلائل الخطابية تصف إلى ثلاثة أصناف؛ >> فهناك الدلائل الخطابية والدلائل الجدلية، والدلائل البرهانية، ويذهب إلى أن طباع الناس متفاضلة في التصديق؛ فمنهم من يصتق بالبرهان ومنهم من يصتق بالأقاويل الجدلية، ومنهم من يصتق بالأقاويل الخطابية.⁽¹⁾ ومعنى ذلك أن لكل مستمع مطلب محدد وأسلوب يقتنع به، وعلى أساس ذلك يحد المتكلم نوع الليل والخطاب الذي يخاطبه به.

والواضح مما ورد عند ابن البناء أنه متأثر إلى حد ما بحديث ابن رشد، إذ نجده بدوره يحد الوجوه الثلاث السابقة (البرهان والجدل، والخطابة) مضيفاً إليها وجهين آخرين هما الشعر والمغالطة، ويذهب إلى أن الوجوه الأولى هي من الخطابات المندرجة في باب الحق،

⁽³⁾ ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، مقممة المحقق، ص 26.

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص 27.

فيقول: >> وهذه الثلاثة أقسام هي التي تستعمل في طريق الحق <<(2) أما الوجهين الأخيرين >> فهما خارجان عن باب العلم داخلان في باب الجهل. <<(3)

1 - أقسام الكلام من حيث الصياغة:

يذهب ابن البناء إلى أن الكلام من حيث صياغته ينقسم إلى قسمين رئيسيين هما؛ الكلام المنثور والكلام لمنظوم الذي يكون خاضعا للوزن والقافية، ويقصد بذلك الشعر، ثم إن هذين الصنفين يستعملان في المخاطبات بجميع أنواعها، وقد جعلها في خمسة أنحاء، ويدبرين عن ذلك قوله: >> وينقسم القول إلى موزون مقفى وهو المنظوم، وإلى غير ذلك وهو المنثور، ويستعمل كل واحد منهما في المخاطبات وهي على خمسة أنحاء على ما أحصيت قديما. <<(4)

وحديث المراكشي عن أقسام الكلام هو حديث عن الخطاب في عمومته، والذي يقصد به كما قال الكفوي: >> الإفهام، ذلك أنه هو اللفظ المتواضع عليه، المقصود به إفهام من هو مهياً لفهمه. <<(5) وهذا المقصد الخطابى هو ما بنى عليه ابن البناء حديثه عن أوجه استعمال كل من التزم والثّر، فكل وجه من الوجوه مدرج كاستراتيجية خطابية إقناعية موجهة لمتلق ذو خصائص محددة، وعندما نقول إقناع فإنه يسبقه الفهم والإفهام ولتأثير.

2- أقسام الكلام من حيث المخاطبات:

ينقسم الكلام - بحسب ابن البناء - من حيث أنحاء استعماله إلى خمسة أوجه: >> فهناك الخطاب بأقوال اضطرارية، وأقوال مشهورة، وأقوال مقبولة، وأقوال كاذبة مخيلة، وأقوال كاذبة ولكل لون فن، فالأول هو البرهان، والثاني هو الجدل، والثالث هو الخطابة، والرابع هو الشعر، والخامس هو المغالطة. <<(1)

(2) المصدر نفسه، ص 27.

(3) المصدر نفسه، ص 27.

(4) المصدر نفسه، ص 81.

(5) أحمد مطلوب، معجم المصطلح النقدي، ص 460.

(1) المرجع السابق، ص 461.

أ - البرهان:

يقول ابن البناء معرّف البرهان: >> هو الخطاب بأقوال اضطرارية يحصل عنها اليقين >>(2) أي لجوء المتكلم إلى توظيف الأدلة والحجج التي من شأنها إثبات صحة رأيه أو التمكن لخطابه، وقد يكون ذلك بمطلب من المستمع، أو أنّ المتكلم قد يلجأ لذلك بطريقة تلقائية لمعرفته بذات مستمعه الذي لا يحصل لديه اليقين إن لم يكن الإرسال الموجه له ذو طاقة حجاجية عالية، لأن درجة إنكاره كبيرة وحصول الإقناع لديه صعب لذا وجب معادلة ذلك بخطاب محدّد كالخطاب بالقرآن الكريم أو بالحديث النبوي الشريف ذلك لأنها أحكام قطعية غير قابلة للطعن.

ب - الجدل:

وهو بحسب ابن البناء >>الخطاب بأقوال مشهورة يحصل عنها الظنّ الغالب >>(3). والجدل قسم من أقسام الشّر وأسلوب من أساليبه، وقد عرفه ابن وهب قائلاً: >> وأما الجدل والمجادلة فهما قول يقصد به إقامة الحجّة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين >>(4) فالجدل إذن هو أسلوب حجاجي يستعمل لإثبات صحة رأي قد اختلف فيه، >> وقد قسمه إلى قسمين محمود ومذموم؛ فأما المحمود فهو الذي يقصد به الحقّ ويستعمل فيه الصدق، وأما المذموم فهو ما أريد به المماراة والغلبة وطلب الرياء >>(1). أما ابن البناء فقد جعله المخاطبة بأقوال مشهورة، أي توظيف المتكلم لأقوال وخطابات متعارف عليها لدى المجتمع الواحد كالأمثال والحكم، وأقوال العلماء، ويكون ناتج هذه الخطابات هو حصول الظنّ الغالب لدى المستمع، وذلك لأنّ مثل هذه الخطابات محكوم بثقافة المجتمع والخلفيات المعرفية والعقائدية والاجتماعية للمتلقّي في حدّ ذاته، فقد يكون له ما يمكن أن يردّ به ولكن ذلك لا يكون في

(2) ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص 81.

(3) المصدر نفسه، ص 81.

(4) أحمد مطلوب، معجم المصطلح النقدي، ص 422.

(1) المرجع السابق، ص 422.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

جميع المواقف بل يَدر حصوله، ولذا كان من نواتجها الظنّ الغالب الذي هو في درجة قريبة من اليقين.

ج - الخطابة:

يحدّد ابن البناء الخطابة >> بأنها الخطاب بأقوال مقبولة يحصل عنها الإقناع <<(2). وفي هذا الوجه الخطابي يخاطب المتكلم مستمعه بأقوال مقبولة عقلا وواقعا ، وقيل مقبولة رما لأن ذلك يعود إلى أسلوب الخطيب الذي يهدف كما يقول الشريف الجرجاني من خلال اتّباعه لهذا المنحى إلى >> ترغيب الناس فيما ينفعهم من أمور معاشهم ومعادهم، كما يفعله الخطباء والوعاظ <<(3).

وابن البناء جعله للإقناع أصلا للخطابة يبيّن عن تأثره بابن سينا الذي يعرف الخطابة قائلا: >> الخطابة قوّة تتكفّ الإقناع الممكن في واحد من الأمور المفردة <<(4) ومن ثم فالخطابة على عكس الشعر تعتمد على >> تقوية الظنّ أكثر من تقوية التخييل <<(1) والتالي ف >> الشعر والخطابة يشتركان في مادة المعاني ويفترقان بصورتي التخييل والإقناع <<(2).

د - الشعر:

الشعر عند ابن البناء هو >> الخطاب بأقوال كاذبة مخيلة على سبيل المحاكاة، يحصل عنها استفزاز بالتوهّمات <<(3). يصف ابن البناء الكلام الشعري بالخطاب الكاذب لأن الشاعر فيه يتخيل ويحاكي أمورا لا وجود لها فيتركب في كلامه الكذب و الغلو، ممّا يؤتي إلى إثارة مفاهيم أو تصوّرات غير

(2) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 81.

(3) أحمد مطلوب، معجم المصطلح النّقدّي، ص 462.

(4) المرجع نفسه، ص 462.

(1) المرجع السابق، ص 462.

(2) المرجع نفسه، ص 463.

(3) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 81.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

واقعية في ذهن المستمع فتبدو له في صورة الحقيقة وما هي بحقيقة وقد سماها ابن البناء بالتوهّمات، فالشعر عند ابن البناء إذن خطاب جاهل يرتكز على التخيل والمحاكاة، وبالتالي >> فهو عبارة عن إبداع يحاكي فيه الشاعر الذات أو الواقع عن طريق وصفه ونقله، ولكن هذه المحاكاة تتجاوز الصدق إلى الكذب والمبالغة والتخيل لأن أصدق الشعر أكذبه كما عند فلاسفة اليونان. ولابد لهذا الشعر من إثارة المتلقّي واستفزازه عن طريق التّعريب والتّعجيب والتّوهيم الخيالي، وإثارة الإدهاش وتخييب أفق انتظار السّامع أو القارئ.<<(4)

ويذهب البعض من الباحثين إلى أنّ التخيل ليس مختصاً بالشعر فقط، بل يوجد في غيره من الخطابات، إلا أنّ التخيل في الشعر له خصوصية وتميّز عن غيره فيما ليس بشعر؛ >> إذ إنّ في الشعر مبني على الكذب والغلو فيما لا يسمح في غيره أن يبني عليه، فهو إذن بهذا الشكل المميّز خاصّة الشعر دون غيره<<(5) معنى ذلك أنّ التخيل إذا بُني على أمور واقعية اختصّ بخطابات عدّة، أمّا إذا بُني على الكذب والغلو كان من خصائص الشعر دون غيره، وهذا ما ذهب إليه ابن البناء قائلاً: >> فكلّ ما في التشبيه من كذب وغلو فلا يكون في الحكمة ويكون في الشعر لأنّه مبني على المحاكاة والتخيل لا على الحقائق.<<(1)

إضافة إلى تحديد مفهوم الشعر يحدّد ابن البناء في مؤلّفه مفهومًا شاملاً هو المنظوم، والذي التّجفي تحديد ماهيّة إلى السّبر والتقسيم والتّفرّيع المنطقي والتّجريد الرياضي والفلسفي، واستعمال التّعريف بالمخالفة على شاكلة المناطقة والفلاسفة(2)، حيث يحدّد مفهوم المنظوم قائلاً: >> فالمنظوم إذن يكون شعراً وغير شعر، كما أنّ الشعر يكون منظوماً وغير منظوم، وأهل العرف يسمّون المنظوم كلّ شعراً، ولا يسمّون شيئاً من المنثور شعراً، فعرض من أجل ذلك اشتراك في اسم الشعر.<<(3) فالخطاب المنظوم عند ابن البناء إذن خطاب شامل

(4) جميل حمداوي، «المدرسة المغربية في النّقد العربي»، ص 100.

(5) المرجع نفسه، ص 100.

(1) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 103.

(2) جميل حمداوي، «المدرسة المغربية في النّقد العربي»، ص 96.

(3) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 82.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

لأصناف كلامية عدّة منها ما يكون شعرا ومنها غيره، كما أن الشعر في حد ذاته ينقسم إلى منظوم وغير منظوم، وقد أشار المراكشي إلى أن العرب تصطح على المنظوم كلّ مصطلح الشعر.

وتجب الإشارة إلى أن ما >> تعرّض له ابن البناء ما يزال إلى الآن موضوعا قائم الذات، نظرا لكون مفهوم الشعر في أنواع الخطاب كان مجالا للحديث عنه، من حيث كونه يعتمد على الخيال يوثير التوات لا من حيث كونه يعتمد على الوزن والقافية<<⁽⁴⁾ لكن كثرة تداول مصطلح الموزون المقفّي جعلت أهل العرف يصط لحن على التزم مصطلح الشعر، واشترطوا فيه عدم احتوائه على تخيل كاذب، لأنه >> إذا دلّ على حكمة عقلية أو عر عن تجربة ومعاناة، ولم يعمد إلى التوليد والخيال وكانت معانيه مقبولة أبقوه... <<⁽⁵⁾ ومعنى ذلك أن الشعر إذا عر عن تجربة واقعية بعيدا عن التوهم والكذب كان معترفا به، أما إذا لجأ إلى التخيل والتوهم شدّ عن الخطابات الداخلة في الحق.

وإذا كان البعض يقومون بتصنيف الشعر إلى حقّ وجهل بالظنر إلى موضوعه وأسلوبه في التعبير، فإن ابن البناء لا يرتضي هذا النوع من الخطابات في كذّيته، وهو ما عر عنه بقوله: >> وهذان القسمان خارجان عن باب العلم داخلان في باب الجهل.<<⁽¹⁾ ويقصد بذلك الشعر والمغالطة.

ونشير إلى أن حديث ابن البناء عن لتوّهات الآتي يثيرها الشعر، وحكمه عليه ليس حكما مطلقا ولا قطعيا، فلعلّ المبدأ الذي يرتكز عليه هو مبدأ ديني، ذلك أن الخطاب الشرعي لا يرتض فيه هذا النوع من الانفعالات (التخيل والتوهم)، ولو أدخل الشعر المبني على التوهم والتخيل في باب الحقّ لكان مساويا في نظر ابن البناء للخطاب الديني، وسيعني ذلك أن ما يثيره الخطاب المجازي في القرآن سيكون محض توّهات مثلما يثير ذلك

(4) محّد عبد العزيز البّاغ، >الروض المريع من روائع مخطوطات خزنة القرويين لابن البناء<<، ص02.

(5) المرجع نفسه، ص02.

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص82.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

في الشعر، ممّا سيجنى على مصداقيته ويفتح الباب للطّاعنين فيه، وما كان ابن البناء ليرضى بالتشكيك في صدق الخطاب الدينيّ الذي هو أرفع من أيّ كلام.

كان ذلك فيما يخصّ الخطاب الدينيّ، لكن الأمر يختلف في اعتقادنا بالنسبة إلى غيره من الخطابات، فالشاعر في اعتماده على التخييل إنّما هو يحاول ترجمة أحاسيسه بنوع من المبالغة، ذلك أنّ تفاعله مع حادثة ما يجعله يببالغ في نقلها، ولمبالغة في التخييل غير الكذب الذي يعذي تزييف الحقائق، فعندما يصف الشاعر مثلاً حبيبته بأنها غزال أو قطعة من قمر أو غير ذلك فليس لأنّه يريد تزييف حقيقة مظهرها بل لأنّ تلك المرأة هي متجسدة في ذاته و في تصوّره بتلك الصّفات، فالشاعر دائماً يحاول نقل الصّورة التي انطبعت من الواقع الخارجي أو من داخل الأشياء في ذاته، ولذا وجب أن نعلم دائماً أنّ تصوّر الشاعر للأشياء غير تصوّر الإنسان العادي لها أو حتّى الإنسان العالم الواقعي، >> فالشعر هو ما تشعر به النفس من أحوالها في الدّاخل أو ما يوحى إليها به من الخارج مترجماً بالكلام المنظوم إلى العواطف والانفعالات، ومن حسن التوفيق أنّ الشعر في لغتنا مشتقّ من الشعور؛ وهو أيّ الشعور عُم الشيء إذا حصل بالحسّ الظاهر والباطن وبهذا ينفصل عن العلم فإنّه عُم الشيء إذا حصل بالظن والاستدلال العقلين، فالشاعر إذن غير العالم، هذا من خصوصيته أن يسرّ الناس بأن يذكر لهم شائق ما يشعر به هو، أو شائق ما شعروا ويشعرون به هم دون توسّط نظر واستدلال يقتضيان مزيد التفكير والتأمّل. <<(1)

ثمّ إنّ ارتباط ذات الشاعر بالنّوات الخارجة عنها ارتباط غير عادي >> فالشاعر يشعر بما لا يشعر به الآخرون، ولما هو عليه من قوّة التخييل وشدة الاحساس بما بين نفسه وبين العالم الخارجي يرى ما في الخارج صوراً لما في نفسه من الدّاخل أرواحاً ومعاني لما في الخارج. <<(2)

وابن البناء بتمييزه بين الخطابات على أساس جوانبها التّأثيرية يكون قد مرّ بين نوعين من الدّلالات؛ الدّلالات القطعية (العملية) التي تنتج عن البرهان والجدل والخطابة،

(1) جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص121.

(2) المرجع نفسه، ص122.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

والدلالات الظنية أو الانفعالية الناتجة عن الشعر والمغالطة، وعليه فإذا كان توجهه نحو الخطاب الشرعي من قرآن وسنة أوجب على المؤول تجريد الألفاظ من الدلالات الانفعالية، لأن الاعتماد على الانفعال في تفسير الخطاب من شأنه تضليل المتلقي عن وجه الصواب أي عدم تحديد المقصود الحقيقي له، خاصة بالنسبة إلى الخطاب الديني الذي لا يمكن أن يحتمل أي تأويل ذاتي. وإذا كانت وجهته إلى بقية الخطابات قال بجواز اعتماد الدلالات الانفعالية لأن ذلك من شأنه خلق لذة شعورية لدى المتلقي، لكن من دون تجاوز حدود النص أي من دون توهم أشياء هي غير متوفرة في الخطاب ولا يوحى بها لا من قريب ولا من بعيد، ثم إن اعتماد تلك الدلالات هو ما يسمح بفتح الأفق الدلالي للخطاب، ذلك أن النصوص المتممة بالانفتاح الدلالي وتعد احتمالات التأويل هي النصوص التي تحقق لذاتها الخلود بضمان استمرارية تواصلها مع المتلقيين.

وعليه لا يجوز للتخييل التدخل في عملية التأويل للخطاب الديني، بل نعتمد فقط على ما يصدره العقل الواعي والنفس الفطنة، لأنه لو أدخلنا التخييل لدخل معه العقل في حالة لا وعي هذه الأخيرة التي تنشأ معها تفسيرات ذاتية وهمية لا تتفق ومقصود الخطاب، ذلك أن عملية >> استيضاح النصوص تسير في طريقتين: أحدهما عملي والآخر انفعالي، ففي الفقه تجرد النصوص من المعاني الخيالية المثيرة للعواطف، وتسخر كل القرائن للكشف عن المعنى العملي. في حين ينصب الاهتمام في الأدب على المعاني الانفعالية.. فتطلب المعاني العائمة المثيرة للخيال، وغالبا ما تكون خيالية في إنشائها وتفسيرها والاهتمام بها يجتاز المعنى المحدد للوصول إلى الإثارة العاطفية.<<(1)

وفي بيان للعلاقة بين التزم والشتر يفاضل ابن البناء بينهما مقتبسا من طريقة ابن سنان الخفاجي ومتبنيا رأيه في >> أن الشتر يعلم فيه أمور لا تعلم في التزم... وأن الحاجة

(1) حسن هادي محمد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص 232 .

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

إلى صناعة الكتابة مأساة، والانتفاع بها في الأغراض ظاهر، الشعر فضل يُستغنى عنه ولا تقود ضرورة إليه⁽²⁾ فابن البناء يذهب إلى أن الفائدة والانتفاع التخاطبي يحصل من الشعر ولا يحصل من الشعر أو عن الظم، وهو ما يجعل من القسم الأول ضرورة لتركبه على الحقيقة، ومن القسم الثاني فُضلة لتركبه على التخيلات والأوهام التي لا تقمّ كبير فائدة.

وأثناء حديث ابن البناء عن المحاكاة والتخييل تعرض لقضية مهمة نمت في حضن الخيال، ونقصد بذلك قضية الصدق والكذب، فيرى أن ما تركب من الخطابات على الصدق وكانت نتيجته إما الإقناع أو الظنّ الغالب أو اليقين كان من الخطابات التي تدخل في باب الحق، أما ما بذى منها على التخييل والمحاكاة والذي يعادل عنده الكذب فيخرج من باب العلم والحق ويدخل باب الجهل، والأمر - كما سبقت الإشارة - يتعلّق بالشعر والمغالطة. ويؤيد ابن البناء المحاكاة الحسنة والمحاكاة القبيحة، ويذهب إلى أن المتكلم إذا حاكى أمورا موجودة في الواقع كان كلامه مقبولا أو صادقا، في حين إذا تطلّع إلى ما هو غير موجود وقام بمحاكاته تركب في كلامه الكذب وبالتالي شدّ قوله عن الحقيقة. وهذا التفريق الذي وضعه ابن البناء بين نوعي المحاكاة يمكن أن نتبينه من خلال قوله الآتي: >> ليس للشاعر أن يحاكي أو يتخيل في الشعر ما ليس موجودا أصلا، لأنه إذا فعل ذلك لم يكن محاكيا بل يكون مُخترعا، فيتربك الكذب في قوله فتبطل المحاكاة لكذبها وهي موضوع الشعر.⁽¹⁾ وهو في ذلك يتبع نهج ابن سينا الذي يذهب إلى أن المحاكاة لا تصحّ أو تبطل إذا نتت في غير الممكن؛ أي إذا حاكى المتكلم أمورا يستحيل وقوعها عقلا أو واقعا، ف>>المحاكاة لا تصحّ بما لا يمكن و إن كان غير ظاهر الإحالة ولا مشهورها.⁽²⁾

(2) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص82.

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص103.

(2) المصدر نفسه، مقمّة المحقق، ص33.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

ونشير هنا إلى أن تشديد ابن البناء على الصدق الواقعي في الخطاب الشعري يجعل من الشاعر مجرد آلة ناقلة مجسدة للواقع، وهو ما يقتل الإبداع بداخله، ذلك أن الإبداع لا يرتكز على محاكاة ما هو واقعي أو موجود فقط، لأن الموجود معلوم لا حاجة للتذكير به، بل يتركب على الأمرين معا؛ الصدق والتخييل لأن لكل واحد خصائص معينة يضيفها على الخطاب، كما أن حديثه هذا يقول بوجود انفصال بين النفس والعقل، لكن الأمر غير ذلك، ذلك أنهما يعملان بشكل تكاملي، فـ«من المحقق أن العواطف والانفعالات إذا اشتتت في النفس نهت كل قوى العقل وأشعلت الذهن حتى يرى كل ما يراه على جلاء ويشعر بأدق وأغمض ما يمكن الشعور به.»⁽³⁾

وإذا كان بعض القاد القدامى قد خصوا صفة الصدق ووظيفة الإقناع بخطابات محددة كالخطابة والجدل، وخصوا صفة الكذب ووظيفة الإمتاع بالشعر، فإن من الدارسين المحدثين من يذهب في ذلك مذهبا مخالفا،

>> حيث نجد بعض الدارسين العرب المحدثين يتحشون عن شعرية الإقناع معتبرين أن للشعر طبيعة إقناعية، كما قد يكون للخطابة طبيعة إمتاعية.⁽¹⁾ ويلخص الباحث أحمد قادم هذه المسألة من خلال وقوفه >> على مدى رحابة الشعر لاحتضان خصائص الخطابة دون أن يستحيل إلى خطابة، واتساع الخطابة لامتلاك أدوات الشعر دون أن تستحيل إلى شعر، وكيف أن الإقناع شكّل في كثير من الأحيان قاسما مشتركا بينهما وفاضلا في آن واحد.⁽²⁾

ونشير في محصلة هذا الجزء إلى أن موقف ابن البناء لربما يعود إلى ذهنيته العلمية التي تقضي بوجود اتباع الحقائق والتطبيق على الأمور الواقعية.

(3) جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص41.

(1) ثنائية الصدق والكذب في النقد الأدبي بالغرب الإسلامي (مقال متاح على الانترنت) على الموقع التالي:

<http://www.alukah.net>

(2) المرجع نفسه، ص01.

هـ - المغالطة:

يحدّد ابن البناء مفهوم الخطاب بالمغالطة بقوله: >> هو الخطاب بأقوال كاذبة يحصل عنها ظهور ما ليس بحق أنه حق.<<⁽³⁾

يتحدّد مفهوم المغالطة إذن بتضليل المتلقّي عن وجه الصواب، حيث يلجأ المتكلّم إلى اعتمادها كاستراتيجية لتغطية أمر ما، أو للتّحايل على المستمع من خلال تقصّ صورة إيجابية، فيلبس خطابه الكاذب وثب الحقيقة حدّي يوهم المتلقّي ويقنعه بواسطة التّحايل، فهي في مجملها تدلّ >> على مغالطة الطّرف الآخر ومحاولة الإشكال عليه لكي يلتبس عليه الكلام وبظلّ الطّريق في الوصول إلى حقيقته الأصليّة<<⁽⁴⁾ بل الحقيقة الّتي يسعى إليها المتكلّم. ويكثر هذا النوع من الخطابات القائم على تزييف الحقائق وبصفة أعم تبييض الأسود في الخطابات السّياسية الّتي تنتهج استراتيجيّة التّمويه لتمرير مواقف وتحقيق أهداف خاصّة.

والتّالي فخطاب المغالطة يماثل الخطاب الشّعري في تركّبه على الكذب والاختراع والتّحايل، ومن ثمّ فهو من الخطابات الّتي لا يرتضيها المراكشي والّتي تندرج عنده فيما سمّاه باب الجهل.

3- أقسام الكلام من حيث الاستعمال:

يقسّم ابن البناء اللفظ من حيث استعماله أو من حيث واقعه إلى قسمين؛ لفظ ذو معنى حقيقي، ولفظ ذو معنى مجازي، ويُدبّر عن ذلك قائلاً: >> وينقسم اللفظ إلى الحقيقة والمجاز ويعرض له في المخاطبات.<<⁽¹⁾ ويقصد بعبارات يعرض له في المخاطبات أنّه يستعمل في المحادثات بهذين الوجهين.

وبعد تقسيم اللفظ إلى حقيقة ومجاز يذهب ابن البناء إلى تبيان أحوال استعماله في الخطاب الأدبيّ عامّة، و يصفّ هذه الأحوال إلى صنفين:

⁽³⁾ ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 81.

⁽⁴⁾ سعاد صالح الثّقفي، (المصطلح البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص 327.

⁽¹⁾ ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 82.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

- يتعلّق الصّنف الأوّل بجهة دلالة اللفظ على المعنى أي المعنى الذي يحصل عليه اللفظ الموضوع بإزائه من خلال استعماله، وتظهر هذه الدلالة في مظاهر عدّة منها؛ الإخلال، والحشو، والإطالة، والإيجاز المساواة، فيُبيّن الفروق والحدود بين كل نوع ونوع آخر، ويرجعها جميعاً إلى ثلاثة أقسام هي الإيجاز والاختصار، ثمّ التّكثير، ثمّ الإكثار. وهذه الدلالات تمثّل في مجملها أنماطاً قولية يعمد إليها المتكلّم لجعل الخطاب حاملاً للمقاصد التي يرومها، ثمّ إنّ هذه الأنماط التخاطبية لا تتعلّق فقط بما يقصده المتكلّم بل إنّ مقتضيات المقام تفرض عليه ذلك أيضاً.

- ويتعلّق الصّنف الثاني بمواجهة المعنى نحو الغرض المقصود في الخطاب؛ أي العلاقة النسبية بين الكلام المعرّ والفكرة المتوخّاة منه، وقد حدّد لذلك أربعة أحوال تمثّلت؛ في الخروج من شيء إلى شيء، وتشبيه شيء بشيء، وتبديل شيء بشيء، وتفصيل شيء بشيء. وحديثه عن هذه الأحوال التخاطبية هو حديث عن سبل إنتاج الكلام وطرق الدلالة على الأغراض والمقاصد، فحدّد لذلك أربع مقاصد كانت في مجملها مظهراً من مظاهر استعمال اللّغة التي عنيت بها التداولية في محاولة منها لإيضاح طرق إنتاج الكلام ووجوه استعمال اللّغة لإنجاز أفعال محدّدة؛ أي الإجابة عن سؤالها المطروح: كيف نتكلّم؟

ويقصد بالحقيقة عند ابن البناء فيما استتجناه من شواهد مطابقة الكلام لواقع استعماله بنائه على الصّدق، ويقصد بها أيضاً دلالة اللفظ في وضع استعماله الأوّل، وهو المقصود ذاته الذي يتّضح من تعريف الأمدي: >> اللفظ المستعمل فيما وضع له أولاً في الاصطلاح الذي به التّخاطب.<<⁽¹⁾ أي الدلالة الأصلية أو الوضعية التي اكتسبها اللفظ من خلال عملية المواضعة أو الاصطلاح بين أهل المجتمع اللّغوي الواحد.

فمفهوم الحقيقة إذن يستند إلى استعمالها الأوّل الذي نتج عن العلاقة العرفية بين اللفظ والمعنى الذي أسند لذلك اللفظ دون غيره، وعرف به وأصبح متداولاً معه.

وقول ابن البناء اللفظ بالمطلق يجعل من دلالاته غير محدّدة فيشمل المهمل والمستعمل، ولكن ذكره لعبارة " يعرض له في المخاطبات " فذلك يعني توظيف الألفاظ المستعملة فقط أي التي يتمّ التّخاطب بها، و>> الاستعمال هنا متعلّق بإرادة المتكلّم، حيث يتعلّق بقصدية

(1) حسن هادي محمّد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص 159.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

المتكلم فهو الذي يحدّد إرادة الحقيقة لا غيرها.^{<<(2)} وفي مقابل الحقيقة التي أخذت عند ابن البناء عدا استعماليا، نجد أنّ بحث ابن البناء للمجاز يتمّ على مستويين؛ مستوى بلاغي متعلّق بالطابع الأسلوبي لهذا النمط القولّي، ومستوى لساني يتّخذ فيه طابع الدلالة المحدّدة >> التي تنضبط بها الفكرة ويدقّ بها المعنى.^{<<(3)}

ويعرّف المراكشي المجاز قائلا: >> واعلم أنّ المجاز يُقال بعموم وخصوص: الخصوص ما ذكر هنا. والعموم هو ما نقل من موضوعه الأوّل في اللّغة إلى غيره، فيدخل فيه الإضمار والإبدال والمبالغة والاستعارة والكناية والحذف والزيادة وغير ذلك ممّا يتغيّر به الوضع الأوّل في اللّغة... <<(4) فالمجاز إذن هو تحوّل عن أصل دلالة اللفظ أو الخطاب إلى غيرها من الدلالات الاستعمالية بواسطة واحد من الأساليب الخاصّة بنقل الدلالة من وضع إلى وضع، ومنها الحذف والإبدال والاستعارة والكناية إلى غير ذلك ممّا يغيّر من الدلالة الأصليّة للخطاب. وذاك يتّضح إدراك ابن البناء >> لأثر الاستعمال والشّيوخ في تغيّر المعنى وفادته من اللفظ، كما تتضح متابعة المحدثين فيما توصّلوا إليه.^{<<(1)}

والمجاز كما سننّبين ذلك في مبحث أساليب التحوّل والانتقال يُعتبر ميزة عظيمة ومفرقا مهمّا يميّز الكلام البليغ البديع من غيره من ضروب القول، فهو ينطلق من خصائصه الذاتيّة والممتنّة على مستواه البنائي اللّغوي والدلالي إلى كونه وسيلة تأثيرية على نطاقين، نطاق اللّغة إذ له طريقتة الخاصّة >> في تحريك عناصر الدلالة في اللّغة وتوسّله بوجوه الصّنع التي تجعل الأدب أدبا حسب عبارة الجرجاني.^{<<(2)} فالمجاز ضرب استعمالي يعمل على مستوى الطبقات الرّفيعّة من الكلام، وعلى نطاق المستمع والمتكلم إذ يتوسّله المتكلم كحجّة للتأثير على المستمع، كما أنّه يعتبر مدخلا مهمّا للكثير من الصّور التخاطبية كالتشبيه، والاستعارة والكناية.. إلى غير ذلك من الصّور التي تعتمد على المجاز في نسج علاقاتها،

(2) المرجع نفسه، ص 160.

(3) المرجع نفسه، ص 130.

(4) ابن البناء المراكشي، الرّوض المربع في صناعة البديع، ص 163.

(1) المصدر السّابق، ص 162.

(2) حمّادي صوّد، التّفكير البلاغي عند العرب، ص 430.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

ثم إن هذا >> النوع من الكلام إذا سلم من التكلف وبرئ من العيوب كان في غاية الصنعة ونهاية الجودة.<<⁽³⁾

وعليه فوجود العلاقة المجازية في الخطاب يفتح إمكانية التعدد التأويلي لدلالاته، حيث يؤتي المجاز ثلاثة أنواع من الوظائف التواصلية:

- وظيفة جمالية تأثيرية: ولا تقتصر فيها وظيفته مجاز على التزيين، ولكن يُستخدم كعنصر استدراجي للمتلقّي حتى يجعل من المستمع يُمعّش ما يعتمل بداخله.

- وظيفة إيحائية: وفيها يقوم المجاز بتحريك الطاقات الدلالية للغة وكوامنها، فيكون محفّزا ومحركا لطاقة الإيحاء التي بواسطتها يحصل التمايز بين المستوى العادي والمستوى الفوق عادي. فالمجاز يمنح النص صورة زبّيقية تجعل منه بنية خلّاقة، مفتحة الدلالة مثلونة بحسب كل مستمع، حتى ليشعر كل مستمع أن النص موجه إليه دون غيره.

- ثلث هذه الوظائف هي الوظيفة التواصلية ذات البعد التأويلي، ذلك أن المجاز يمثّل دلالة إضافية وواسطة تفاهمية بين المتكلّم والمستمع، تسمح للأول بالتعبير عن مقاصده، وتكون عنصرا إفهاميا توصيليا لما يعتمل في ذات المتكلّم، إذ إنه يمثّل درجة عليا من الاقتناع التعبيري، فكثيرا ما يبحث المتكلّم عن غاياته التعبيرية بين المستويات العادية أو الحقيقية للغة، فلا يجد ضالته إلا إذا انحرف عن ذلك إلى المستوى المجازي الذي يمثّل ملاذه التعبيري، لذلك يلجأ المتكلّم في كثير من الأحيان إلى الإبدال فيُبدل المجاز مكان الحقيقة لعلمه كما يقول ابن البناء عن الكناية >> بأنها أبلغ موقعا من التصريح<<⁽¹⁾ ومن أمثلة إبدال المجاز مكان الحقيقة، وأسماء ابن البناء ترشيح المجاز قول الشاعر:

⁽³⁾ المرجع نفسه، 430.

⁽¹⁾ ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 116.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

تسقه كفالاً يل أكوس الكرى. (2)

أقام لليل كفاً مقام الحقيقة، واستعار لها السقي، فجعلها تسقي ف جاء مجازاً في مجاز. (3)

ويذهب الدارسون إلى أن الطرف المعتمد في تحديد وظيفة المجاز هو المتقبل أو قارئ النص، ذلك أن غاية المجاز القصوى >> هي التأثير في السامع تأثير تتحقق معه مقاصد صاحب النص والغايات التي رسمها لخطابه <<(4) وفضل المجاز >> أنه يفعل في نفس السامع ما لا تفعل الحقيقة. <<(5)

ونخلص في الأخير إلى أن الحديث عن الحقيقة والمجاز محكوم منهجياً بحتمية المزوجة بين الوصف والتاريخ؛ >> فبالأول ترسم صورة الظواهر وهيأتها الراهنة، <<(1) على اعتبار أن الحقيقة هي إجراء اللغة على وجه استعمالها العادي المبني على الدلالات الوضعية، أي توظيف اللفظ كما هو في واقع استعماله، >> و بالثاني نؤرخ لأصول الدلالة التحويلات الطارئة عليها بغية تفسير الحالة الراهنة. <<(2) وهذا إشارة إلى ما يمكن أن يمنحه المجاز للآفة من مفاهيم وتطورات دلالية قد تطغى مع كثرة التداول وتحل محلها كدلالات أصلية .

ولعل أكبر مثير أو دافع قد حرك البلاغيين - وابن البناء في ذلك ينتهج نهجهم - للاهتمام بهذه القضية هو دافع عقائدي يتعلّق بالوقوف في وجه الطاعنين في القرآن لتوظيفه للمجاز، الذي هو في رأيهم كذب ينتقض به جوهر الرسالة ذاتها، وهذه القضية كان قد تعرّض إليها ابن قتيبة في كتابه تأويل مشكل القرآن، وقد >> قّم حجته اللغوية الدقيقة

(2) المصدر نفسه، ص 119.

(3) المصدر نفسه، ص 119.

(4) حمّادي صوّد، التفكير البلاغي عند العرب، ص 430.

(5) المرجع نفسه، ص 430.

(1) حمّادي صوّد، التفكير البلاغي عند العرب أسسه وتطوره إلى القرن السادس، ص 396

(2) المرجع نفسه، ص 396.

التابعة من نظرة تاريخية إلى أصول التعبير وما يطرأ على المعنى من تطوّر قد يحجب على المعنى الأصلي، فقد تبين له أن أكثر الكلام مجاز إن نُظر إلى الأمور بمنظار عقلي صارم يحترم حدود أقسام الكلام والعلاقات المنطقية التي يمكن أن تقوم بينها.^{<(3)>}

وقد كان لهذه القضية انعكاس مهمّ على الدراسات الأدبية جملة، حيث >> أسهمت وبقسط وافر في لفت نظر البلاغيين المتأخرين إلى الكيفية الخاصة التي توظّف بها اللغة في الفن.^{<(4)>}

كما أنه من أبرز ما نتج عن الخوض في هذه المسألة والتعمّق في دقائقها توصل العرب إلى بناء علم الدلالات بناء متطوّراً يثير الإعجاب في نطاق دراستهم لعلاقة الألفاظ بالمعاني⁽¹⁾، إضافة إلى اعتبار عنصر المجاز والحقيقة مدخّلين هامّين لتحديد أقسام الكلام، ولمعرفة أقسام الصنعة التي تدخل الكلام (في حدّ البلاغة ومعها يستحقّ وصف البراعة).⁽²⁾

وحاصل النظر فيما سبق أن حديث البلاغيين العرب عن علاقة الحقيقة بالمجاز لم يكن مجرد حديث عابر أو كلام محصور في نطاق شرعيّ فقط، بل إن ذلك يُنبئ عن وعي فكريّ، ف>> للقضية صلة متينة بتصوّرهم العام لمؤسسة اللغة نشأة وتطوّراً ووظيفة، وهو تصوّر شاركت عنده عوامل في بلورته وترسيخه.^{<(3)>}

ولعلّ حرص ابن البناء على امتلاك المتكلّم للأساليب التخاطبية السليمة من أجل بناء عملية محادثة ناجعة هو ما جعله يتعرّض في الجزء الثاني من هذا القسم إلى الأسباب التي لأجلها يغمض الكلام على المستمع.

(3) المرجع نفسه، ص 333.

(4) المرجع نفسه، ص 333.

(1) المرجع السابق، ص 333.

(2) المرجع نفسه، ص 394.

(3) المرجع نفسه، ص 419.

4 - أسباب غموض الكلام:

بعد مناقشة ابن البناء لأقسام الكلام وأحوال تصريفه عرض إلى فكرة وضوح المعنى وخفائه، مبيناً أن اللفظ إما هو وسيلة لإيضاح المعنى، فيكفي منه ما يوصل المعنى إلى النفس، ثم يوضح الأسباب التي نص عليها ابن سنان الخفاجي وبسط القول فيها.⁽⁴⁾

ولقد حدّد ابن البناء أسباب غموض الكلام على السّامع قائلاً: >> والأسباب التي لأجلها يغمض الكلام على السّامع ستّة⁽⁵⁾ وقد أجمّلها في ثلاثة أجزاء على النحو الآتي:

- إثنان في اللفظ بانفراده: أحدهما أن تكون الكلمة غريبة، والآخر أن تكون من الأسماء المشتركة.⁽¹⁾

ويتعلّق السّببان الأوّلان باللفظ في حدّ ذاته من ناحية الغرابة والاشتراك اللفظي، ويقصد بانفراده مجيء اللفظ منعزلاً عن سياق استعماله، وابن البناء باستنكاره للغرابة اللفظية في الكلام يبيّن إلى وجوب انتقاء المتكلم اللفظ المألوف على غير المألوف، لأنّ في انتقاء المألوف اقتصاد على ذهن السّامع وانتباهه، فكلمًا كانت الألفاظ أكثر استعمالاً وتداولاً كان استحضار صور معانيها أسهل لذهن المتلقّي، وكلمًا ندرت وغربت على مسمعه كلما شقّ عليه تصوّر دلالتها، وهو ما يكون سبباً في تشويش عمليّة تواصله مع محدّثه والتّالي تعطلّ فائدة الكلام، ف>> كلما كانت الألفة بالألفاظ أكثر كان استحضار صور معانيها عند الذّهن أسهل فكانت من ثمّ القوّة المنصرفه لهذه الغاية أقلّ وحصل الاقتصاد بذلك. ولا شكّ في أنّ هذه القوّة المقتصدة تنفق في تحقيق المعنى المسوقة له الجملة قصداً فيكون أوضح لدى الذّهن، فمن ثمّ يكون أشدّ رسوخاً وأعظم تأثيراً في النفس.⁽²⁾

⁽⁴⁾ ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، مقمّة المؤلّف، ص 29.

⁽⁵⁾ المصدر نفسه، ص 84.

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص 84.

⁽²⁾ جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص 21.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

ويتعلّق السبب الثاني بعموم اللفظ حيث تدخل تحته مفردات كثيرة، فلا يعرف المستمع أيها يقصد المتكلم بكلامه وأي دلالة توحى بها، والتالي سيكون ذلك سببا في إبهام المعنى وتضليل المستمع .

– ويتعلّق السببان الآخران بتركيب الجملة أي بتأليف الألفاظ داخل سياق معيّن، يقول ابن البناء: >> واثنان في تأليف الألفاظ، أحدهما فرط الإيجاز، والآخر الإغلاق في التّظم كأبيات المعاني.<<⁽³⁾ فبن البناء يشير إذن إلى أنه لا بد من وضع الألفاظ في الجملة (لبق التّأليف) وضعا مخصوصا يظهر به المعنى المراد، ذلك أن >> كل صورة ذهنية مركبة فلا بد من ترتيب خاص بين أجزائها في الذهن يكون فيه كل جزء في موضعه اللائق به بحيث يراها العقل جميعا في أقصر مدة وأقل تعب.<<⁽¹⁾

أما لو خرج المتكلم عن هذا النسق التعبيري، فلم يلتزم حدود توظيف الأساليب القولية، فيبالغ إلى حدّ الفراط أو يقتصد إلى حدّ الإيجاز المُخلّ، فسيكون ذلك سببا في فساد خطابه، وغموض معناه على المستمع. وإضافة إلى الإيجاز يعدّ الإغلاق في التركيب سببا آخر من أسباب غموض الكلام وتخلّف دلالاته عن مدارك المستمع، ونقصد به هنا التّعقيد والتكلّف والسعي إلى المعنى البعيد فيكون الكلام لغزا أو أحجية قد يتأتى للمستمع فكّ عقدها، وقد لا يتمكن من ذلك.

– ويكمن السببان الأخيران في المعنى في حدّ ذاته من ناحية الغموض التّقديم الذي يكون بمثابة أساس يبنى عليه الكلام، يقول ابن البناء محددا السببين الأخيرين: >> واثنان في المعنى، أحدهما أن يكون في نفسه دقيقا غامضا، والآخر أن يحتاج في فهمه إلى مقّمات إذا تصوّرت بُني عليها ذلك المعنى، فلا تكون تلك المقّمات حصلت للمخاطب، فلا يقع له فهم المعنى.<<⁽²⁾

⁽³⁾ ابن البناء المرّكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 84.

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص 84.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 84.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

فقد جعل ابن البناء مستويات الخطاب تثنى وتتسلسل بحسب تسلسل المعاني من ناحية الوضوح والغموض قائلًا: >> وذلك لأن المعاني منها البينة القريبة، ومنها الغامضة البعيدة وبينهما متوسطات<<⁽³⁾ وهو يشير هنا إلى وضوح دلالة الخطاب وخفائها فاستعمل مصطلح القرب للوضوح، ومصطلح البعد للغموض، ويتم حديثه قائلًا: >> وكذلك الألفاظ في الدلالة عليها توضع على نسبتها، فما كان من المعنى قريبًا جليًا عر عنه بعبارة بيّنة وسمي باسم ظاهر الدلالة، وما بُدَّ يعبر عنه بعبارة بعيدة عن الوضع الأول، إلى أن تكون الدلالة على أبعد المعاني إدراكًا بأبعد ما يلفظ به دلالة.<<⁽⁴⁾

وهذا ما عر عنه علماء أصول الفقه بخفي الدلالة وواضح الدلالة، مما اشتملت عليه أسس أصول الفقه في مباحث الدلالة الفقهية والأصولية.

فابن البناء وبالنظر إلى مبدأ الوضوح والخفاء في الكلام يقسم الدلالات إلى؛ دلالات ظاهرة واضحة وإلى دلالات غامضة. ويقصد بالكلام ذو الدلالة الواضحة أو الظاهرة ذلك الكلام >> الذي لا يفتقر السامع في فهم المراد منه إلى جهد كبير، وهو يدل على مقصوده بصيغته نفسها دون توقّف على أمر خارجي.<<⁽¹⁾

أمّ القسم الغامض أو الخفي الدلالة كما يصطلح عليه الأصوليون هو >>المبهم الذي خفيت دلالاته لذاته أو لعارض مما يحوجه الاجتهاد<<⁽²⁾

وهذا القسم عرفه **البيزدوي** بقوله: >> ما اشتمبه معناه، وخفي مراده بعارض غير الصنعة ولا ينال إلا بالطلب.<<⁽³⁾ فهذا النوع من الخطابات يكون دالاً على مراده بصيغته الوضعية لكن غمض معناه لعارض طرأ على تلك الصيغة يتعلّق بطريقة ترتيب أجزائه

(3) المصدر نفسه، ص122.

(4) المصدر نفسه، ص122.

(1) حسن هادي محمّد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص233.

(2) المرجع نفسه، ص246.

(3) المرجع نفسه، ص246.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

>> وانطباقه على بعض أفراد مدلوله فجعل دلالاته غير محدّدة فيزول خفاؤه بالظن والتأمّل. <<(4)

وإنما جعل ابن البّناء هذه العناصر الخطابية - ونقصد بذلك الوضوح والخفاء - تتعلّق بالسّامع يعود إلى >> أنّ الكلام له سلطان على السّامع ونفاذ إلى مداركه، فليس للسّامع معه خيار، فهو المتلقّي له. وحيث أنّ معيار صحّة الكلام أو خطئه هي فائدة الخطاب أو عدمها، و أنّ السّامع معنيّ بمعرفة ما يريده المتكلّم فكان تركيزه على الخطاب جملة. <<(5)

وما تعرّض له ابن البّناء - وقد سبقه في ذلك الأصوليون - يعتبر دراسة متميّزة ونادرة عند دارسي المعنى قديما وحديثا، فتحديد المعنى بدرجة قاطعة من حيث الوضوح والخفاء أمر بالغ الصّعوبة، وكثيرا ما يقع الخلاف في مجالات السياسة والقانون والأريخ، ودراسة الآثار الأدبية والفكرية وحدّي الاستعمال العادي للغة بين عامّة الناس. = (1)

وتعدّ السياسة مجالا رحبا لمثل هذه الدلالات لأنّها تخدمها بشكل كبير خاصّة الدلالات الخفيّة، التي تمثّل استراتيجيات تحايلية يلجأ إليها السياسيون لتمير مقاصدهم الذاتيّة ومخطّطاتهم السياسيّة، ف>> هناك الكثير من الألفاظ غير محدّدة الدلالة، إذ تشحن بما يسمّى بالدلالة الهامشيّة أو المضمون النّفسى وهي تمثّل ظلّالا معنوية تختلف باختلاف الأفراد وتجاربههم وأمزجتهم وثقافتهم وموروثهم. <<(2) وما المذكّرات التّفسيّرية الملحقة بالقوانين واللوائح وصنّغ المعاهدات إلّا محاولات لتحديد المعنى لكّها لا تقطع احتمالات التّأويل

(4) المرجع نفسه، ص246.

(5) المرجع نفسه، ص231.

(1) حسن هادي محمّد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، ص231.

(2) المرجع نفسه، ص 231.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

و الاختلاف في فهم النصوص، وكثيرا ما يكون النص واضحا، لكن الخلاف يحصل عند تطبيقه على بعض الحالات أو الوقائع فيكون حينئذ مبهما يحتاج إلى تفسير.⁽³⁾

- ويمكن السبب الثاني بحسب ابن البناء في مجيء المعنى مبهما من دون مقدمات يعتمد عليها السامع⁽⁴⁾ في تصور مضمون الكلام وتحديد مقاصده، وابن البناء بذلك يشير إلى ضرورة وجود علاقات لزومية بين أجزاء الكلام على اعتبار >> أن اللزوم هو علاقة بين مجموعة مقدمات ونتيجة تستخرج منها وفقا لقواعد معينة.<<⁽⁵⁾ فالتقديم له دور كبير في إعطاء المستمع تصورا أوليا عما يمكن أن يؤول إليه الخطاب، ويمثل في الآن ذاته مرتكزا تأويليا ينطلق منه من خلال ربط مقدمات الكلام بمضمونه أو بتفاصيل عرضه بالاعتماد على العلاقات اللزومية التي يحرص المتكلم على توفرها في خطابه للخروج بنتيجة أو لتحصيل فائدة، فتكون منهجا يتبعه المستمع للوصول إلى مقاصد الخطاب.

وحاصل النظر أن مدى وضوح الخطاب وغموضه سواء من ناحية اللفظ أو المعنى أو التركيب يعتبر من أهم النقاط الشاهدة على العلاقة التي تربط المتكلم والمستمع؛ ذلك أن التشكيل اللغوي بصفة عامة هو >> عملية وسطى تتطلب مراعاة حالي المتكلم والمخاطب معا على مستوى الخطاب العادي على الأقل، لأن استعمال المتكلم صياغات تتضاد مع معرفة المخاطب وحاجته يفضي إلى وقوع خلل في عملية التواصل.<<⁽¹⁾

المبحث الأول: المبادئ التي تخاطبية التداولية والأساليب البلاغية :

إن اللغة - فيما يرى البعض - ممارسة تخاطبية تفاعلية تقوم بين ذوات متكلمة وأخرى مستمعة، محكومة بالانتماء إلى المجموعة اللغوية نفسها⁽²⁾، وذلك الانتماء الموحد هو ما يسمح لها بتداول موضوعات مختلفة، وباعتماد صور خطابية متنوعة حيث يتم التبادل اللغوي بينها (النوات المتكلمة والنوات المستمعة) عن طريق عبارات هي حصيلة لعلاقات

(3) المرجع نفسه، ص 232.

(4) ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص 84.

(5) ليلي كادة، (المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية)، ص 109.

(1) المرجع السابق، ص 333.

(2) العياشي أدراوي، الاستلزام الحوارية في التداول اللساني، ص 21.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

التفاعل الاجتماعي بين المتخاطبين، وبهذا يغدو كل خطاب شكلا من التخاطب الحي الذي يدرس بمختلف العناصر المكونة له من قبيل المظهر اللغوي والمقام، وعلاقات المتخاطبين بعضهم ببعض.⁽³⁾

لن يتمكن الممارس للغة من أدائها على الوجه المطلوب، ولن يتحقق له التفاعل ولتواصل مع غيره إذا لم يستند إلى مبادئ وضوابط تحكم عملية التواصل بينهما، فتكون تلك الضوابط بمثابة عقد تخاطبي يلتزم به الطرفان؛ المتكلم بالإنتاج والمستمع بالتأويل. ثم إن الحديث عن معرفة القوانين والضوابط الحوارية لا يقتصر على المعرفة اللغوية، بل يتجاوزها إلى المعرفة بقوانين استعمال اللغة، ذلك أن استعمال اللغة لا ينحصر في القدرات اللغوية الصرفة⁽⁴⁾ بل تساهم فيها قدرات أخرى منطقية ومعرفية واجتماعية وإدراكية⁽⁴⁾ بمعنى قدرة مستعملي اللغة لا تنحصر فقط في معرفة القواعد الصوتية والصرفية، ولتركيبية والدلالية، بل تتعداها إلى معرفة قواعد الاستعمال أي القواعد التي تمكن من أداء وفهم عبارات لغوية سليمة في مواقف تواصلية معينة قصد تحقيق أغراض محددة.⁽¹⁾ ومعنى ذلك أنه⁽²⁾ إذا كان الهدف الأساس الذي يرمي إليه المتخاطبان هو خلق تواصل فيما بينهما لأجل إحداث تغييرات في معلوماتهما، فإن ذلك لا يمكن أن يتم إلا بوجود قدرة تواصلية.⁽²⁾

إن هذه المبادئ المتحدثة عنها هي ما جعلت التداولية المعاصرة لبحثه وإيضاح سبل عمله في نطاق ما أسماه استعمال اللغة، وإذا كانت التداولية قد نهت حديثا إلى مثل هذه القواعد التخاطبية وإلى دور اللغة في تحقيق التواصل، فإن البلاغة العربية باعتبارها فنا وعلما قائما على إجرائية اللغة في مواقف محددة ومتباينة ما كانت لتغفل هذه الأساليب ولقوانين التخاطبية في بحوثها المختلفة من معان وبيان وبديع، ولذلك ونزولا عند قاعدة مطابقة الكلام لمقتضى الحال عملت البلاغة العربية على إيضاح جملة من الأساليب التي

(3) المرجع نفسه، ص 21.

(4) المرجع نفسه، ص 22.

(1) المرجع السابق، ص 22.

(2) العياشي أدراوي، الاستلزام الحوارية في التداول اللساني، ص 23.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

إذا انتهجها المتكلم في خطابه حقق الغرض الأول لكل عملية تواصلية وهو الفهم و الإفهام، ذلك أن التخاطب >> الذي هو على صيغة التفاعل يقتضي - بحكم دلالة الصيغة نفسها - وجود مشاركة بين طرفين على الأقل، وهذا ما يؤكد الأستاذ طه عبد الرحمان إذ يقول: إعلم أن التخاطب هو إجمالاً الكلام الملقى من جانبين بغرض إفهام كل منهما الآخر مقصوداً مخصوصاً، ولما كان التخاطب يقتضي اشتراك جانبين عاقلين في القيام به، لزم أن ينضبط كلام أحدهما للآخر بقواعد تحدّد وجوه فائدته.<<(3)

وتلك الأساليب التي أسهب ابن البناء في الحديث عنها نظراً لأهميتها التخاطبية - باعتبار أن مؤلفه مؤلف بلاغي سعى إلى إيضاح سبل صناعة القول البديع - تشكّل لمحات لسانية تداولية سابقة لعصرها، إذ نجد لتلك الأساليب من إيجاز وحذف واختصار وتكرير ومسئولة ما يوافقها من المبادئ التداولية المعاصرة خاصة فيما يتعلّق بجملة القواعد المندرجة تحت مبدأ التعاون الذي جاء به جرايس، حيث يرى أن كل عملية تخاطبية لا بد أن تكون محكمة بمجموعة من القواعد التي تضبط أصول التخاطب فيها، وهذا ما يفرض على المتحاثين اتباع واحترام ما أسماه بمبدأ التعاون" الذي صاغه على الشكل الآتي: >> لتكن مشاركتك في التخاطب عند حصولها على النحو الذي يتطلبه الغرض أو الاتجاه المرسوم للتخاطب.<<(1) وهذا يوافق إلى حد ما ما تبناه ابن البناء في خاتمة مؤلفه في إشارة منه إلى >> حسن اللفظ وصلاحه إنما هو بالقصد إلى المستعمل في زمان الخطاب وعلى قدر من يخاطب...<<(2)

(3) طه عبد الرحمان، اللسان و الميزان، ص 237.

(1) ليلي كادة، (المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجاً)، ص 115.

(2) ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص 174.

وجود مثل تلك الضوابط هو ما يحقق فعالية التواصل، ويضمن تكافؤه واستمراريته >>فقواعد الحوار تحفظ مناصفة لكل مشارك في الخطب حقه في التعبير عن رأيه من دون تسلط أو قهر، فيختار كل طرف ما يناسبه ويريده في إطار المسالمة.<<(3)

وتتجلى لنا المبادئ التخاطبية الجرايسية وغيرها في المدونة المراكشية على النحو الآتي:

1 - مبدأ الكم:

ينص هذا المبدأ على أن عملية التخاطب يجب أن تكون مفيدة ويجب أن يكون الخطاب دالا على المطلوب؛ أي لا يفيد أكثر مما ينبغي،⁽⁴⁾ ويتحقق هذا المبدأ في أسلوب بلاغي مهم يعتمد على الاقتصاد في اللفظ والتوسع في المعنى، ونقصد بذلك أسلوب الإيجاز أو الاختصار وهو أسلوب ينتهجه المتكلم الذي يسعى إلى التكلم على قدر الحاجة، على خلاف أسلوب الحشو والإطالة اللذان يعتبران من الأساليب المتجاوزة لمبدأ الكم لكسرهما لقاعدة التوازن بين الإفادة الكلامية والأسلوب المعرو.

ويقوم الإيجاز أو الاختصار - ومن ذلك الحذف والاكتفاء - على ذكر اللازم من الكلام

فقط تجنباً للوقوع في الحشو والإطالة من دون فائدة، ومعنى الإيجاز يدلنا عليه قول ابن البناء: >> إن كان تمكّن العبارة من ذلك المعنى بأقل من ذلك اللفظ فهو الإيجاز.<<(1) فمفهوم الإيجاز عند ابن البناء يتوافق والمفهوم الشائع له؛ إذ يدل على التعبير عن المقصود بلفظ أقل من المتعارف عليه،⁽²⁾ فالأهم عند ابن البناء ليس عدد الألفاظ وكثرتها بل التمكن من المعنى المقصود، والتسهيل على المستمع سبل الحصول عليه، وهذا ما دعا إليه مبدأ الكمية أي ضرورة دلالة الخطاب على المطلوب منه.

(3) ليلي كادة، (المكون التداولي في النظرية الأسانية العربية ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجاً)، ص 115.

(4) عماد عبد يحي الحياي، أشواق محمد اسماعيل النجار، >>الاقتضاء التداولي وأبعاده الخطابية في تراكيب القرآن الكريم<<، ص 71.

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص 83.

(2) عماد عبد يحي الحياي، أشواق محمد اسماعيل النجار، >>الاقتضاء التداولي وأبعاده الخطابية في تراكيب

القرآن الكريم<<، ص 74.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

وفي موطن آخر من مؤلفه يبين المراكشي لقيمة التخاطبية لهذا الأسلوب وانعكاسه على نفسية المستمع وتفكيره قائلاً: >> ومتى كانت المعاني بيّنة بنفسها أو بقرينة سياق الكلام، أو غيرها من القرائن كان الإيجاز نافعا لأجل التخفيف على النفس؛ لأن الألفاظ غير مقصودة لذاتها، إنما هي لإيصال المعاني إلى النفس...<<⁽³⁾

ففي الإيجاز إذن اهتمام بنوع المستمع ذلك أن اقتصار المتكلم على اللازم من الكلام ولى ما يحقّ ق مقصده هو احترام لذات مستمعه وتحقيق لمبدأ الاقتصاد على انتباهه، بتوفير طاقته الذهنية فلا يصرف المستمع انتباهه إلى التفكير في زوائد الكلام، بل ينحصر تركيزه على أساسيات الخطاب.

2 - مبدأ الأسلوب:

ينصّ هذا المبدأ على أن يكون كلامك مرتباً وخالياً من الغموض والإبهام⁽⁴⁾، و يظهر لنا هذا المبدأ في دعوة ابن البناء إلى تجنّب الغموض واللبس في صناعة الكلام خاصّة عندما يعتمد المتكلم إلى الانتقال من الدلالات الصريحة إلى الدلالات غير الصريحة، حيث جعل منه >>عمود البلاغة وأساس صناعة البديع<<⁽¹⁾ ذلك أنه يُبين عن معاني المتكلم ومقاصده ويجنب المستمع تعب الفكر والجري وراء زوائد لفظية ليس وراءها كبير معنى، ويدلّ على ذلك قوله: >> وحسن اللفظ وصلاحه إنما هو بالقصد إلى المستعمل في زمان الخطاب وعلى قدر من يخاطب والإيضاح على أحسن ما يقدر عليه من التسهيل ولتقريب.<<⁽²⁾

ولا يكون ذلك إلا إذا أحسن المتكلم انتقاء ألفاظه، فلا يعتمد إلى الغريب النادر ولا إلى المشترك اللفظي لأن ذلك من شأنه حجب مقاصد الإرسال عن متلقّيه.

⁽³⁾ ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص 83.

⁽⁴⁾ عماد عبد يحي الحيلي، أشواق محدّ اسماعيل الذّجّار، >>الاقتضاء التداولي و أبعاده الخطابية في تراكيب القرآن الكريم<<، ص 79.

⁽¹⁾ ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص 134.

⁽²⁾ المصدر نفسه، ص 174.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

وقد يُنتهك هذا الأسلوب أيضا إذا أطال المتكلم كلامه وتجاوز في ذلك الحد المطلوب، فيورد ما لا داعي له، فيشتت ذهن المستمع فلا يعرف الأصل من الزائد، فيأتي كلامه محشوا لا يحقق فائدة.

قويُّ نتهك أيضا إذا كرر المتكلم ألفاظه للتعبير عن معنى واحد، وبعد ذلك من الأساليب التي يقبح بها الكلام وتكون سببا في استهجانها والملل منه، ومن ثم تعطل أغراضه. وقد مثل ابن البناء لذلك بقول أحد الشعراء:

لَوْ كُنْتُ كُنْتُ كَتَمْتُ الْحُبَّ كُنْتُ كَمَا

كُنَّا نَكُونُ وَلَا كُنْ ذَاكَ لَمْ يَكُنْ⁽³⁾

فهذا خبر كلِّه مشتق من معنى واحد متكرر، وألفاظه مكررة، ولذلك قيل في المثل أبرد من حديث معاد.⁽⁴⁾

وفي مقابل ذلك يرى ابن البناء أن هذا الأسلوب قد يحقق فوائد جمة لا يمكن تحقيقها إلا بواسطته، إذا أحسن المتكلم توظيفه في خطابه، وعرف مواقعه الحسنة فيوقع كل لفظ موقعه ويوقع كل خطاب على حسب مقامه، وإذا أعاد لفظا كان ذلك لأجل تأدية معنى إضافي وليس للتعبير عن المعنى ذاته، >> فمتى كانت هناك معانٍ آخر لا تستفاد إلا من التكرار حسن التكرار ودخل في البلاغة ولم يكن مذموما،... كقولنا: زيد عالم، زيد شجاع، زيد كريم. فهذا تقسيم لاعتبار صفات زيد حتى صار كأنه ثلاثة أشخاص كل واحد موصوف بصفة. وإنما فصلته بالتكرار لتدل على استقلاله في كل صفة منها، فأفاد ذلك ثلاث فوائد، كل واحدة مستقلة لانفرادها بالنكر، ولا يعطي ذلك قولنا: زيد عالم شجاع كريم، لأنه أفاد فائدة واحدة مركبة من ثلاثة أشياء...<<⁽¹⁾

(3) المصدر نفسه، ص 157.

(4) المصدر نفسه، ص 157.

(1) المصدر السابق، ص 157.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

وتظهر فائدة التكرار بحسب المراكشي في أنه يحقق فوائد خطابية عدّة؛ >> فمن هذا القسم ما يأتي تخفيفا على النفس من الاسترجاع إلى ما مضى فيبنى على الثاني دون الأول⁽²⁾، كقوله تعالى: ﴿هُمَّ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾⁽³⁾.

وقد يؤتى به للتقرير كتكرار قوله تعالى ﴿فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾⁽⁴⁾ في سورة الرحمن. وقد يكون لتأكيد قول أو حكم، كقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ عَمَّ الْعُسْرِي سَوَّا إِنَّ عَمَّ الْعُسْرِي سَوَّا﴾⁽⁵⁾ فللتكرار إذن دور كبير في تحقيق عملية الفهم والتوضيح والشرح، وذلك ما يؤكدّه المستشرق بربرا جنستون كوتش >> من أن الخطاب الحجاجي العربي يعتمد في الإقناع الغرض اللاغوي للدعاوي الحجاجية بتكريرها وصياغتها صياغة موازية وبالاسها إيقاعات نغمية متكررة.⁽⁶⁾

3 - مبدأ الكيف :

ينصّ هذا المبدأ على أن الكلام يجب أن يكون صحيحا صائبا، كما يجب أن يبنى على الصدق والإخلاص، فلا يقول المتكلم ما يعتقد كذبه،⁽¹⁾ وهذا يوافق إلى حدّ ما مبدأ طه عبد الرحمن الأذي أسماه مبدأ التصديق، والأذي يبنى على الصدق والإخلاص، وهو مبدأ مكمل لمبدأ وضعه جوفري ليتش يسمى بمبدأ التأب الأقصى.⁽²⁾

(2) المصدر نفسه، ص 160.

(3) سورة الروم، الآية 07.

(4) سورة الرحمن، الآية 11.

(5) سورة الانشراح، الآية 5 - 6.

(6) سليمة محفوظي، التكرار في الدراسات الحجاجية، (بحث متاح على الموقع

<http://www.ta5atub>

(1) عماد عبد يحيى الحياي، أشواق محمد اسماعيل النجار، >الافتضاء التداولي و أبعاده الخطابية في القرآن الكريم<، ص 75.

(2) ليلي كادة، (المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجا)، ص 420.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

ويظهر هذا المبدأ في دعوة ابن البناء في خاتمة مؤلفه إلى ضرورة القصد في الخطاب ببنائه على الصدق والليل، لأن ذلك ما يحقق نجاعته، ذلك أن >> حسن معنى الكلام وصلاحه إنما هو ببنائه على الصدق و قصده إلى الجميل وظهوره بالبرهان.<<(3)

ولعلّ تشديده على الصدق في الخطاب هو ما دفع به إلى إخراج الشعر من باب الخطابات الموصوفة بالحق، حتّى لا يتساوى مع الخطاب القرآني الذي كلّاه صدق وإخلاص، بينما الشعر هو ناتج عن الكذب والغلو، >> فكلّ ما في التشبيه من كذب أو غلو، فلا يكون في الحكمة ويكون في الشعر، لأنّه مبني على المحاكاة والتّخيل لا على الحقائق.<<(4)

وهذا القول وسابقه يعكسان لنا مدى اهتمام المراكشي بالموازنة بين القول الخطابي والقوة أو الفعل المنجز عنه، فالشعر لتضمّنه الكذب والتّوهّم قد يستقرّ نفسية وفكر المستمع بمثل ذلك التّوهّم والكذب فيحيد بسلوكه عن طريق الحقيقة. ويرى ابن البناء أنّ الخطاب كلّما كان صادقاً مبرهن عليه كلّما زادت طاقته الحجاجية والتأثيرية، وبالتالي تضاعفت إمكانية إنجازه للفعل المقصود الذي سيظهر بالضرورة في سلوك المستمع.

وحاصل النظر فيما سبق أنّ أهمية هذه الأسس تتجلّى لنا في أنّ المتلقّي يفترض أنّ المتكلّم يتبعها، ولذا فإنّ استنتاجاته مبنية على هذا الافتراض⁽¹⁾، فإذا قال المتكلّم قولاً ما فإنّ المتلقّي سيستنتج و وفقاً لمبدأ من المبادئ المحددة المقصود المحدّد من الخطاب. فلو قال أحدهم: أكلت ليلي بعض الخبز، فسيستنتج المخاطب بناء على مبدأ الكم أنّ ليلي لم تأكل

(3) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص174.

(4) المصدر نفسه، ص103.

(1) محمّد محمّد يونس علي، مقنّمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص51.

كل الخبز، وذلك لأنه لو كان المقصود أن ليلى أكلت كل الخبز لصح المتكلم بذلك لأنه ملزم - بحكم مبدأ الكم - أن يتكلم على قدر الحاجة التي تفي بالغرض من المحادثة⁽²⁾.

المبحث الرابع: الأساليب الحوارية والانتقال ومواجهة المعنى نحو الغرض المقصود:

إن التصوير البديع لا يقتصر على مجرد انعكاس الواقع أو العالم الخارجي وتمثيله تمثيلاً يحقق علاقة حتمية بين الأشياء، فعلى كل من المتكلم والمستمع أن يعلم أن هناك علاقات ثانوية تنشأ بين المبدع والخطاب من جهة الإنتاج، وبين المستمع والخطاب الموجه إليه من جهة التأويل، فكل متكلم أسلوب خاص في تحسس العالم وإدراك الأشياء ولتعبير عنها بما يوافق رؤيته للعالم أو مفهمته الخاصة له، ذلك أن >> رؤية العالم هي تحويله إلى مصادرات من الابتذال الملاحظ (النوات مثل الكائنات و الأشياء) وإلى إبداعات تفسيرية جد قوية (السلوكات نحو الأفعال والأفكار)<<⁽¹⁾ ومن ثم تخرج اللغة عن كونها مجرد وسيلة تصويرية إلى كونها فعلاً خاصاً بالمتكلم، والفعل بصمة فردية متعلقة بطريقة الإنجاز وتحقيق العالم المجرد في الذهن إلى عالم محسوس يتمظهر وفق رؤية المتكلم للواقع الخارجي. ووفقاً لهذا المنظور تتعد الأساليب الخطابية المعتمدة في تشكيل تلك الصور، فإذا كان لكل شخص مفهوم خاص للعالم وجب أن يمتلك الأسلوب الكفيل بترجمة تلك الرؤى إلى أفعال وسلوكات محسوسة، ذلك أن >> المفهمة تتضمن البهأ التداولي الثالث الذي يتضمن عنصرين قصدياً الأنا، ثم المتلفظ وها العنصران المنفذان للمفهمة والمجسدان للاختلاف، قصدياً الأنا هي المسؤولة الأولى عن اختلاف اللغات الفردية، كما أن المتلفظ هو المؤسس للعلاقة الحوارية فالخطاب دائماً تمظهر الأنا الذي يصوغ ملفوظاً.<<⁽²⁾

(2) المرجع نفسه، ص 51.

(1) محمد نظيف، الحوار وخصائص التفاعل التواصلي (دراسة تطبيقية في اللسانيات التداولية)، ص 45.

(2) المرجع نفسه، ص 46 - 47.

ولعلّ من أهم ما يجب أن يتوفّر لدى المتكلّم من الأساليب، أساليب التحوّل والانتقال فإنّ امتلاك مثل هذه الأساليب يمنح الخطاب ليونة تسمح له بالتشكّل وفقاً لمقتضيات المقام. ولا يخلو مؤلّف الرّوض المريع من التفاتات لطيفة متعلّقة بأساليب الانتقال والتحوّل من حال إلى حال، ونشير إلى أنّ التحوّل والانتقال المتحدّث عنه لا يتمّ على مستوى التّركيب فقط بل يتمّ على مستوى المحتوى، حيث مع كلّ تغيير يحقّق المتكلّم تغيّراً دلاليّاً وذلك بالانتقال من الدلالات الحقيقية إلى الدلالات التخاطبية المجسّدة لأفعال معيّنة.

ولقد سجّل ابن البناء في مؤلّفه نظرات صائبة تتعلّق بخروج الخطاب عن دلالاته الوضعية أو الأصلية إلى الدلالات الاستعمالية أو التخاطبية، ومن ذلك حديثه عن المعاني المتولّدة عن أنماط الطّلب وصور الاستبدال، والمعاني المستزّمة عن العديد من الصور البلاغية كالاستعارة والكناية والتشبيه، إلى غير ذلك من الأساليب التي أجمعها تحت أربعة أقسام هي: الخروج من شيء إلى شيء، تبديل شيء بشيء، تشبيه شيء بشيء، تفصيل شيء بشيء.

وهي بالنسبة إلى ابن البناء من الأساليب البديعة التي تمكّن المتكلّم إذا تمكّن منها من صناعة القول البديع من جهة، وتمكّن القارئ أو المستمع من إدراك كنه الخطاب الشّعري وما يحويه من فضائل دلالية من جهة أخرى، ومن إدراك مقاصد الخطابات على اختلافها.

ولقد اعتمد ابن البناء في مباحثه هذه على ثلاث مبادئ لغوية بلاغية هي: التّقليل والخروج والتّبديل، وهذه المبادئ تقابل مبدأ الخروج أو الخرق الذي تحدّث عنه جرایس في الاستلزام التخاطبي⁽¹⁾.

ويقصد بالخروج أو الإبدال هنا إخراج القول غير مخرج العادة لغاية أو لمقصد محدّد أي أتا نخرج أو ننقل من مستوى دلالي إلى مستوى دلالي مغاير بالاعتماد على جملة من الرّوابط المعنوية التي يجب أن يتحقّق فيها التّناسب بين كل معنى وآخر، ويفكّ شفراتها المستمع بنتّج جملة من الاستدلالات اللّغوية وغير اللّغوية لتحصيل الدلالة المقصودة.

(1) ليلي كادة، الإكّون التّداوي في النّظرية اللّسانية العربية ظاهرة الاستلزام التخاطبي (نموذجاً)، ص 421.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

وفكرة النقل أو الخروج لا تقتصر على الجانب التركيبي بعيدا عن السياق بل إن ذلك التحوّل أو الانتقال في الدلالة لن يحقق فعاليته ولن يؤتي وظيفته كفعل لغوي ما لم يتم داخل سياق محدّد، مكوّن من شبكة من العلاقات التي من شأنها تحديد بنية الصورة الناتجة عن النقل، ذلك أنّ تلك الاختراقات أو التحوّلات الدلالية في نسق الخطاب ما هي إلا أفعال غير مباشرة يسعى المتكلّم إلى تحقيقها على اعتبار أنّ >> الأفعال غير المباشرة هي نتيجة أنّ لكلّ تعبير معنى صيغة معيّنة تشير إلى دلالة معيّنة، هذا التعبير ناتج في مقام خطابي غير ملائم لهذه الدلالة التي يرتبط بها أساسا <<(1) ثم >> إنّ استعمال التعبير في مقام غير ملائم يؤتي إلى خرق إحدى هذه القواعد، فيسمح هذا بتولّد فعل لغوي آخر، يأتي بديلا عن الأفعال التي تؤتيها صيغ التعبيرات الأصلية. <<(2)

والمتكلّم إنّما يلجأ إلى مثل هذه الاختراقات أو التجاوزات الكلامية لأنّه يجد فيها ملاذا لغويا استعماليا >> يلجأ إليه عندما تأبى التعبيرات المباشرة أن تنقل مقاصده، <<(3) فعند قصور الدلالات الأصلية أو الصريحة عن تأدية وظيفتها التخاطبية، فإنّ ذلك يستدعي بالضرورة توجّه المتكلّم إلى الخروج عن نسقها التعبيري واستبداله بنسق آخر أكثر اقتدارا على حمل المقاصد، ملتزما في كلّ ذلك بشروط المقام ومكوّناته وبتحديد العلاقة التي تربطه بالمتحاورين معه، لأنّ ذلك المحاور يستند فيما بعد إلى تلك القرائن من أجل تحديد مدلول الخطاب الإضافي، ذلك أنّ >> تحديد المعاني الدلالية (الإضافية) يستند إلى قرائن نصية تركيبية في الكلام تساعد على توضيح المعنى أو توليد معنى من معنى بحسب سياقات الكلام. <<(4)

(1) المرجع السابق، ص 282.

(2) المرجع نفسه، ص 283.

(3) المرجع نفسه، ص 421.

(4) خالد ميلاد، المعنى عند البلاغيين (السكاكي نموذجا صناعة المعنى و تأويل النص)، منشورات كلية

الأدب، منوبة، سلسلة ندوات، مج 8، 1992، ص 162.

ويمكن إدراك القيمة الخطابية لمثل هذه الأساليب من خلال بحثنا لنماذج منها ضمن المدونة المراكشية وتبيان كيفية مواجهتها للمعنى نحو الغرض المقصود؛ ويقصد بذلك وضوح المعاني إذ المواجهة هي صفة من صفات الوضوح وكذا تسديد المعنى بحيث يكون دالا على المقصد، إذ من >> حسن المعاني - لدى النقاد - أن تكون مواجهة للغرض المطلوب، ظاهرة بحيث لا تحتاج إلى إعمال الفكر واتعابه في استنباطها، ولقد كانوا يقولون عن الشعر (السهل الممتع) لأن المرء يظن أن باستطاعته نظم مثله فإذا حاول وجده صعبا.⁽¹⁾ ولهذا عاب النقاد على المبدع المعاني البعيدة الغامضة التي >> لا يعلم غرضه فيها إلا مع الكد والفكر وطول التأمل، ومنه ما لا يعرف معناه إلا بالظن والحدس.⁽²⁾

1- أساليب الخروج من شيء إلى شيء:

ويقصد بالخروج عند ابن البناء الانتقال بالدلالة الخطابية من حال إلى حال أخرى، وهذا التحوّل في الخطاب من وجهة بلاغية يعادل مفهوم التداولية القائم بدوره على التحوّل والانتقال، وذاك ما يمكن أن نتبينه من قول ابن البناء: >> فأما الخروج من شيء إلى شيء، فقد يخرج من وصف شيء إلى وصف شيء آخر... إما تصريحاً ويسمى الخروج... وإما تضمناً ويسمى الإدماج.⁽³⁾ فالخروج عند ابن البناء نوعان؛ خروج تصريحى ويسمى بالخروج، وخروج تضمّني وأسماه الإدماج.

ويتحقّق الخروج في جملة من الأساليب منها التّخلص، والإدماج، التّفريع والاستطراد، التّجريد والانتقاة. وكلّها استراتيجيات خطابية تعمل على تقريب المعنى إلى ذهن السّامع وتمكينه في ذاته.

(1) محمّد عزّام، المصطلح النّقدى في التّراث الأدبي العربي، دار الشّرق العربي، سوريا، دت، 2010م، ص264.

(2) المرجع نفسه، ص264.

(3) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص95.

أ أسلوب التّخّصّ:

ولتّخّصّ فنّ خطابي يرتضيه ابن البناء يوثني عليه قائلاً: >> ومن بديعه اللّطيف التّخّصّ. <<(4) ويقصد به أنّ المتكلّم بيتدئ حديثه بغرض يقصده في كلامه، ثم يخرج إلى غرض آخر هو المقصود بتأق في عرضه وتلاؤم في خروجه وتنقله بين الغرض والغرض مع الحفاظ على المعنى الكلّي الرّابط بين الخروجين في صياغته.(1)

وقد مثّل له ابن البناء بقوله تعالى: ﴿أَلَيْكَ خَيْرٌ لِّأُمِّ شَجَرَةِ الرَّقُومِ إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ﴾ (2) ففي هذه الآية انتقال وخروج من وصف إلى وصف آخر مخالف للأول، حيث >> خرج الكلام من وصف المخلصين وما أعدّ لهم إلى وصف الظّالمين وما أعدّ لهم. <<(3) ومع كل انتقال في هذا الأسلوب ينتقل شعور المستمع وفكره، في الآية السابقة مثلاً انتقال من موطن الأمن لما سيلقاه المؤمن المخلص من خيرات في جنّات ربه إلى موطن الرّهبة لما ستكون عليه عاقبة الظّالمين من عذاب شديد، والذي ترمز له شجرة الرّقوم. فالتّخّصّ إذن هو >> منقلة من مناقل الفكر فيما تخّصّت إليه، فيجب أن يعتمد فيه ما يكون محرّكاً للّفس لتستأنف هزه، ونشاطاً لتلقّي ما يرد. <<(4)

ب - أسلوب الإدماج:

الإدماج أسلوب خطابي يعتمد بدوره على مبدأ الانتقال والتّحوّل الدّلالي، وهو يوافق الدّلالات التّضمّنية في القول، حيث لا يصرّح المتكلّم بمقاصده بل يضمّنها في خطابه بغية التّلطف من جهة، وإثارة واستفزاز فكر المتلقّي من جهة أخرى. ولم يحدّد المراكشي مصطلح الإدماج بل اعتمد على الشّاهد الشعري في توضيحه.

(4) المصدر نفسه، ص 95.

(1) سعاد صالح التّقفي، (المصطلح البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص 96 - 97.

(2) سورة الصّافات، الآية 62 - 63.

(3) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 95.

(4) حازم القرطاجني، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، تح محمّد الحبيب خوجة، دار الكتب الشرقية، دط، دت،

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

يُوقصد به عند ابن أبي الأصبع: >> أن يدمج المتكلم غرضاً له ضمن معنى قد نحاه جملة من المعاني ليوهم السامع أنه لم يقصده وإنما عرض له في كلامه لتتمة معناه الذي قصد إليه.<<(5)

وقد مثل ابن البناء لذلك بقول الناظم:

أَبِي دَهْرًا إِسْفَافًا فِي ذُو فُوسِنَا وَأَسْفَعْنَا فِيمَنْ حُبُّ وَكُرْمِ
فَقُلْنَا لِمَنْ عَمَّاكَ فِيهِمْ تَأْمَهُأ وَدَعَّ أَمْوَلًا، إِنَّ الْمَهْمَ الْمُقَدَّمَ (1)

فأدمج شكوى الزمان وشرح ما هو عليه من الاختلال في ضمن التهنئة وتلطف في المسألة، ووفق التحليل لبلوغ الغرض مع صيانة النفس عن التصريح بالسؤال وحمايته من الإذلال.(2)

فالإدماج إذن يتضمن ما يعرف بالدلالة الإيحائية التي لا تقتصر فقط على تلك الإضافات البسيطة لما تشمله من مفاهيم قريبة، بل إن هذا النوع من الدلالات قد يأخذ بـعدا استلزامياً يتمثل في المعاني أو الدلالات الناجمة عن التغيرات الأسلوبية التي تعمل على إضافة شحنات شعورية للتراكيب، وهي مرتبطة بالدرجة الأولى بمقصد المتكلم، فالمتكلم يلجأ إلى الإدماج كواحد من الأساليب ذات الدلالات الإيحائية لرفع الشحنات الدلالية لكلامه من جهة، والطاقة الحجاجية من جهة أخرى من خلال زيادة قوة تأثيره في الطرف المقابل له "السامع".

د - أسلوب التفريع:

وهو عند ابن البناء >> جعل أحد الوصفين عليه أهم من الآخر.<<(3) ويقصد بذلك انتقال المبدع من وصف شيء إلى وصف شيء آخر من خلال التدرج فيكون الكلام كغصن شجرة

(5) ابن أبي الأصبع، تحرير التّحبير، تح محمد حفني شرف، القاهرة، دط، 1416هـ، ص449.

(1) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص96.

(2) ابن أبي الأصبع، تحرير التّحبير، ص449.

(3) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص96.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

يتفرّع إلى عدّة تفرّعات مترابطة فيما بينها، وقد يكون ذلك إما استجابة لمتطلّبات المقام أو لمقصد خاص، أو بغاية تأكيد صفات الموصوف. ويعرّفه حازم بأنّه: >> هو أن يصف الشاعر شيئاً بوصف ما، ثمّ يلتفت إلى شيء آخر يوصف بصفة مماثلة أو مشابهة، أو مخالفة لما وصف به الأول، فيستدرج من أحدهما إلى الآخر.<<(4)

وينبغي أن يكون هناك تناسب وتناسق بين المعاني المنتقَى إليها، لأنّ ذلك ما يكسب الكلام حسناً دلالياً، ف>> ينبغي أن تكون القلّة من أحد المعنيين إلى الآخر فيما قصد التفرّيع فيه متناسبة، وأن يكون المعنى الثاني ممّا يحسن اقترانه بالأول ويفيد الكلام حسن موقع من النفس.<<(1)

ومن أمثلة ذلك كما ورد في مؤلّف الرّوض المريع، قول الشاعر:

كَلَامُهُ أُخْدَعُ مِنْ لِحْظِهِ وَوَعْدُهُ أُكْذَبُ مِنْ طَيْفِهِ

فبينما هو يصف خدع كلامه فرّع منه وصف خدع لحظه، وهما هنا يتشاركان في الصّفة، ثمّ يصف في الشّطر الثاني كذب وعده وفرّع منه كذب طيفه وهما يتشاركان أيضاً في صفة الكذب.(2)

وبما أنّ هذا الأسلوب قائم على الخروج فإنّ ذلك يستدعي توفّر رابط معنويّ يضمّ الأجزاء أو الأوصاف المنتقَى بينها، بحيث >> يأتي المعنى الثاني أو المنتقَى له محدداً للمعنى الأول ومؤكّداً له.<<(3)

(4) حازم القرطاجيّ، منهاج البلغاء و سراج الأدباء، ص 59.

(1) المصدر السّابق، ص 61.

(2) ابن البيّن المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 96.

(3) سعاد صالح الدّققي، (المصطلح البلاغي عند ابن البّناء)، ص 123.

هـ - أسلوب الالتفات:

إضافة إلى ما تقدّم من أساليب عرض ابن البناء أيضا لأسلوب الالتفات بوصفه استراتيجية خطابية من شأنها إضفاء لون خاص ومعنى إضافي للخطاب، وقد حدّده بقوله: >> أو يخرج من حضور إلى غيبة وعكسه ويسمى الالتفات، ويقال له خطب التّون. <<(4) ويقوم الالتفات بدوره على مبدأ الخروج والنّقل من أسلوب إلى أسلوب آخر، أو من حال إلى حال، ويعدّ >> الالتفات من البديع ومحاسن الكلام، وهو مأخوذ من التفات الإنسان عن يمينه وشماله، ولا يبدو أثره على السّامع إلّا حين يدرك انتقال الخطاب من أسلوب إلى آخر ومن حال إلى حال، لذلك فهو مرتبط به، ويحفل بكثير من القيم التّداولية لما له من تأثير على السّامع. <<(1)

والى جانب المستمع ينطوي باب الالتفات أيضا على أبعاد تداولية تتعلّق بالمتكلّم وبالخطاب، فالالتفات يرتكز في جانب من جوانبه على الحالة المزاجية للمتكلّم، ذلك أنّ التّغير الشعوري له ينتج عنه تغيير في الأسلوب الخطابي، فينتقل المتكلّم بالخطاب من حال إلى الحال المناسبة لنفسيته.

أمّا فيما يخصّ الخطاب فالالتفات يرتكز على مبدأ التّحوّل والانتقال من نمط خطابي إلى آخر، قد يكون من المباشر إلى غير المباشر، أو من الحاضر إلى الغائب تبعا لظروف المقام ودواعي الخطاب ولوازمه التي يسعى إلى إخضاع المتلقّي لها، فهو استراتيجية خطابية يعتمدها المتكلّم لـ >> يلفت لنتباه مخاطبه إلى ظروف الخطاب ودواعيه ولوازمه، ممّا يدفعه لى تلقّي الأمر بهذه اللّوازم والظّروف ويربي في نفسه بواعث الالتزام بالأمر وتلقّيه. <<(2)

(4) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 98.

(1) خليفة بوجادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، ص 731.

(2) ليلي كادة، الكون التّداولي في النّظرية اللّسانية العربية ظاهرة الاستلزام التّخاطبي (نموذجا)، ص 357.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

ويذهب ابن البناء إلى أن لهذا الأسلوب ضوابط معينة لا يجوز للمتكلم تجاوزها، ومن ذلك مثلاً أنه لا يجوز له الالتفات إلا في كلامين، ولقد مثل لذلك بقول امرئ القيس:

ظَّأولَ لَيْكِ بِالْأُمِدِ وَنَامَ الْخَيْ لَمْ تَرْقُدُ
وَبَاتَ وَبَاتَتْ لَهْلِيَّةٌ كَلِيَّةٌ ذِي الْعَرِ الْأَرْمَدِ
وَلَذَكَ مِنْ بِيَا جَانِي وَنَبَّئْتَهُ عَنْ بِي الْأَسْوَدِ⁽³⁾

لقد التفت امرؤ القيس في البيت الأول من الخطاب إلى الغيبة، والتفت في البيت الثاني من الغياب إلى الخطاب، والتفت في البيت الثالث من الحضور إلى الغيبة. وعلق ابن البناء على هذه الأبيات قائلاً: >> التفت امرؤ القيس في هذه الأبيات ثلاث التفاتات، ولا يجوز الالتفات إلا في كلامين.<<⁽¹⁾

ومن أمثله في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ قَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴾⁽⁸⁸⁾ قَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا⁽²⁾.

شاهد الالتفات السابق فيه انتقال للخطاب من الغيبة (قالوا اتخذ) إلى الخطاب (لقد جئتم) وغرضه زيادة التسجيل عليهم بجراعتهم على الله تعالى والتعرض لسخطه وتنبه لهم على عظم ما قالوا، كأنه يخاطب قوما حاضرين بين يديه منكرًا عليهم وموبخًا لهم.⁽³⁾

وخلاصة القول أن تنوع أساليب الخطاب له وقعه على السامع، إذ يأخذ به من نشاط إلى آخر، ومن وضع إلى وضع، مجددًا في أحوال تلقيه،⁽⁴⁾ كما أن ذلك الانتقال يجنبه السأم والملل ويضفي على الخطاب سمة التشويق والتعدد اللالي ما يسهل على المتكلم عملية الاستحواذ على مستمعه، وتحقيق ما يرومه من مقاصد، ف>>الكلام إذا نقل من أسلوب

⁽³⁾ ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص 98

(1) المصدر السابق، ص 98.

(2) سورة مريم، الآية 88 - 89.

(3) خليفة بوجادي، نحو منظور تداولي لدراسة البلاغة العربية، ص 231.

(4) المرجع نفسه، ص 231.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

إلى أسلوب آخر كان أحسن تطرية (تجديدا) لنشاط السّامع، وأكثر إيقاظا للإصغاء إليه من إجرائه على أسلوب احد. <<(5)

2 - تشبيه شيء بشيء:

ويقوم هذا القسم بدوره على مبدأ الانتقال و التغيير، فإنك حين تشبه شيئا بشيء فإنك تنتقل حاله الأول إلى حال ثانية بمنحه صفة شيء آخر، ولا يكون ذلك إلا إذا وجد ما يربط أو يجمع بينهما بغية تحقيق المناسبة بين الأطراف، أي أنّ التشبيه كي يقوم مقاما سليما لزم توفر التنااسب بين أطرافه (المشبه والمشبه به) فحين نسد مثلا أحد صفات المشبه به إلى المشبه وجب أن تكون تلك الصفة مناسبة ولاتقة به، وإلا وقع الخلل في الصورة التشبيهية وحدث نشاز بين أجزائها. وهو الأمر الذي نبه إليه ابن البناء في بداية حديثه عن هذا القسم: >> وأما تشبيه شيء بشيء، فإنه كما يشبه الأول الثاني، كذلك يشبه الثاني الأول، فلا بد أن يكون للمشبه به مزيد اعتبار من سبقه أو دوامه أو شرفه أو غير ذلك حتى يكون أولى بالصفة التي وقع التشبيه فيها. <<(1)

ولقد تعرّض المراكشي في هذا القسم إلى فرعين رئيسيين هما التشبيه والمناسبة، فالتشبيه يقوم على التنااسب بين أطرافه، والمناسبة تقوم أيضا على علاقة التشابه بين الأجزاء. ولم يحدّد ابن البناء التشبيه بالتعريف رما لأنه لم يرد تكرار ما قاله السابقون في هذا السياق، وتجاوز ذلك إلى الحديث عن التشبيه المعكوس قائلا: >> وقد يتكافأ في ذلك بأن تكون في أحدهما صفة تقتضي تقديمه على الآخر، وتكون في الآخر صفة تقتضي تقديمه على الأول، فيكون كلّ واحد منهما راجحا من وجه، مرجوحا من وجه، فيصحّ عكس التشبيه فيهما بالسوية. <<(2)

ولتشبيه المعكوس هو ما يأتي على خلاف العادة، ليحقق أقصى غاية في المعنى،⁽³⁾ وقد أورده ابن جنّي فيما أسماه بباب غلبة الفرع على الأصل، فمن المتواتر في العرف اللّغوي العربي مثلا تشبيه المرأة بالشمس، ولكن قد يعكس ذلك فتشبه الشمس بالمرأة، وما يجيز

(5) المرجع نفسه، ص 231.

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص 103.

(2) المصدر نفسه، ص 103.

(3) سعاد صالح الدّققي، (المصطلح البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص 98.

للمتكلم فعل ذلك هو قوة الصفة التي يحملها المشبه أو المشبه به، فإذا كانت الصفة التي يتوخى إبرازها هي في المشبه أقوى من المشبه به، أي أقوى في الفرع من الأصل جاز أن يعكس الطرفان فيشبه الفرع بالأصل، ويتقدم عليه. وقد يعكس المتكلم إذا تخلى رابطا ما بين الطرفين، أي أنه يتجاوز العلاقة الحقيقية إلى اختراع علاقة مجازية تجيز له ترجيح أحد الطرفين، ف>> قد يجعل المرجوح بالتخلي الشعري راجحا، وهو من ترجيح المجاز فيعكس التشبيه لأجل ذلك.<<⁽⁴⁾ ومثل ابن البناء لذلك بقول البحرني في قصيدة في مدح المتوكل:

فِي طَلْعَةِ الشَّمْسِ شَيْءٍ مِنْ مَحَانِدِهَا وَفِي القَضِيبِ نَصِيبٌ مِنْ تَنْبِيْهَا⁽¹⁾

فالشاعر هنا قام بعكس التشبيه، فصارت المرأة هي المشبه به (فرع) والشمس هي المشبه (أصل) لما تحمله المتغزل بها من محاسن تفوق محاسن الشمس في طلعتها لدرجة أن الشمس قد أخذت منها تلك المحاسن، وفي الشطر الثاني عكس الشاعر التشبيه بين الحبيبة المتغزل بها وبين القضيب، فالأصل أن تشبه المرأة في طولها و تنبئها بطول القضيب أو الخيزران، إلا أن الشاعر قام بتغليب الفرع على الأصل فشبه القضيب في طوله وتنبئها بطول الحبيبة التي تملك قواما رشيقا بلغ حد أن أخذ منه القضيب نصيبا.

وهذا النوع من التشبيه هو أبلغ ما يمكن أن يصل إليه المتكلم في تأليفاته الخطابية، لاسيما إذا أحسن الجمع والتأليف بين المتنابرات وحققت التناسب بينها، ف>>معظم جمال الشعر وبراعة الشاعر يتوقفان على حسن الجمع بين المتناسبات فإنه هو السهل الممتع وهو السحر الحلال الذي يختلب الألباب، ويستهووي العواطف وهو الذي به يتفاوت الشعراء ويتميز الفاضل منهم عن المفضول.<<⁽²⁾ ونشير إلى أن شرط حسن الجمع بين المتناسبات لا يعني عدم إمكانية التأليف بين المتغايرات، >> ولا يعارض أيضا حسن الجمع أن تكون المجموعات متغايرة الأجناس مختلفة الأنواع والأشكال بل قد تتغير هذه وتختلف أنواعها

(4) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص103.

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص103.

(2) جبر ضومط، فلسفة البلاغة، 135.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

وأشكالها وتبقى مع ذلك متناسبة بمعنى أنها تحمل النفس إلى غاية واحدة وتحذو بها إلى مقصد أصلي بنى عليه الشاعر كلامه وانصرفت إليه وجهته.^{<<(3)}

فالتشبيه المعكوس هو أسلوب قولي يعمل على تشتيت ذهنية المتلقي في اتجاهات مختلفة، حتى يبدو له أن بنية النص أو المشهد الموجود أمامه متناقض الأطراف ثم تعود تلك البنية لتظهر في شكل مغاير لتجمع ذلك الشّات الذهني، والخروج به إلى نتيجة غير متوقّعة، مفاجئة لما ينتظره السّامع من الخطاب، ففيه انتقال بشعور السّامع من حال التّساؤل إلى حال الدهشة والاستغراب إلى حال التّفاجؤ إلى الشعور باللّذة، ومن ثمّ فـ> بروز الشيء من غير معدنه ومن الجهة التي لا يتوقّع بروزه منها إذ ينقل النفس مما ألفت إلى ما لم تألف، يحرك في السّامع قواه المدركة والمتخيّلة ويدفعه إلى الفهم والاستكشاف. وعلى قدر الجهد الذي يبذله لإدراك ما لم يكن في البدء مدركا تكون اللّذة، لأنّها إحساس شديد الارتباط بالمقارعة والمجاهدة والتّحصيل.^{<<(1)}

ويشترط ابن البناء في الصّورة التّشبيهيّة خلّوها من الكذب والغلو، وذلك إشارة منه إلى احترام الخطاب الشّرعي واحترازا عن الطّعن، وكذا احترازا من أن يتوه المتلقي في تأويلاته بين تلك التّوهّمات النّاتجة عن الكذب والغلو في العلاقات التّشبيهيّة، ومن ثمّ فما بذّي من التّشبيه على الصّدق وعلى محاكاة الواقع كان من الأقوال الحكيمة، وما بذّي منه على الكذب والغلو خرج منها ودخل باب الشّعر الذي يدرجه في باب الجهل، وعليه> فكلّ ما في التّشبيه من كذب أو غلو، فلا يكون في الحكمة ويكون في الشّعر، لأنّه مبني على المحاكاة والتّخيل لا على الحقائق، ولذلك اختصّ الشّعر بأنواع ليست من البديع بحسب الحكمة، وهي من البديع بحسب اللّسان إذ الشّعر منه.^{<<(2)}

ويقسم ابن البناء التّشبيه إلى قسمين؛ بحرف وغير حرف، ويدخل التّشبيه بغير حرف تحت قسم تبديل شيء بشيء ويقصد بذلك الاستعارة، أمّا التّشبيه بحرف فينقسم إلى:

(3) المرجع نفسه، ص 137 - 138.

(1) حمّادي صوّد، التّفكير البلاغي عند العرب أسسه و تطوّه إلى القرن السّادس، ص 619.

(2) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص 103.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

- تشبيه مفرد⁽³⁾: وفيه تكون الصورة التشبيهية مفردة الأجزاء، أي أتا نشبه مفردا بمفرد، ومن ذلك قول الناظم:

لِي اللَّيْلِ يَمْضِي وَالنُّجُومُ كَأَنَّهَا يَبْعُونَ النَّدَامَى حِينَ مَلَّتْ إِلَى الْغَمَضِ⁽⁴⁾

فقد شبه الشاعر هنا الليل في انقضائه (صورة مفردة) بعيون السكارى التي تميل إلى النوم من شدة تعبها (صورة مفردة).

- تشبيه مركب⁽¹⁾: ويقال له التشبيه المتعدد، ويقوم على الجمع والتأليف بين عدد من العناصر وإخراجها مخرجا واحدا، ف>> تكون فيه صورة فنية مركبة تتجانس عناصرها وتتداخل وتأنف لتعطي نوعا من التشبيهات النادرة التي تحتاج إلى دقة نظر من واضعها، وإلى خيال خلاق مبدع من مؤولها.^{<<(2)}

ولهذا النوع من الفنون التصويرية والخطابية موقعه الحسن في النفوس لأنه ينتقل بها من حال الشتات إلى حال الألفة والانسجام، كما أن لندرته لطافة >>تنقل النفس من شيء تعلمه بالبديهة وفرط التعود إلى شيء لا تعلمه إلا بالفكر اللاطيفة والتأمل^{<<(3)} ففيه إذن تنشيط لذهن السامع من جهة، واقتصاد على انتباهه من جهة أخرى لما فيه من اختصار في اللفظ وحسن في الترتيب. ولتوضيح ذلك أورد ابن البناء قول الناظم:

رَأَيْتُ الْحَمِيَّا فِي الرَّجَاجِ بِهَكَّةَ فَشَدَّهْتُهَا بِالشَّمْسِ بِالبَدْرِ فِي البَحْرِ⁽⁴⁾

(3) المصدر نفسه، ص105.

(4) المصدر نفسه، ص105.

(1) المصدر السابق، ص105.

(2) سعاد صالح الثقفي، (المصطلح النقيدي و البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص113.

(3) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ج2، ص619.

(4) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص105.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

والتشبيه في البيت السابق تشبيه مركب لأن الناظم فيه قام بتشبيه شيئين بشيئين مراعيًا الترتيب في كل ذلك؛ حيث شبه الحميا في الزجاج بالشمس، وشبه الزجاج في كف الصانع بالبر في البحر.

و مثاله قول امرئ القيس:

كَأَنَّ قُلُوبَاطٍ يِرِ رَطْبًا وَيَابِسًا لَدَى وَكْرِهِا الْعُنَابُ وَالْحَشْفُ الْبَالِي (5)

ويأتي البيت عند صاحب لصناعتين من غرائب التشبيهات و بدائعها لأنه شبه شيئين بشيئين مفصلاً، الرطب بالعناب، واليابس بالحشف فجاء في غاية الجودة. (1)

وتأتى لطافة التشبيهين المعكوس والمركب من قدرتهما على استدراج السامع واللعب بعواطفه وعقله، حيث يعمل التشبيه على استمالته عن طريق تفريغ عواطفه ثم شحنها بشعور جديد هو الشعور ذاته المرتسم أو الكامن في ذات المتكلم.

وحاصل النظر فيما سبق أن التشبيه في كل صورته العالية الواقعة مواقعها فيه اقتصاد على انتباه السامع، فإن قولك "زيد كالأسدي" خيل للذهن من المعنى على أخصر طريق ما لا يخيله قولك "زيد شجاع" (2). كما أنه يعمل على تقرير وتمكين المعنى من خلال زيادة وضوح صورة المشبه في الذهن وفقاً لما يريده المتكلم، ويكون ذلك كثيراً بالانتقال من المعنى المجرد إلى المعنى المحسوس، وهذا الانتقال كأنما هو عبور على جسر يوصل بين عدوتي واد عميق لولاه لتوعر بنا الطريق، وتدمت أقدامنا لخشونة المسلك. (3)

3 - تبديل شيء بشيء:

يقوم مفهوم التبديل على مبدأ الانتقال والخروج من معنى إلى معنى آخر؛ أي إخراج دلالات الكلام من مظهرها الوضعي إلى مظهرها التخاطبي، ويندرج هذا القسم تحت باب

(5) المصدر نفسه، ص 105.

(1) سعاد صالح الثقفي، (المصطلح البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، ص 113.

(2) جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص 73.

(3) المرجع نفسه، ص 74.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

المجاز، ذلك أن المجاز بكل ما يحويه من صور يمثل بنية لسانية متحوّلة من شكل إلى شكل آخر، فالمجاز عند ابن البناء هو ما نُقل من موضوعه الأول في اللغة إلى غيره فيدخل فيه الإضمار، والإبدال والمبالغة والاستعارة والحذف، والزيادة وغير ذلك مما يتغير به الوضع الأول في اللغة. <<(4)

ويجب الإشارة إلى أن النقل والتحوّل الواقع في البنية اللسانية لا يكون على مستوى اللفظ فقط، فالتعامل مع الخطاب وفق هذا الأسلوب يجب أن يتم على مستوى أعمق، وهو مستوى العلاقة التخاطبية الذي يضم المعنى الوضعي والمعنى المنقول إليه، لأننا لو تعاملنا مع البنية الخطابية في إطارها الشكلي فقط فإتينا سنغوص في موضوع التحوير أو التزييف. كما أن ذلك الانتقال لا يتم بين الداليتين إلا إذا وجدت علاقة تبرر للمتكلّم ذلك الانتقال، ذلك أن >> عملية الانتقال من الحقيقة إلى المجاز عملية منظّمة عند القدامى لأنها عدول عن أنظمة الحقيقة إلى أنظمة المجاز، فقد وضعوا لهذا الانحراف الذي يتم في اللغة ضوابط، إذ لا يتحقّق المجاز إلا عند نقل اللفظ من دلالة إلى أخرى لوجود علاقة بينهما. <<(1)

ويُدرج المراكشي تحت هذا القسم جملة من الأساليب التي يجمعها قانون الخروج أو الانتقال من معنى إلى معنى مغاير منها؛ المتناسبة، والاستعارة، والكناية، والتّمثيل وصور أخرى تعتمد على الإبدال والتحوّل من نمط إلى نمط.

أ - المتناسبة:

وهو مفهوم يجمع في ثناياه مدلولات عدّة تربط بينها علاقة تناسبية. يقول ابن البناء في هذا السياق: >>أول إبدال شيء بشيء - وهو مجاز كلاًه - فمنه المتناسبة يبدل كل واحد من الأول والثالث بصاحبه، وكذلك الثاني والرابع. <<(2)

(4) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص163.

(1) ليلي كادة، (لمكوّن التداولي في النظرية اللسانية العربية ظاهرة الاستلزام التخاطبي أنموذجاً)، ص420.

(2) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص115.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

والملاحظ من قول ابن البناء أن تحقق مثل هذا الأسلوب في القول لا يتم إلا بوجود تلازم بين الأشياء المراد تأليفها، وذلك التلازم يجب توفره في العلاقات الدلالية في الخطاب حتى لا تنتشبت الصورة ولا يغمض معناها، وفي التصورات الذهنية لدى السامع كي يتمكن من فهم مقصود المتكلم. والرابط بين هذه المتناسبات قد يكون دلاليا أو اشتراك في الصنعة، أو في الفائدة أو فيما يؤتيه مضمون اللفظ، ومثاله في ذلك كما ورد في مؤلف الروض المريع >> نسبة الإيمان إلى الكفر كالثور إلى الظلمة، فيبدل اسم الأول وهو الإيمان باسم الثالث وهو الثور، فيقال: الإيمان نور، وكذلك يبدل اسم الثاني وهو الكفر باسم الرابع وهو الظلمة فيقال: الكفر ظلمة.<<(1)

وجود علاقة تناسب بين المفاهيم هو ما يسمح للمتكلم بالإبدال، فمثلا في نسبة الإيمان إلى الكفر كنسبة الثور إلى الظلمة لاشتراك الألفاظ الأربعة فيما توحى أو تدل عليه، فيمكن أن نبدل الاسم الثالث وهو الثور بالاسم الأول وهو الإيمان لاشتراكهما في عدة خصائص، فالإيمان مبدد للجهل والكفر الذي يعادل الظلمة الفكرية والفسية بسبب جحود النعمة، وكذلك الثور مبدد مزيل للنعمة موضح للأشياء، ومن ثم فكل متناسبين يشتركان في الإيحاء والوظيفة، فالإيمان إنارة للفكر والثور إنارة للمكان، والكفر ظلمة للفس وحجاب يستر الحقيقة عن العقل، وكذلك الظلمة تستر الأشياء وتخفيها.

وخلاصة القول أنه متى كانت العلاقة التناسبية أو التلازمية بعيدة بين المتناسبات كان المعنى غامضا وحجب بذلك المقصد عن السامع، لأن ذلك التباعد بين المفاهيم يعسو على المستمع مهمة تصور الدلالات وتحديد الرابط بينها والتالي تعطّل المعنى في ذهنه.

ب - الاستعارة:

تأتي الاستعارة عند ابن البناء كنوع من أنواع الإبدالات في المتناسبة القائمة بدورها على العلاقات المجازية، ويحددها ابن البناء قائلا: >> وجميع الاستعارات إنما هي إبدالات في المتناسبة.<<(2) ويتضح مفهومها أكثر من خلال قول الناظم:

(1) المصدر السابق، ص115.

(2) المصدر نفسه، ص115.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

غَلَاةٌ خَدَّهُ صُبِغَتْ بِوَرْدٍ نَوُونُ الصَّدْغِ مُعْجَمَةٌ بِخَالٍ

فنسبة خده إلى حمرة كنسبة الغلالة إلى صبغها بالورد، ونسبة صدغه إلى خاله كنسبة النون إلى النقطة التي تعجمها، فأبدل وركب التبدل في النسبة.⁽³⁾

وكلما كان التناسب بين أطراف الأسلوب الاستعاري بعيدا أو ركيكا كلما تدنى مستوى الخطاب وزاد غموضه وقلّ حسنه، لذلك يقول ابن البناء منها المتكلم إلى وجوب انتقاء الألفاظ التشابيه للتعبير عن مقاصده، وحسن إيقاعها في الموقع المناسب لها، فمتى وقعت >> الاستعارة موقعها كانت من أعلى طبقات الكلام بلاغة سواء أريد بها التزيين أو التهجين أو أريد بها الإيضاح والتبيين⁽¹⁾ وما لم ينح المتكلم المنحى السديد في اختياراته وتأليفاته أفسد على نفسه وعلى غيره سبل الحديث لأنه >> متى لم تكن ثم مناسبة أو كانت لكنها بعيدة أو ركيكة أو ساقطة كانت الاستعارة فاسدة، كمناخر البدر، وكماء الملام، وكحلواء البين، وككلب الوصال،... وغير ذلك مما وقع للشعراء من الاستعارات الفاسدة الباردة.⁽²⁾

وعليه فالاستعارة هي إعادة تكييف الواقع وتشكيله وفق منظور جديد موائم لمقاصد المتكلم ولظروف المقام، ولوازم الخطاب، مما يسمح له بتمرير خطابه دون عوائق، فالاستعارة تتمم بكونها وسيلة تعبيرية تواصلية تكون نتاجا لتفاعل فكر ونفس المتكلم مع مختلف التجارب والمعارف المتراكمة في ذاته وفي محيطه. وقد كان للبلاغة العربية السبق في لفت الانتباه إلى >> قيمة الاستعارة في شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده للمبالغة فيه جاعلة من الاستعارة وسيلة من وسائل تحقيق التواصل اللغوي الناجح الذي يرمي إلى حصر التحدث فيما هو مناسب للموضوع.⁽³⁾

(3) المصدر نفسه، ص115.

(1) عيد بلبع، <الرؤية التداولية للاستعارة>، مجلة علامات، مكناس، المغرب، العدد23، 2005م، ص108.

(2) ابن البناء المراكشي، الروض المريع في صناعة البديع، ص 116

(3) عيد بلبع، <الرؤية التداولية للاستعارة>، ص108.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

إضافة إلى تبيين المعنى وتوضيحه تمثّل الاستعارة مختصراً لفظياً يعكس مبدأ مهماً من المبادئ التداولية المعاصرة وهو مبدأ الكم، ف>> الرؤية العربية للبعد الكمي في الاستعارة التي تمثّلت في الإشارة إلى المعنى بالقليل من الألفظ تضع الاستعارة في بؤرة مبدأ الكم وفق تحديد جرایس لهذا المبدأ ولمفهومه الذي يتحدّد في قوله: حاول أن تجعل مساهمتك صائبة بالأقول ما تعتقد أنه هراء . أما مبدأ الكيف فإنه يمكن أن يكشف عن رؤية تداولية للاستعارة أكثر ثراءً، وقد حدّده بقوله: (ولا تتحدّث عن شيء لا تملك بشأنه حججاً كافية). <<(1)

فالرؤية التداولية للاستعارة تتّضح في أنها تقدّم المعنى على قدر الحاجة أو المطلوب من غير حشو ممل ولا إيجاز مخلّ، كما أنها تعتبر حجة أو برهاناً على ما يقّمه المتكلّم، إضافة إلى ما تؤدّيه الاستعارة من وظائف تعبيرية وتواصلية، فإنها تعمل أيضاً على نطاق الحجّة، ذلك أنها تعتبر >> مؤشراً موجّهاً للخطاب نحو سامعه على النحو الذي يريده المتلفّظ بالخطاب. <<(2)

والى جانب ذلك تحقّق الاستعارة غايات مافوق تداولية من خلال ما تؤدّيه من وظائف جمالية، وقد >>أخذ هذا البعد الجمالي في حساب الدراسات التداولية للاستعارة فيما يتعلّق بتحسين لمعرض الذي يبرز فيه الكلام. <<(3) والتّالي ف>> البعد الجمالي للاستعارة لا يعني حصرها في غاية الزينة والزخرفة، لأنّ هذا البعد الجمالي جاء تالياً لغايتي الإفهام والتّأكيد. <<(4)

وفي مقابل ذلك يذهب بعض الدارسين إلى أنّ الاستعارة هي من الأساليب التي تكسر قواعد مبدأ التّعاون التي جاء بها جرایس من خلال استهانتها بمبدأ الكمية، حيث تقوم بكسر هذا القانون التخاطبي الذي يضيق عليها مجال حركيتها للخروج إلى مجال أوسع من خلال التمرد على نظم الخطاب، وإحداث تغيّرات وتحولات على مستوى المحتوى والعلاقة

(1) المرجع السابق، ص 108 - 109.

(2) ليلي كادة، المكوّن التداولي في النّظرية اللسانية العربية ظاهرة الاستلزام التخاطبي (نموذجاً)، ص 382.

(3) عيد بلبع، >>الرؤية التداولية للاستعارة<<، ص 109.

(4) المرجع نفسه، ص 109.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

(اللفظ والمعنى) بما يناسب ظروف المقام ومقاصد المتكلم، إذ >> تُعدّ الاستعارة متجاوزة لمبدأ الكمية، و لها اقتضاءات متعددة في النصوص القرآنية، وتؤيّد دورا جوهريا، إذ تربط بين كلّ تحقّقات بنية استعارية واحدة لتصور ما. <<(5)

ولعلّ من أهمّ النتائج التي توصلّ لها سيرل أنّ >> الاستعارة هي مسألة معنى لفظي، وأنّ المحلّ المناسب لأيّ اعتبار للاستعارة إنّما هو التداولية. <<(1)

ج- الكناية:

يحدّد ابن البناء الكناية بأنّها >> إبدال في توابع الشّيء ولواحقه في الوجود <<(2)

فالمراكشي إذن يعتبر الكناية أيضا إبدال، لكنّ هذا الإبدال لا يتمّ على مستوى الشّكل فقط بل يكون على مستوى الشّكل والدلالة، حيث يبدل المعنى الأصلي (الوضعي) أو المتعارف عليه بمعنى آخر هو تابع له في الوجود (أي يتناسب معه) فيضنّ المتكلم ذلك المعنى في خطابه ويجعله دليلا على مقصوده. وهذا المفهوم هو المفهوم ذاته الذي أقرّه ابن قدامة في تعريفه للكناية: >> المراد بالكناية أن يريد المتكلم إثبات معنى من المعاني فلا يذكره باللفظ الموضوع له في اللّغة، ولكن يجيء إلى معنى هو تاليه وردفه في الوجود فيوميّ به إليه ويجعله دليلا عليه. <<(3)

وبدال المتكلم للمعنى الوضعي بمعنى آخر تابع له وتضمينه في الكلام يعني أنه قد قام بالانتقال من حال دلالية ظاهرة إلى حال دلالية مضنّة، وهذا ما يتطلب توفرّ علاقات لزومية بين المعاني المتتّقي بينها، لأنّ تلك الاستلزمات هي دليل السّلمع إلى المقصود من الخطاب إضافة إلى سياق إنتاج الصّورة الكنائية، وبذلك >> تعتبر الكناية إحدى الآليات

(5) عماد عبد يحيى الحيايلى، أشواق محمّد اسماعيل النّجار، الاقتضاء التداولي و أبعاده الخطابية في القرآن

الكريم (ظاهرة الاستلزام التّخاطبي أنموذجا)، ص73 - 74

(1) عيد بلبع، >> الرّؤية التداولية للاستعارة <<، ص100.

(2) ابن البناء المراكشي، الرّوض المربع في صناعة البديع، ص116.

(3) عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تصحيح محمّد عبده، تع رشيد رضا، دار المعرفة، لبنان، ص71.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

التي يتم الانتقال بها من اللازم إلى الملزوم، ولم يغفل القدامى عن جعل المقولات الكنائية مشروطة باعتبار مقام إنتاجها إضافة إلى الإحاطة بالعلاقات غير اللغوية التي يبني عليها فهم المعاني الثواني.^{<<(4)}

فالكناية إذن هي استراتيجية لغوية تمنح الخطاب أفقا دلاليا موسعا لا يقتصر فقط على ما تقمه الدلالات الوضعية، بل تتجاوز الحقيقة - دون التخلي عنها - إلى إنشاء علاقات دلالية جديدة قائمة على المجاز بنية التعبير عن المقاصد والاستجابة لمتطلبات المقام، وتوصيل المعنى إلى ذات السامع من أقصر الطرق، فهي من التعبيرات المضاعفة الدلالة لما تضمه من دلالات وضعية ودلالات تخاطبية تتباين بتباين المقام والمقاصد، ولذلك يقول عنها ابن البناء: >> قد تكون أقوى موقعا من التصريح^{<<(1)}. وهذا الأسلوب الخطابى الذي ينقل للسامع من التصريح إلى التضمين وللتلميح وبحق فوائده جمة هو ما سعت التداولية لكشفه، إذ إن من >> مهام التداولية بيان كيف يمكن للتواصل الضمني (غير الحرفي) أن يكون في الاستعمال أفضل من التواصل الحرفي المباشر.^{<<(2)}

وتؤتي الكناية وظيفة التواصل من خلال إنجازها لفعل لغوي غير مباشر بديلا عن الفعل اللغوي الذي يؤتيه ظاهر العبارة، من خلال خرقها لقواعد التعبير، ذلك أن >> استعمال التعبير في مقام غير ملائم يؤدي إلى خرق إحدى هذه القواعد، فيسمح هذا بتولد فعل لغوي آخر يأتي بديلا عن الأفعال التي تؤتيها صيغ التعبير الأصلية.^{<<(3)}

إضافة إلى التواصل تؤتي الكناية وظيفة التجسيد التي تعمل على تقريب المعنى إلى ذهن السامع مما يسهل عليه عملية تصوره، >> فهي تمثل للذهن المعنى المجرد بصورة جزئياته المحسوسة فيدرك من ثمة المعنى المقصود على أخصر طريق من غير استكراه ولا

(4) ليلي كادة، (المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية)، ص 421.

(1) ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص 116.

(2) باديس لهويل، >> التداولية و البلاغة العربية<<، ص 163.

(3) ليلي كادة، (المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية)، ص 393.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

عسر، وشدّان في الاقتصاد بين صورة تصوّر لك كما هي فتدركها، وبين صورة تتكلّف من ذات نفسك تخيلها أولاً وإدراكها ثانية.^{<<(4)}

د - التمثيل:

يورد ابن البناء هذا الأسلوب تحت قسم الإبدال، ويعتمد في تحديده لهذا الأسلوب على الشاهد القرآني، ويعرّفه ابن الأثير بقوله: >> التمثيل هو أن تُراد الإشارة إلى معنى فيوضع لفظ لمعنى آخر ويكون ذلك مثالا للمعنى الذي أريدت الإشارة إليه.^{<<(1)}

فالتّمثيل إذن إبدال للفظ المعنى المراد التّعبير عنه بلفظ آخر يحيل على معنى مغاير لوجود علاقة التّماتل بينهما. ولتوضيح ذلك أورد ابن البناء قوله تعالى: ﴿وَذِيَابِكُمْ طَهْرٌ﴾⁽²⁾ وعلّق على ذلك بإيراد قول الأصمعي: >> أراد نفسك، لأنّ العرب تكّني عن النفس بالثّوب.^{<<(3)}

عليه فلم يؤت بلفظ النفس للتّعبير عن الطّهارة وهي الموضوعه أصلا للتّعبير عن هذا المعنى، بل أُبدلت بلفظ آخر يحيل على معنى مماثل وموافق لها في العرف اللّغوي وهو لفظ الثّوب لتأدية معنى النّقاء والطّهارة، وذلك لتماتل اللفظين في وجوب النّقاء من النّجاسة والعيوب، والتّماتل هنا تماثل مجازي إذ لا توجد علاقة محسوسة وحقيقية تجمع بين الطّرفين؛ فالنفس تحيل على مفهوم مجرد والثّوب يحيل على مفهوم محسوس، وهذه هي غاية التّمثيل - والاستعارة والكناية - وغير ذلك من الأساليب المجازية التي تعمل على نقل المعنى من إطار مجرد إلى إطار محسوس ليكون أكثر اتّصاحا بالنّسبة لذهن السّلمع من ناحية تصوّر الدّلالة المقصودة.

(4) جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص101.

(1) ابن الأثير، المثل السائر، ج2، ص187.

(2) سورة المدثر، الآية، 3.

(3) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص117.

وبناء على ما سبق نخلص إلى أن جلّ الصّور البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز، وتمثيل، وتورية، وإيماء ذات وظيفة تداولية تتجلى لنا في قدرة هذه الأساليب على تحقيق التّواصل غير المباشر وتوصيل المعنى من أقصر الطّرق وعلى قدر المطلوب من غير ملل أو إخلال، وفي قدرتها على الإقناع حيث تستعمل هذه الصّور في الحجاج بخلق صّور جديدة في محيطها من خلال إعادة هيكلة التّصوّرات والمعطيات وترتيبها وفق نسق خاص يخدم المقاصد المراد توصيلها، وخاضعة في الآن ذاته لمعطيات المقام الذي يتكفّل فيما بعد بتوضيحها، وقد يلجأ إليها بسبب قصور الدلالات الحرفية عن تأدية المعنى المراد، فقد يكون الشّيء على حال من العظم بحيث يري أن الألفاظ لا تحيط به، ولا يوفّي البسط في العبارة ما ينبغي فيه، فيؤمئ له إيماء، أو يذكر ما يفخّمه به لتذهب النفس في تأويله كلّ مذهب.⁽¹⁾ وتتجلى لنا حاجية هذه الصّور على مستويين؛ المستوى العقلي الذي تسعى فيه إلى الإقناع، والمستوى الوجداني الذي تحرص فيه على استمالة السّامع ولتأثير فيه من خلال خلق اللّذة الشّعورية، فهذا النوع من الخطابات يعمل على العبث بعقل ونفس السّامع وبمخيلته من خلال رسم تصوّرات إبداعية مخالفة لتلك الصّور المعهودة أو المتعارف عليها، أي أنها تكسر النّطية والألفة وتخرج إلى غير المألوف لإحداث تأثيرات متنوّعة باعتبارها فعلا توجيهيا يدفع بالسّامع إلى تصوّر ما هو مرتمس في ذات محنّته، وهو ما يسمح للمتكلّم بتحقيق أغراضه والاستحواذ على سامعه، ورؤية ما يسعى له يتحقّق في سلوكه بعد تأويله للخطاب.

وقد يؤتى بها في معرض العدول من لفظ غير مستحبّ إلى لفظ آخر تحقيقا لمبدأ التّألب مع المخاطب وهو من المبادئ التي دعت التّداولية المعاصرة إلى وجوب اعتمادها في الخطاب، ويمكن أن نلاحظ ذلك أثناء حديث المراكشي عن الإيماء، حيث يعدل فيه المتكلّم عن أسلوب التّصريح إلى أسلوب التّلميح لأنّه يرى أن في العبارة الأولى إهانة لذات المتلقّي، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ﴾⁽²⁾ و قد علّق ابن البناء

(1) المصدر السّابق، ص 121.

(2) سورة المائدة، الآية 6.

على ذلك قائلاً: >أو يكون الشيء على العكس من ذلك، فيُكَنَى عنه أو يُؤمى له تنزيهاً للفس عن ذكره.<<⁽³⁾

ويواصل ابن البناء إيضاحه لفضل هذه الصور في الخطاب، والتي قد يؤتى بها لأمرين إما لاختبار ذكاء المتلقي وقرته على التأويل، أو لتنشيطه وتحريك ذهنه والانتقال به من حال إلى حال، من حال الجهل بالأمر إلى العلم به، ومن حال المسرة إذا توصلت نفسه إلى المقصود إلى حال الحسرة إذا عجزت عن ذلك، وكل ذلك يتم بأسلوب سلس شق لا يحدث في نفسه سأمًا ولا في ذهنه عجزًا عن كشف الغرض المقصود، فقد >> يكون الغرض شيئًا لا يتلّى في الحكمة كشفه إما لقصور الفهم عنه، وإما ليميز الفطن النكي من الجاهل الغبي، فيظهر للفطن شرفه فيسر، ويظهر لغيره قصوره فيتحسّر لعجزه، وربما يكون ذلك داعية لتحريك فكره حتى يخرج من ظلمة الجهل إلى نور العلم.<<⁽¹⁾

وبالتالي فإن هذه الصور البلاغية المرتبطة بالخطاب >> تعدّ مؤشرات تداولية مهمة تعنى بها قضايا التداولية أيها عناية على نحو ما نجد في النظرية الإشارية، والحجاج اللغوي، وأفعال الكلام، لكون تلك المؤشرات المطلوبة في الكلام البليغ تكشف عن قصد المتكلم ودرجة شدته في أفعاله الخطابية المتضمنة في جملة أقواله الصادرة عنه، كما تعدّ مؤشرات موجّهة للخطاب نحو سامعه على النحو الذي يريده المتلفّظ بالخطاب.<<⁽²⁾ ومن ثمّ فإنّ هذه الصور قادرة على خلق محيط تفاعلي بين المتكلم والمستمع باستخدام الألفاظ ذات الدلالات غير المباشرة، أو باعتماد البنيات اللسانية المتحوّلة.

4 - تفصيل شيء بشيء:

التفصيل باب واسع عند ابن البناء يدخل تحته أنواعا كثيرة وفروعا متعدّدة، فقد تكلم فيه وبلههاب عن التقسيم وأنواعه بالنظر إلى الجهات التي تعتبر فيه، ثم تناول التشكيك والتجاهل، والاتساع، والتضمن، والتوضيح، والتفسير وفرع هذا القسم إلى نوعين؛ شرح

⁽³⁾ ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص122.

⁽¹⁾ المصدر السابق، ص122.

⁽²⁾ باديس لهويل، >التداولية والبلاغة العربية<<، ص167.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

المبهم وبيان المجل. (3) والأساليب التي عرضها ابن البناء في هذا الباب هي أساليب خطابية ينتهجها المتكلم للتوضيح، كما أنها تعتمد بدورها على الانتقال من وضع إلى وضع بغية إخراج الخطاب المخرج الملائم لمقتضيات المقام ولحال المستمع، حيث ينقل فيها المتكلم السامع من حال الجهل بالشيء إلى حال العلم به، ومن حال الغموض إلى حال الوضوح. فالتفصيل بكل ما يشمله من أساليب يسمح بتوليد علاقات جديدة بين العلامات اللغوية ومدلولاتها بما يوافق مقاصد المتكلم وظروف المقام، >> فيخرج عن الدلالة بالذات إلى الدلالة بالموضع والسياق والقارئ باستعمال صنوف متعددة من الأداءات كالتوسّع في العبارة بتكثير اللفظ أو بترتيبها وتحسينها. <<(1)

فمفهوم التفصيل عند ابن البناء هو >> مفهوم يفتح الطريق أمام الإبداع الفردي، فيتصرف كل واحد في اللغة بحسب منزلته الأدبية ودقّة وعيده وحجّة شعوره بما لا يشعر به غيره. <<(2)

ومن الأساليب الخطابية المعتمدة في هذا الباب نجد:

أ - أسلوب التقسيم:

وهو أسلوب بلاغي على غاية من الأهمية استلطفه ابن البناء وأسهب في الحديث عنه: >> وأما تفصيل شيء بشيء فمنه التقسيم <<(3) وتتضح أهميته في أن ابن البناء جعله مفهوماً من مفاهيم البلاغة وركزاً لتحققها: >> والبلاغة في ذلك إنما هي صحة التقسيم بحيث لا تتكرر ولا يدخل بعضها في بعض، واستيفاء الأقسام وحسن سياقها. <<(4)

وتتجلّى لنا الأهمية الخطابية لهذا الأسلوب في أنه يعطي الكلام وزناً حسناً، ويزيد المعنى جلاءً وإيضاحاً، وقد مثل ابن البناء لذلك بقوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ، وَمِنْهُمْ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي

(3) ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، مقّمة المحقق، ص 36.

(1) حمّادي صوّد، التفكير البلاغي عند العرب، ص 404.

(2) المرجع نفسه، ص 414.

(3) ابن البناء المراكشي، الروض المربع في صناعة البديع، ص 127.

(4) المصدر نفسه، ص 129.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

الآخِرَةَ حَسَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٥﴾ فالناس بحسب الآية صنفان أو قسمان؛ قسم يلهث وراء ملذات الدنيا ولا يأبه بعواقب الآخرة، فيدعو الله أن يأتيه من خيرات الدنيا فقط، وقسم يخاف عاقبة أخراه فيدعو الله أن يأتيه أجرا وخيرا في دنياه وفي آخرته.

ويتفرع هذا الأسلوب إلى أسلوب آخر يدعى التسهيم، ويقع عندما يكون المقسم بالقوة والأقسام بالفعل؛ ويقصد بذلك >> ألك إذا قلت إن الشيء كان موجودا بالقوة، ثم صار موجودا بالفعل عنيت به أنه يمر بثلاث حالات هي: الإمكان، والتجهؤ، والتحقق. <<(1) ويتضح لنا ذلك من خلال قول الخنساء:

بِيضِ الصِّدَاحِ وَسُمْرِ الرَّمَاحِ فَبِالْبَيْضِ ضَرْبًا وَبِالسُّمْرِ وَخَزَا(2)

وَتَلْبَسُ فِي الْحَرْبِ نَسَجَ الْحَدِيدِ وَنَسَبَ فِي السَّلْمِ خَزَا وَقَزَا

فقد قسّمت الشاعرة آلة الحرب إلى صفاح ورماح، وهذه الآلة لم يتحقق وجودها إلا بدخولها حيز الفعل وهو عملها، ومن هنا قسّمت النّازمة عملها إلى ضرب ووخز تبعا للقسمة الأولى مراعية في ذلك حسن الترتيب، والربط بين الأقسلم حتى لا يقع الخلل في نظمها ولا التداخل في معانيها، ويظهر حسن قسّمها أيضا وتوزيعها لمفردات الكلام بطريقة تجعل المعنى أكثر إيضاحا تقسيمها في البيت لثاني اللباس إلى نسج الحديد وإلى الخز والقز، وقد لفت ذلك بقسمة الزمان بين الحرب والسلم فجاء نظمها على أعلى ما يكون من درجات البلاغة والإيضاح الدلالي.

والملاحظ أن التسهيم عند ابن البناء مقدرة فنية من المبدع يقصد بها إعمال فكر المتلقّي من خلال ربط السابق باللاحق للوصول إلى المقصد من الكلام(3)، ومن خلال وصل أقسام الألفظ ببعضها البعض لتحصيل الدلالة الكلية للخطاب.

(5) سورة البقرة، الآية 200 - 201.

(1) سعاد صالح الثّقفي، (المصطلح النّقدّي والبلاغي عند ابن البنّاء المراكشي)، ص110.

(2) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص128.

(3) سعاد صالح الثّقفي، (المصطلح النّقدّي للبلاغي عند ابن البنّاء المراكشي)، ص110.

ويشيد ابن البناء ببلاغة هذا الأسلوب وقدرته على توصيل المعنى باختصار وحسن سياق من خلال تعليقه على قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ لَمُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ، وَإِنْ كُنْتُمْ نَجَبًا فَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾ (1) ففي هذه الآية خمسة أشياء: المكافون، والحدث، والطهارة، وما به تكون الطهارة وكيفية العمل فيها. فقسم المكافين إلى حاضر ومسافر، وأيضا إلى صحيح ومريض، وقسم الحدث إلى الأكبر والأصغر وهو على ثلاثة أقسام: نوم، وما يخرج من السيلين معتادا، ولمس النساء. وقسم الطهارة إلى الكبرى والصغرى، والصغرى وضوء وتيمم، وقسم ما به تكون الطهارة إلى الماء وإلى الصعيد الطيب، وقسم كيفية العمل في الطهارة الصغرى إلى كيفية الوضوء وإلى كيفية التيمم، وأيضا إلى غسل ومسح. فهذه سبعة عشر قسما مذكورة بأحكامها على أبلغ ما يكون من بديع النكر استيفاء وإيجازا وحسن سياق. (2)

ب - أسلوب التشكيك:

وهو من الأساليب التي تعمل على تفصيل الكلام وتوضيحه، ولم يتعرض له ابن البناء بالتعريف بل اعتمد في توضيحه على الشاهد القرآني.

وهو عند السجلماسي >> إقامة الذهن بين طرفي شك وجزئي نقيض، وهو من ملح الشعر، وطرف الكلام، وأحد الوجوه التي احتيل بها لإدخال الكلام في القلوب وتمكين

(1) ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص130.

(2) المصدر نفسه، ص130.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

الاستفزاز من النفوس، وفائدته الدلالة على قرب الشبهين حتى لا نفرق بينهما ولا يمزج أحدهما من الآخر، فلذلك كان له في النفس حلاوة وحسن موقع، بخلاف الغلو.^{<(3)>}

وتكمن لطافة هذا الأسلوب في استفزازه لفكر المستمع، إذ يقوم على إيهامه بأن المتكلم مختار ملتبس عليه الأمر ومختلط، لكن الحقيقة أن المتكلم متأكد كل التأكد مما يخاطب به، وهو من أساليب المراوغة الكلامية التي تريد أن تثبت على المستمع حكم المتكلم بطريق غير مباشر، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ أُولَئِكَ أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولَهُ، بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾⁽¹⁾

فاللَّه تعالى في هذه الآية لا يورد هذا الأسلوب لأنه لا يعلم ما يدور في ذات الظالمين، ولا لأنه غير متأكد من مذهبهم، بل يورده بصيغة التشكيك ليثبت جفاءهم وخوفهم ومرضهم من شدة كفرهم، فهو يريد أن يثبت عليهم حكم كفرهم، وينقل الشك إلى نواتهم واستفزازها، فالكلام هنا جامع بين طرفين متآلفين ظاهراً متناقضين باطناً، هما الشك واليقين، ويظهر الشك في قوله تعالى: "أفي قلوبهم، أم ارتابوا، أم يخافون" ويظهر اليقين والإثبات في قوله: "بل أولئك هم الظالمون" فهو إذن قد نقل نفس المتلقي بين حالين متضادين هما الشك واليقين.

ج - أسلوب الاتساع:

يحدّد ابن البناء الاتساع بقوله: >> وهو أن يكون اللفظ يحتمل معنيين فأكثر، إما من جهة الوضع وإما من جهة احتمال اللفظ الأفراد ولتّركيب أو احتمال تركيبين مختلفين<<⁽²⁾

ويقصد ابن البناء بالاتساع هنا اتّساع المعاني وكثافتها الإيحائية التي تتضح من خلالها تفاصيل الشيء الكامن وراء الألفاظ ومعانيها، أي توجه اللفظ إلى معنيين بحسب ابن جني و ذلك ما يرفع من الطّاقة الدلالية لللفظ ممّا يزيد من طاقته الحجاجية وقوته التّأثيرية.

(3) السّلماسي، أبو القاسم، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تع علال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، 1401هـ/1980م، ص276.

(1) سورة الذّور، الآية 50.

(2) ابن البنّاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص131.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

ولتوضيح مقدرة هذا الأسلوب في أداء الكلام بوجوده دلالية عدّة يقول ابن البناء: >> فما لفظه واحد ويحتمل معناه قول الناظم:

وَكَنتُ كَذِي رَجُلَيْنِ رَجُلٌ صَاحِبَةٌ وَرَجُلٍ رَمَى فِيهَا الزَّمَانَ فَتَدَّتْ (3)

ويبين المراكشي المعاني المحتملة لهذا البيت قائلاً:

- يحتمل ثلاثة معان:

- قيل معناه أنه تمنى أن تضيع قلوبه فيجد سبيلاً للمقام عندها، فيكون من إقامته عندها كذي رجل صحيحة، ومن ذهاب قلوبه التي تحمله وانقطاعه عن سفره لأجلها كذي رجل سقيمة، ويدل عليه قوله قبل ذلك:

فَبِتَ قَلُوصِي عِنْدَ عَزَّةٍ فَيُدَّتْ بِحَبْلِ ضَعِيفٍ بَانَ هُنَا فَظَدَّتْ

فكأنه قال: فليت قلوبى ضلت، وليتني كنت كذي رجلين. (1)

والاحتمال الثاني للبيت كما يقول ابن البناء: وقيل إنها لما عاهدته أن لا تحول عليه، ثم حالت عليه وثبت هو على عهدها صار كذي رجلين: رجل صحيحة وهو ثباته على العهد، ورجل شلاء وهو تحولها عن عهده، ويدل عليه قوله في القصيدة:

وَكُنَّا هَدْنَا عُقْدَةَ الْوَصْلِ بَيْنَنَا فَمَّا تَوَافَقْنَا شَدَّدْتُ وَوَحَدْتُ (2)

وثالث احتمالات هذا البيت أنه: قيل معناه أنه بين خوف ورجاء، وقرب وتناء. (3) وما أن هذا الأسلوب قائم على تعدد الاحتمالات التأويلية للتركيب أو للفظ فإنه يتطلب من المبدع أو من المتكلم الكفاية اللغوية اللازمة التي تمكنه من انتقاء الألفاظ ذات الاحتمالات الدلالية المتعددة وعلى مقدرة من المستمع تتمثل في ذكّه التأويلي لاستنتاج الخطاب

(3) المصدر نفسه، ص 132.

(1) المصدر السابق، ص 132.

(2) المصدر نفسه، ص 132.

(3) المصدر نفسه، ص 132.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

والتوصل إلى مقاصده، ووجود مثل هذه المساحات الدلالية يسمح بخلق أفق لتلاقي المستمع والمتكلم واشتراكهما في صنع الخطاب أو العملية التحويرية، >ففي الاتساع تتجاوز اللغة الوصف المباشر والتعبير عن الحقيقة بإيحاءات ودلالات إضافية تشكل مجال النص وجوهه.<(4)

د - أسلوب التوضيح:

يحدده ابن البناء قائلاً: >ومن التفصيل ما يقال له التوضيح وهو إحضار المعنى للنفس بسرعة إدراك، ولا يكون إلا بالأفصح والأجلى من الألفاظ وأحسنها إبانة ومسموعاً، وسماء الرمانى حسن البيان<(1)

ويذهب ابن البناء إلى أن هذا الأسلوب هو أساس بلاغة الكلام ومآنتها لأن الأساليب السابقة وخاصة المعتمدة على الانتقال من المعنى المباشر إلى المعنى غير المباشر فإنها إن لم تحمل بعض صفات الإيضاح فإنها ستدخل باب التعقيد والإغلاق. وأهمية هذا الأسلوب يمكن أن نتبينها من قول المراكشي: > وهذا النوع هو عمود البلاغة ومادة أساليب البديع، و إنما جعلته في التفصيل لأن الله سبحانه وصف كتابه بأنه بيان للناس و بأنه تبيان لكل شيء وتفصيل لكل شيء<(2)

وتكمن الفائدة الخطابية لهذا الأسلوب في أنه ينقل المعاني إلى ذات المستمع في جلاء وبيان ومن غير تكلف وتعقيد، فيفهم المستمع المقصود من غير حاجة إلى قرينة توضحه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾⁽³⁾ وقد علق ابن البناء على أسلوب هذه الآية قائلاً: >فهذا من البيان الموجز الذي لا يقرن به شيء<(4)

(4) سعاد صالح الثقفي (المصطلح النّقدى و البلاغى عند ابن البنّاء المراكشى)، ص 77.

(1) ابن البنّاء المراكشى، الرّوض المربع فى صناعة البديع، ص 134.

(2) المصدر نفسه، ص 134 - 135.

(3) سورة البقرة، الآية 179.

(4) ابن البنّاء المراكشى، الرّوض المربع فى صناعة البديع، ص 135.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

وحاصل النظر فيما سبق أنه لكي يحقق المتكلم تواصلًا ناجحًا مع مستمعه ويضمن استمرارية التخاطب بينهما عليه أن يعمد إلى التنوع في أساليبه التخاطبية >> فينتقل من صورة إلى صورة في سائر ما يأخذ به من ضروب الهيئات الكلامية، فلا يطيل في شيء مما يأخذ به من الوصف ولا يكثر من موالاة معنى بعينه من معاني مدح أو ذم، ولا يستهويه نوع من أنواع مجاز أو مبالغة مهما حسن بنفسه ذلك النوع، كما أنه لا يتكلف ضربًا واحدًا من ضروب العبارة الكلامية أو تنسيقًا واحدًا من تنسيقات الجملة ولاسيما في كل ما تتحرك له النفس ويهيج من انفعالاتها⁽¹⁾ فيأتي في كل ذلك بصور خطابية متنوعة متغايرة يسوقها بحسب ظروف المقام وحال مخاطبه، لأن ذلك من شأنه أن يجتبه تبرم السامع و مله من خطابه و يجتبه في محصلة كل ذلك ضياع مقصده.

ويعتبر مفهوم الخروج أو الإبدال أو الانتقال من المفاهيم الرئيسية التي تشكل دعائم الأسلوبية، فقد فهموا وبعد طول نظر أن ممزات اللغة في الأدب خروجها عن مألوف العبارة واحتتيال الأدباء في بنائها طبق أنماط علائقية مبتدعة بحيث لا نصل إلى المعنى إلا بواسطة⁽²⁾.

في إطار تفسير القاد والبلاغيين لأثر هذه الفكرة على المتلقي وما تحدثه في ذاته من تغيرات شعورية عرضوا >إلى طرق في التفسير هي شبيهة بالطرق التي تنتهج اليوم لتحديد ظاهرة الأسلوب ومن ذلك ربطهم الأثر الفني لحالة الغريبة التي تعترى المتلقي بعنصر المفاجأة، وهي أن يرد في الكلام ما لم يكن المتلقي يتوقع وروده لعدم تضمن السياق ما يهيئ له، فتحدث المفاجأة بسبب الخروج عن منطوق الاحتمالات وعن المفاجأة تحدث اللذة⁽³⁾ ويظهر لنا ذلك في تبيان ابن البناء لهذا الأثر الذي يمكن أن ينتج إذا ما انتقل المتكلم بين الأضداد وأحسن الجمع بينها: >> فمتى جاء الجمع بين الضدين فلمعنى آخر

(1) جبر ضومط، فلسفة البلاغة، ص147.

(2) حمادي صمود، التفكير البلاغي عند العرب، ج2، ص617.

(3) المرجع نفسه، ص619.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

لقصد البيان، فإنّ بضدها تتبيّن الأشياء، وهو المسمّى طباقاً، ولما تجد النفس في ذكرهما مجموعين من اللّذة لأنّ اللّذة في التقاء الضّمين.^{<<(4)}

كما أنّ ذلك الخروج عن المألوف في اللّغة والتّحوّل من دلالة إلى دلالة أخرى يعادل عمليّة تداولية مهمّة أسماها >> جرایس بعملية الخرق حيث يرادف الخرق عنده الخروج عن قاعدة معيّنة لتشكيل مستوى آخر من مستويات الدّلالة، حيث يتمكّن المتكلّم عبره من تضمين مجموعة من المعاني ويقوم المستمع باشتقاقها من الرّسالة اعتماداً على بعض القرائن اللفظية والمقامية والمعارف المشتركة بين المتكلّم والمستمع.^{<<(1)} وذاك ما تمثّله الكناية والاستعارة والمجاز والتشبيه، وصور الإبدال المختلفة التي عرض لها ابن البذاء كإبدال المدح بصورة النّم، وإبدال الخبر بصورة الطّلب، كقوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ الْأَوْدَهْنَ حَظّاً كَامِلِينَ﴾⁽²⁾ وأسلوب الخروج الواقع في هذه الآية إمّا وقع تلتظفاً من الله سبحانه وتعالى، حيث يظهر الخطاب في صورة إخبار عن أنّ كلّ والدّة ترضع مولودها عامين كاملين، لكنّه في الحقيقة أمر من الله سبحانه وتعالى يلزم فيه أن ترضع كلّ أم مولودها لما في ذلك من منافع، >> ودلالة السياق هي التي قطعت بأنّه أمر لا خبر، كأنّه قال: لترضع الوالدات أولادهنّ حولين كاملين.^{<<(3)} وإنّما يقع الإبدال في الأساليب التخاطبية تحقيقاً لمقاصد ونزولاً عند مقتضيات يستلزمها المقام أو تستدعيها ظروف التّخاطب وهو ما يدعى في التّداوليات المعاصرة بالاستلزام الحوارية الذي يتجلّى لنا في مفاهيم بلاغية عدّة منها: الأغراض التي تؤيها الأساليب، دلالة المفهوم، المعنى المقامي، المعنى الفرعي.^{<<(4)}

(4) ابن البذاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص111.

(1) ليلي كادة، (المكوّن التّداولي في لأظريّة اللّسانية العربيّة)، ص117.

(2) سورة البقرة الآية 233.

(3) ابن البذاء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، ص120.

(4) العياشي أدراوي، الاستلزام الحوارية في التّداول اللّساني، ص25.

الفصل الثاني: الأساليب الكلامية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التخاطبية

وبناء على ما سبق نصل إلى أن مختلف الأساليب والظواهر الخطابية السابقة ليست فقط وسائل تصويرية تعمل على نقل الواقع بصورة حتمية، بل هي وسيلة من وسائل إنتاج الدلالات وتحقيق الأغة بشكل تأثيري يجعل السامع يتقبّل ذلك المعنى ويتأثر به، بل ويمارس نشاطاته على أساسه، فهذه الفنون الخطابية > تلت إلى الطريقة التي تجعلنا نتفاعل مع ذلك المعنى ونتأثر به، إنها لا تشغل الانتباه بذاتها إلا لأنها تريد أن تلفت انتباهنا إلى المعنى الذي تعرضه، وتفجّونا بطريقة تقديمه.<(5)

(5) إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، ص72.

خاتمة

خاتمة:

نصل في ختام هذه الدراسة التي حاولنا من خلالها الكشف عن أهم الملامح التّوجّهات التّداولية في الفكر البلاغيّ العربيّ من خلال الأنموذج التّطبيقيّ كتاب "الروض المريع في صناعة البديع لابن البنّاء المراكشي" إلى جملة من النتائج مفادها:

– أنّ هذه الدراسة قد كشفت لنا عن وعي ابن البنّاء المراكشي بكل العوامل المتحكّمة في المسار الخطابي ضمن العلاقات الحوارية، وضمن علاقات نسج القول أو صناعة القول البديع (المفيد لمعناه) وذلك من خلال تشديده على وجوب إدراك المتكلم للعلاقات اللّغوية المتمثّلة في قواعد اللّغة من نحو وصرف وبلاغة، وعلى إدراك العلاقات غير اللّغوية المتمثّلة في السّياق والأعراف، و ما شدّد ابن البنّاء على ذلك إلّا لعلمه بأنّ هذين النوعين من العلاقات هما سبيل المتكلم إلى صناعة القول البديع، وسبيل المستمع أو المتلقّي للتّأويل. ثمّ إنّ هذه العلاقات تمثّل رابطاً مهمّاً بين الدلالات الحقيقية والدلالات التّخاطبية أثناء الإنتاج، وقناة مرور استدلالية يتبعها السّامع في عمليّاته التّأويلية للوقوف على المقاصد الصّحيحة للبنية الخطابية.

– الدلالات القولية تتباين بتباين أوجه الارتباط بين اللفظ والمعنى، وسياتفت التّأليف والاستعمال، فالدلالة لا تقتصر فقط على المعاني المعجمية بل هي دلالة استعمالية قائمة على الفهم الكلّي لمدلّولات الألفاظ معزولة عن السّياق من جهة وضمن سياتق تأليفها من جهة أخرى، وبالتّالي دلالتها التي تكتسبها من خلال الاستعمال.

– الأساليب التي تحثّ عنها المراكشي وما ينضوي تحتها من مفاهيم تؤكّد أنّ التّأدية أمر ضروري لكلّ علم من علوم اللّسان، فلا فائدة من الكلام إذا لم يكن مؤسّساً على مقصد ولأجل غاية، وإن لم يكن فصيحاً يسهل تسلاّه إلى النّوات والتّمكّن فيها، ذلك أنّ العبرة بالقدرة على الإبلاغ والإفهام، أي لتّواصل الفاعل وهذا أعلى مراتب التّداولية.

- إن تعرّض ابن البناء للصّور البلاغية المختلفة من كناية واستعارة وتشبيه وصور بديعية، والدّتي نّبه إلى ضرورة استغلالها في صناعة القول البديع أي القول البين الواضح - بحسب ما نصّ عليه ابن البناء - كشف لنا عن مذحى جديد للبلاغة العربيّة عامّة وللبيدع خاصّة، ويتعلّق الأمر بالوظيفة التّداولية بكل ما يضمّه هذا المصطلح من مدلولات (فهم، إفهام، تواصل، تعليم، جمالية) لا الوظيفة التزيينية أو التّحسينية بالمنظور السّلبى كما هو شائع عن علم البديع لدى الكثيرين، وعن البلاغة عند البعض، فهذه الصّور تأتي لتحقيق غايات أجلّ وأسمى؛ منها تعليم طبقات الكلام، صناعة القول البين الواضح المستساغ الّذي من دون شك سيكون له وقع حسن في الأسماع، وأثر في النفوس بتملّكها ليتغلغل في الذات وحقّق الغاية الأولى لكلّ خطاب وهي الإقناع. كما أنّ امتلاك مثل هذه الأساليب يعمل على تهذيب الطّبع و تحسين قوّة البيان، ممّا يقود إلى فهم الخطاب الأسمى - بالدرجة الأولى - وهو الخطاب الإلهي، وفهم الخطابات بجميع أنواعها، وذلك هو الغرض الّذي بنى لأجله المراكشي مؤلّفه: >> ومنفعته في زيادة المنة وفهم الكتاب والسنة <<.

- إن ما تعرّض إليه ابن البناء من مسائل لغوية من مثل حديثه عن قضية اللفظ والمعنى، والدّلالة، وأقسام الكلام، وأساليب مواجهة المعنى نحو الغرض المقصود وغيرها من القضايا يثبت أنّ مشروع المراكشي البلاغيّ هو مشروع في صناعة القول البليغ بكلّ ما يحمله من سمات تواصلية تفاعلية، فما دونه من آراء بلاغية يمتاز بنظرات استشرافية ذات امتداد معرفي على مستوى الزّمان و المكان، ممّا يجعله مثالا واضحا على أسبقية الفكر العربي في تناول العديد من القضايا اللّغوية الّتي بحثتها التّداولية حديثا، لكن ذلك لا يعني أنّ ابن البناء كان يعتمد المنهج التّداولي بقواعده و تصنيفاته، بل إنّ هذا المنهج كان حاضرا في المدونة باعتباره طريقة في التّفكير إلّا أنّها طريقة ثابتة تنبئ عن وعي ابن البناء بكل ما يقمّه من معارف.

- وحاصل النظر أنه وعلى الرغم من أن البلاغيين قد تعرضوا للكثير من المسائل اللغوية والعديد من المفاهيم إلا أن هذه المفاهيم قد عرفت تغوّرات تميّزت بتناميها الدلالي والوظيفي في الدرس التداولي بحيث خرجت من نمطيتها القديمة، وهذا ما يقودنا إلى خلاصة مهمة تتعلق بذلك التّكامل الذي أنشأته وتنشئه البلاغة العربية مع مختلف العلوم الحديثة، يُوْبِينُ أيضا عن مرونة الدرس البلاغي العربي واتّساع مباحثه ومعارفه التي من دون شك تمنحه أحقيّة التّواجد في الدرس الحديث والمعاصر، لكن ذلك لا يعني الاكتفاء بما قَمَّ في هذا المجال، بل على الباحثين الاستفادة مما يَقيّم حديثا من معارف لتطوير البلاغة العربية حتّى تتَمَكَّن من مواصلة امتدادها وتشعبها على نحو يساير الفكر والمناهج المعاصرة.

والخلاصة فإنّ هذا المنجز ليس إلّا ضربا من الاجتهاد نسعى من خلاله إلى التّأصيل المعرفي الذي يحقّق نوعا من التّواصل والحوار الفكري بين الأجيال والمذاهب، من خلال قراءة واعية للكتابات التي تزخر بها المكتبة العربية والتي تشهد على ذلك الجهد العظيم الذي بذله القدماء في سبيل بناء معرفة إنسانية خالصة، فالباب يبقى مفتوحا لمثل هذه الدراسة فقد نكون أصدنا فيما قَمْنَا وقد نكون جانبنا حدّ الصّواب في بعض الأحيان، ويتعنى على الراغب في مواصلة هذا السبيل النظر في ما قَمَّ ليسدّ ما اعوجّ من خطى وليضيف مفاهيم علمية جديدة يكون مسعاها الدائم خدمة المعرفة الإنسانية عامّة والعربية خاصّة، وذلك ما يضمن التّواصل الفكري والتّجدد المعرفي فلا تموت معارفنا في ثنايا الورق أو يتناولها غيرنا فلا نخسر ولا نخسر جهدا كان بين أيدينا، فلا نعود لنتحسّر عليه بعد الضياع.

قائمة المصادر

المصادر والمراجع:

- القرآن الكريم برواية ورش.

أولاً : المصادر والمراجع العربية:

1. ابن الأثير، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ت محمد محي الدين عبد المجيد، المكتبة العصرية، بيروت، دط، 1410هـ/1990م.
2. ابن البناء المراكشي، الرّوض المريع في صناعة البديع، تح رضوان بنشقرون، المغرب، دط، 1985م.
3. ابن أبي الأصبغ، تحرير التّحبير، تح محمد حفني شرف، القاهرة، دط، 1416هـ.
4. أبو محمد القاسم السّجلّماس، المنزع البديع في تجنيس أساليب البديع، تح علّال الغازي، مكتبة المعارف، الرباط، ط1، 1401هـ/1980م.
5. أحمد مطلوب، البحث البلاغي عند العرب، بغداد، العراق، دط، 1982م.
6. جبر ضومط، فلسفة البلاغة، مطبعة العثمانية، لبنان، دط، 1896 م.
7. جبر ضومط، الخواطر الحسان في المعاني والبيان، مطبعة الهلال، مصر، دط، 1892م.
8. دازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحسين خوجة، دار الكتب الشّرقية، دط، دت.
9. حسن حامد صالح، التّأويل اللّغوي في القرآن الكريم، دار ابن حزم، لبنان، ط1، 2005م.
10. خالد ميلاد، المعنى عند البلاغيين (السّكاكي أنموذجا صناعة المعنى و تأويل النصّ)، منشورات كلية الآداب، منوبة، سلسلة ندوات، مج 8، 1992م.
11. الرّازي، نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، تع نصر اللّاه حاجي، دار صادر، بيروت لبنان، ط1، 2004م.
12. رجاء عدي، فلسفة البلاغة بين التّقنية والتّطور، منشأة المعارف، الاسكندرية، ط1، دت.

13. السّكاكي، أبو يعقوب، مفتاح العلوم تح نعيم زرزور، دار الكتاب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1403هـ/1983م، ط2، 1407هـ/1987م.
14. شرف عبد العزيز، علم الإعلام اللّغوي، الشركة المصرية العالمية للّشر (لوجمان)، مصر، ط1، 2006م.
15. شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي، ج2) عصر التّويلات و الإمارات، الجزائر، المغرب الأقصى، موريتانيا، السّودان، دار المعارف، القاهرة، ط1، 1119م.
16. صّود حمّادي، التّفكير البلاغي عند العرب أسسه و تطوره إلى القرن السّادس، ج1، ج2، منشورات كذّية الآداب، منوبة، تونس، دط، 1991م.
17. طه عبد الرّحمان، في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثّقافي العربي، الرباط، المغرب، ط2، 2000م.
18. طه عبد الرّحمان، اللّسان والميزان، المركز الثّقافي العربي، الدّار البيضاء، المغرب، ط1، 1998م.
19. عبد السّلام المسّتي، التّفكير اللّساني في الحضارة العربية، الدّار العربية للكتاب، تونس، ط1، 1981م.
20. عبد الفتّاح أحمد يوسف، لسانيات الخطاب و أنساق الثّقافة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 1431هـ / 2010م.
21. عبد الفتّاح بسيوني، (علم البديع) دراسة تاريخية و فنية لأصول البلاغة و مسائل البديع، مؤسّسة المختار، القاهرة، مصر، ط2، 1418هـ/1998م.
22. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تص محمّد عبده، تع محمّد رشيد رضا، دار المعرفة للطّباعة، بيروت، لبنان، ط1، 1415هـ/1996م.
23. عبد الهادي بن ظافر الشّهري، استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتب الجديدة، سور الأزبكية، ليبيا، ط1، 2004م.
24. عبد الواحد حسن الشّيخ، العلاقات الدّلالية و التّراث البلاغي العربي (دراسة تطبيقية)، جامعة الاسكندرية، مصر، 1419هـ/1999م.

25. عبد الوهّاب الأزدي، البحث البلاغي بالمغرب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، دط، 2008م.
26. العيّاشي أدراوي، الاستلزام الحواري في التّداول اللّساني (من الوعي بالخصوصيات النوعية للظّاهرة إلى وضع القواعد الضّابطة لها)، دار الأمان، الرباط، ط1، 1432هـ/2011م.
27. القزويني جلال اللّين، الإيضاح في علوم البلاغة، تح محمّد عبد المنعم خفاجي، دار الكتاب اللّبناني، بيروت، لبنان، ط5، 1980م.
28. الكاتب ابن وهب، البرهان في وجوه البيان، تح محمّد شرف، مطبعة الرّسالة، دط، دت.
29. محمّد إقبال عروي، دور السّياق في التّرجيح بين الأقاويل التّفسيرية، روافد، الكوّيت، ط1، 1428هـ/2007م.
30. محمّد محمّد يونس علي، مقدّمة في عمي الدّلالة والتّخاطب، دار الكتاب الجديدة المتّحدة، لبنان، ط1، 2004م.
31. محمّد مفتاح التّلقّي و التّأويل (مقاربة نسقيّة)، المركز التّقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1994م.
32. محمّد العمري، البلاغة العربيّة (أصولها و امتدّاتها)، أفريقيا الشّرق، المغرب، دط، 1999م.
33. محمّد عزّام، المصطلح التّقدي في التّراث الأدبي العربي، دار الشّروق العربي، بيروت، لبنان، دط، 2010م.
34. محمّد كريم الكّواز، البلاغة والتّقد، الانتشار العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
35. ناعم عودة خضر، الأصول المعرفية لنظرية التّلقّي، دار الشّروق، عمّان، الأردن، ط1، 1997م.
36. نواري سعود أبو زيد، تداولية الخطاب الأدبي (المبادئ و الإجراء)، بيت الحكمة، الجزائر، ط1، 2005م.

ثانيا: الرسائل الجامعية:

37. أم الخير سلفاوي، (البعد التّداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسّكاكي)، مذكرة ماجستير، جامعة قاصدي مباح، ورقلة، 2004م.
38. حسن هادي محمّد، (البحث البلاغي عند الأصوليين)، رسالة دكتوراه، الجامعة المستنصرية، جمهورية العراق، 1425هـ / 2004م.
39. سلامة جمعة العجالين، (اتجاهات البلاغة في القرنين السّادس و السّابع الهجريين)، رسالة دكتوراه، جامعة مؤتة، الأردن، 2008م.
40. سعاد فريح صالح الثّقفي، (المصطلح الثّقدي و البلاغي عند ابن البناء المراكشي)، رسالة ماجستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السّعودية، 1423هـ.
41. سليم أودينة، (فلسفة التّداوليات الصّورية و أخلاق النقاش عند يورغن هابرماس)، مذكرة ماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، 1439هـ / 2008م.
42. سليم حمدان، (أشكال التّواصل في التّراث البلاغي العربي دراسة في ضوء اللّسانيات التّداولية)، رسالة ماجستير، جامعة الحاج لخضر، باتنة، الجزائر، 2008 - 2009م.
43. عبد السلام عشير، (إشكالات التّواصل في اللّسانيات التّداولية، مقارنة معرفية تداولية)، رسالة دكتوراه، 2000م.

ثالثا: المجلّات و النّوريات:

44. مجلّة جامعة خيضر، بسكرة، جوان 2011م.
45. مجلّة جامعة تكريت للعلوم الإنسانيّة، مج 15، ع1، كانون الثّاني 2008م.
46. مجلّة حوليات التّراث، جامعة مستغانم، الجزائر، ع12، 2012م.
47. مجلّة دراسات أدبيّة، مركز البصيرة، الجزائر، ع1، جمادى الأولى، 1429هـ / ماي 2008م.

48. مجلّة دعوة الحق، ع 244، يناير 1985م.
49. مجلّة دعوة الحق، ع338، أكتوبر 1998م.
50. مجلّة دعوة الحق، ع342، أبريل 1999م.
51. مجلّة علامات مكناس، المغرب، العدد 22، 2005م.
52. مجلّة علامات مكناس، المغرب، العدد 23، 2005م.
53. مجلّة فصول، الهيئة المصرية العامّة للكتاب، مصر، ع66، ربيع 2005م.
54. مجلّة الموقف الأدبي، ع399، تّوز 2004م.
55. ندوة حول جوانب من الأدب في المغرب الأقصى، جامعة مهد الأول، وجدة، أليم 11 - 12 - 13 ، أبريل 1984م.

رابعاً: المعاجم والموسوعات:

56. ابن منظور، لسان العرب، ج8، دار صادر، بيروت، لبنان، ط3، 1414هـ.
57. أحمد بن فارس، مقاييس اللّغة، تح عبد السّلام محمّد هارون، ج1، دار الفكر، دط، 1399هـ/1979م.
58. أحمد مطلوب، معجم اللّغ العربي القديم، دار الشؤون الثقافيّة العامّة، بغداد، ط1، 1989م.
59. الجوهري أبو نصر اسماعيل بن حمّاد، الصّاح، تح أحمد عبد الغفور عطار، دار الملايين، بيروت، لبنان، ط4، 1407هـ/1987م.
60. موسوعة ويكيبيديا الحرّة.

خامساً: المراجع المترجمة:

61. أن ريبول، القاموس الموسوعي للتّداولية، ج1، ترج عزالدين المجذوب و آخرون، دار سيناترا، تونس، دط، 2010م.
62. أمبرتو إيكو، التّأويل بين السيميائيات و التّفكيكية، ترج سعيد بن كراد، المركز الثقافيّ العربي، دط، 2000م.

63. أوزوالد ديكر، << مقام الخطاب >> مقال ضمن القاموس الموسوعي الجديد لعلوم اللسان، ترج منذر عيَّشي، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2007م.
64. رولان بارت، قراءة جديدة للبلاغة القديمة، ترج عمر أوقان، أفريقيا الشرق، دط، 1994م.
65. فرانسواز أرمنيغو، << المقاربة التداولية >>، ج1، ج2، ترج سعيد علّوش، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، ع41، أيلول 1986م.
66. فليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر صابر الحباشة، دار الحوار سورية، ط1، 2007م.

سادسا: المواقع الإلكترونية:

67. عمر أوكان، مقّمة في البلاغة العربية، <http://www.ta5tub.com> بتاريخ: 9 أبريل 2015.
68. ثنائية الصدق و الكذب في النقد الأدبي بالغرب الإسلامي، <http://www.alukhah.ne> بتاريخ: 9 أبريل 2015.
69. سليم محفوظي، التكرار في الدراسات الحجاجية، <http://www.ta5atub.com> بتاريخ: 19 مارس 2015.

الفهرس

فهرس الموضوعات:

الموضوع	الصفحة
مقدمة.....	(أ - ح)
مدخل:الاتصال اللساني بين البلاغة و التداولية.....	ص01
تمهيد.....	ص02
1- البعد الوظيفي التداولي للبلاغة العربية.....	ص07
أ - الوظيفة الإبلاغية (التواصلية).....	ص08
ب - الوظيفة الإقناعية (التأثيرية).....	ص10
2- أشكال الاهتمام بالمتكلم ومقاصده في البلاغة العربية.....	ص11
3 - أشكال الاهتمام بالمستمع في البلاغة العربية.....	ص14
4 - المقام ومطابقة الكلام لمقتضى الحال.....	ص17
الفصل الأول:علاقات التفاعل بين البلاغة العربية و التداولية.....	ص20
تمهيد.....	ص21
المبحث الأول:الرؤية التداولية والمفاهيم البلاغية عند المراكشي.....	ص35
1 - صناعة البديع.....	ص35
أ - مفهوم الصناعة.....	ص35
ب - البديع.....	ص40
ج - صناعة البديع.....	ص46
2 - علم البيان وصناعة البيان.....	ص50

- 3 - مفهوم الفصاحة و البلاغة.....ص58
- أ - مفهوم البلاغة.....ص59
- ب - مفهوم الفصاحة.....ص63
- المبحث الثاني للمنى التداولي ووظائفه في صناعة البديع.....ص68
- 1- الوظيفة التعلّيمية.....ص69
- 2- الوظيفة التواصلية.....ص70
- 3- الوظيفة التاثيرية.....ص72
- أ - الإقناع.....ص72
- ب - الإمتاع.....ص75
- المبحث الثالث: المقومات البلاغية لتحقيق الفعل التداولي.....ص77
- 1 - مراعاة المتكلم.....ص79
- 2 - مراعاة المستمع.....ص83
- أ - مبدأ الاقتصاد على انتباه السّامع.....ص86
- ب - مبدأ الاقتصاد على متأثرية السّامع.....ص89
- 3 - مراعاة الأغراض.....ص91
- 4 - مراعاة السياق الذي يجري فيه الحدث اللّغوي.....ص96
- الفصل الثّاني: الأساليب القولية بين الدلالات الحقيقية والدلالات التّخاطبية.....ص102
- تمهيد.....ص103
- المبحث الأول: أقسام الدلالة عند ابن البناء.....ص107

- 1 - دلالة العبارة من جهة أصل الوضع.....ص110
- أ - دلالة المطابقة.....ص110
- ب - دلالة التضمن.....ص110
- ج - دلالة الالتزام.....ص111
- 2- دلالة العبارة من جهة التّخاطب.....ص113
- أ - دلالة المنطوق.....ص114
- ب - دلالة المفهوم.....ص114
- ج - دلالة المعقول.....ص115
- 3 - أقسام الدّلالة اللفظية من جهة إفراد المعنى وتركيبه.....ص117
- 4 - مراتب الدّلالة.....ص120
- أ - دلالات الأعيان.....ص121
- ب - دلالات الأذهان.....ص121
- ج - حقائق مجردة.....ص122
- المبحث الثّاني: الخطاب وجوهه وقوانينه.....ص124
- 1 - أقسام الكلام من حيث الصّياغة.....ص125
- 2 - أقسام الكلام من حيث المخاطبات.....ص126
- أ - البرهان.....ص126
- ب - الجدل.....ص126
- ج - الخطابة.....ص127

د - الشعر.....	ص128
هـ - المغالطة.....	ص134
3 - أقسام الكلام من حيث الاستعمال.....	ص135
4 - أسباب غموض الكلام.....	ص140
المبحث الثالث المبادئ التّخاطبية التّداولية والأساليب البلاغية.....	ص145
1 - مبدأ الكم.....	ص147
2 - مبدأ الأسلوب.....	ص148
3 - مبدأ الكيف.....	ص151
المبحث الرابع: أساليب التّحوّل والانتقال ومواجهة المعنى نحو الغرض المقصود....	ص153
1 - أساليب الخروج من شيء إلى شيء.....	ص156
2 - تشبيه شيء بشيء.....	ص161
3 - تبديل شيء بشيء.....	ص166
4 - تفصيل شيء بشيء.....	ص175
خاتمة.....	ص185
قائمة المصادر والمراجع.....	ص189
فهرس الموضوعات.....	ص196
ملخص التّراسة	

الملخص

ملخص الدراسة:

تتناول هذه الدراسة الموسومة بملاحم التفكير اللساني التداولي في التراث العربي من خلال مؤلف الرّوض المريع في صناعة البديع لابن البناء المراكشي "أهمّ التّجديّات اللّسانية التّداولية في المدوّنة البلاغية، من خلال تعرّض المراكشي في مؤلّفه لجملة من القضايا اللّغوية والّتي تتطوي على رؤى لسّوية حديثة تعكس لنا عمق ثقافته ووعيه الفكري واتّساع معارفه واستقلالية منهجه الّذي تمّوزه دقّة المصطلح وعلميته. وقد افتتحنا الدراسة بمدخل وضحنا فيه أهمّ نقاط الاشتراك بين البلاغة العربيّة والتّداولية الغربيّة، ثمّ تلاه فصل أوّل وضحنا فيها التّمزّز الفكري لابن البناء من خلال بحث جملة من المفاهيم البلاغية الّتي عكست لنا عمق رؤيته اللّسانية والّتي سجّلت في الكثير من المواطن الأسبقية في التّناول، ويعقب هذا الفصل فصل ثانٍ عالّجنا فيه عدداً من الأقسام الدّلالية والّتي تتباين بتباين أوجه الارتباط بين اللفظ والمعنى وسياقات التّأليف ومواقف الاستخدام، وإلى جملة من الأساليب الخطابية الّتي ينحوها المتكلّم ليوجّه كلامه ونواياه نحو المقصد الّذي يرومه من الخطاب، وقد بيّنا في الآن ذاته الأثر الانفعالي التّداولي لعدد من الأساليب والصّور البلاغية المعتمدة على مبدأ التّحوّل والانتقال من حال إلى حال لإنجاز أفعال معينة كالإقناع والإفهام والتّعبير عن مقاصد محدّدة ومنها؛ لاستعارة، والكناية، والتّشبيه، والتّمثيل،... إلخ وحاولنا في كلّ ذلك إيضاح علاقة الأثر الانفعالي والحجاجي لمختلف تلك الصّور الخطابية بالمتلقّي، وكذا علاقتها بمقاصد الخطاب، والأسباب الّتي تفرض على المتكلّم تنويعها .

ومن ثمّ فالكلام بحسب مفهوم ابن البناء لا يشتمل على مضامين فحسب، بل هو كلام مؤسّس على المقاصد وهذا ما يجعل منه " فعل داخل مجريات فعلية" وهذا ما يحتمّ تجاوز النّظر إلى نصوص الخطاب على أنّها مجرد دلالات ومضامين إلى أكثر من ذلك، إذ يجب النّظر إليها على أنّها نشاط لغوي يحاول إنجاز جملة من الأفعال والسلوكات

المتضمّنة في الآن ذاته لكلّ تلك الدلالات والمضامين، الّتي لا يمكن احتجازها في النّطاق المعجمي فقط، بل هي دلالات ومحتويات متباينة بتباين العلاقات بين المستخدمين.

Résumé

Cette étude qui comme intitulé « Les caractéristiques de la réflexion linguistique délibérante dans le patrimoine arabe à travers l'ouvrage " Rawd El-Mari' Fi Sinaat El-Badi'" (Le paradis de l'horreur dans la production de l'adorable) de Ibn El-Bana El-Marrakechi » a pour objet les plus importantes manifestations de la linguistique délibérative dans le domaine de la rhétorique.

El-Marrakechi a abordé dans son ouvrage un certain nombre de problèmes illustrant des visions linguistiques modernes, montrant ainsi sa profonde culture, sa conscience intellectuelle, l'étendue de ses connaissances, sa méthode indépendante qui se distingue par précision de sa terminologie, ainsi que son caractère scientifique.

Nous avons d'abord commencé notre étude par une introduction dans la quelle nous avons expliqué les points communs les plus importants à la rhétorique arabe et à l'éloquence occidentale.

Ensuite, nous l'avons fait suivie, dans le premier chapitre dans lequel nous avons précisé la spécificité intellectuelle d'Ibn El-Bana grâce à l'étude d'un ensemble de concepts rhétoriques qui ont montré la profondeur de sa vision et qui ont été l'objet d'un emploi exclusif dans de nombreuses situations.

Puis, dans deuxième chapitre, nous avons traité un certain nombre de sections significatifs qui se distinguent les unes des autres par les liens qu'entretiennent les termes avec leur sens et leur adaptation aux différentes situations d'emploi. Nous avons aussi abordé un certain types de discours auxquels a recours le locuteur pour véhiculer ses idées ainsi que ses intentions vis-à-vis du récepteur.

Nous avons montré par la même occasion l'effet déclamatoire délibérant d'un certain nombre de figures de style employées comme principe de

transformation pour passer d'un état à un autre afin de réaliser des actes voulus: expliquer, convaincre, s'exprimer. Parmi ces figures de style, on peut citer : les métaphores, métonymies, la personnification. En sommes, nous avons essayé de clarifier les relations affectives et argumentatives de toutes ces formes rhétoriques et leur impact sur le récepteur et que le locuteur doit diversifier.

Ainsi, selon la conception d'Ibn El-Bana, le discours ne correspond pas seulement à un contenu, mais c'est un propos fondé sur des intentions. C'est ce qui en fait un « acte dans une conduite effective». C'est pourquoi il est impératif de considérer le texte discursif comme n'étant pas seulement un ensemble de signes et de contenus. Il faut le considérer comme une activité linguistique visant à réaliser un ensemble d'actes et de comportements, comportant par là-même des significations et des contenus qu'on ne pourrait enfermer dans un cadre lexicographique. Mais, ce sont des significations et des contenus distincts selon les relations distinguant leurs employeurs.

Abstract

This study which tagged by examines "features of deliberative lingual thinking in the Arab heritage through the author Rawd terrible in Budaiya industry of Ibn Albana Marrakechi " The most important manifestations of deliberative linguistic in rhetorical Code through Marrakech presented in his attribution of a number of linguistic issues which involved on modern linguistic visions that reflect the depth of our culture and consciousness and intellectual breadth of his knowledge and independence of his approach, which distinguishes the term of accuracy and knowledge . We have opened the study by entrance we have explained the most important subscribe points between Arabic rhetoric and Western deliberative, then it followed by first chapter, we explained where the intellectual excellence of Ibn Albana through research a series of rhetorical concepts that reflected us the depth of his vision of linguistic which have recorded in a lot of the precedence places in handling , then we followed by second chapter in which we addressed a number of tag sections, which varied depending on the linkages between word and meaning and authoring contexts and the positions of use, and to a number of rhetorical methods that towards the speaker to direct his words and his intentions towards the destination which Arovernm of speech, and we have explained at the same time the emotional deliberative impact for a number of styles and rhetorical images based on the principle of transformation and transition from event to

event to perform certain acts like persuasion and incomprehensible, and the expression of specific purposes including; metaphor, and metaphor, simile, and representation, ... etc. and in all this t we tried to clarify the relationship and the emotional impact of the various arguments to those rhetorical images to the receiver, as well as their relationship to the purposes of the speech, and the reasons that impose on the speaker the diversification.

And then, the discourse according to Ibn Albana's concept it does not include the contents, but it is the word of the founder on the purposes and this is what makes him "act within the actual course" and that's what makes it imperative to look at the texts override the speech as a mere semantics and the contents more than that, so, it must be seen as a linguistic activity trying to accomplish a number of acts and behaviors that are included in the same time all these connotations and implications, that could not be detained in lexical scale only, but it is semantics and disparate contents contrast relations between users.